عالية ممدوح

التشهي



دار الآداب

عالية ممدوح

التشهّي

رواية

دار الآداب - بيروت

التشهّي

عالية ممدوح/روائيّة عراقيّة

الطبعة الأولى عام 2007

دار الآداب للنشر والتوزيع

ساقية الجنزير ـ بناية بيهم

ص.ب. 4123-11

بيروت ـ لبنان

هاتف: 861633 (01) - 861632(03)

فاكس: 009611861633

e-mail: d_aladab@cyberia.net.lb

Website: www.adabmag.com

إليه... و

أخذت موعدًا مستعجلاً مع طبيبي الباكستاني حكيم الصديقي، حافظ سرّي، هذا ما اعتقدته وكان عليّ أن أتحقّق من ذلك بنفسي. هو ليس متعجرفًا لكنّه في بعض الأحيان يصير أخرق ولئيمًا. راقبته حين سحب من لساني وعلى دفعات ما كنت غير مستعجل كثيرًا للإفصاح عنه. كنت أتوقّع الرحمة بي، أو التصرّف بأريحيّة هادئة لكي أفهم أنا بالدرجة الأولى ماذا ألمَّ بي وبصاحبي، سوف أطلق على ذَكَري هذا الاسم لكي لا يترتّب على ذلك بعض التكرار والمضايقة. تعالت ضحكته على شكل تموّجات البحر تعلو ثم سرعان ما تنخفض ممّا جعل منخريه ينفتحان إلى آخرهما، فضاقت عيناه وتبع ذلك بعض الشهقات الغريبة. يضحك بصورة خارقة للعادة، كأنّه يريد التخلّص ممّا يشعر به من خوف، والأدقّ من خطر، فشعرت أنّ قلبه أوشك على الانفجار. قلتُ، من الجائز، أنّ ذلك التصرف هو نوع من

التعاطف المتطرّف معي، لكن هذا لم يكن دقيقًا ممّا جعلني أتأكّد أنّه يقوم بكل هذه التصرّفات كما يليق برجل لا يزال عضوه في تمام الاكتمال. بطرف إحدى عينيه الشرهتين الماكرتين كان يغمزني، العين اليسرى على ما أحسب، كأنّه يراني للمرّة الأولى. يحدّق إلى أسفل، أسفلي ثم إلى أعلى ويعود إلى نوبة الضحك من جديد. يتذكّر أشياء لا أعرف ما هي وحركاته لم تكن بقدر من البساطة التي أعرفها عنه، فازددت حنقًا لكنّي لم أدعه يلاحظ ذلك. دسّ يديه الاثنتين بجيبي سرواله وبدأ يسير أمامي بطريقة بطيئة جدًّا وهو يدلّ ويشير بهما، مرّة على شكل قبضة يد وتارة يستخدم الإصبعين بحركات لا تخلو من معنى مأخوذ من وضعيّتي المزرية، فألاحظ شيئًا هناك كأنّه قائم يزداد انتصابًا من تحت سرواله، شيئًا عبقريًّا يحرّك الجثّة حتى. والحال، طبيبي كان يملك نوعًا من الدعابة التي لم استلطفها، كأن يمسك عضوه بيده ليغيظني ويتوعّدني به، ليقول فقط، إنّه حيّ ونابض بالدم والقوّة أكثر منّي. أرى الأشياء التي لم أكن أراها من قبل فأزداد ارتباكًا وغضبًا وأنا صامت، أحيانًا أنظر إلى أسفل حيث أحاول أن أضع قدمي بجوار الثانية، وأشدّ على ساقي وفخذي لكي يلتصقا بصورة من الصور لكنّي لا أقدر. كنت أستغرب وأنا أسمعه يسعل ويمسح دموعه التي سالت من عينيه بمنديل أخرجه من جيب سترته، يتمنّى لو يعاود الضحك الشديد لكنّه يتراجع عن ذلك، ربّما من أجلي، هكذا كنت أتوهّم. الغريب أنّه لم يوجّه إليّ أيّ كلام ولا جعلني أدخل معه في نوبة الضحك تلك، كأنّني غير موجود، وهذا الأمر وجدته غير لائق

إنسانيًّا، فكنت أبدو كمن لا حول له ولا قوّة. لم يطلب منّي خلع ثيابي ولا معاينة ذاك المكان المشؤوم. وأنا ساكت تمامًا، هذه كانت طريقتي الوحيدة في التجاهل، ربما، هي التي أزعجته، لكن للأمانة هو لم يتخلّ عنّي. بدا مثلي لا يعرف ماذا يفعل أو يقول، وبالتالي لم يعد يعنيني كثيرًا المدلول المأساوي الذي كان عليّ أو عليه الاعتراف به أو الوصول إليه. بغتة، ارتفع صوته:

«هل تنبأ أحد من عائلتك بذلك في إحدى السنين؟ إنّ اختفاء ذَكَرك يحتمل تفسيرات عدّة، وعودته، ربما، لن تتحقّق. ولا خيار أمامك إلاّ الانتظار.»

كنت أسمع مجرّد صوت بعيد، رنّة قديمة وحروف فارغة ولغة لا معنى لها. لم يقل شيئًا ملطِّفًا، بل طريقته في الحديث والضحك زادت كربي، وإذن، فالأمر ليس بيدي ولا بيده أيضًا. حين رفعت رأسي نظر إليّ بصورة حِرفية جدًّا نظرات تسلخ الجلد لكن من دون التورّط ببارقة أمل.

«ترى كم صار وزنك اليوم؟ كلا، أرجوك لا تصعد فوق الميزان. تخمينًا كم تزن اليوم فلم أعد أتذكّر منذ المرّة الأخيرة. كم مرّ من الوقت يا ترى؟ لم ينتظر ردّي، أشار بيده إلى شيء غير محدّد وواصل الكلام:

يضمر العضو في بعض الأحيان ولا يعود إلى سابق عهده، ولا نستطيع الإمساك به. أحد الأسباب ما أنت عليه من شحوم ولحوم. بالطبع هناك أسباب وظروف اجتماعيّة ونفسيّة، من المؤكّد ستوجّهنا إلى طرقات السياسة الوعرة فنستطيع الإشارة إلى

الفظاعات التي تقترف في كل وقت ومكان. إنّني لا أقدر على اختزال الأمور فتتصوّر زيارتك إليّ ما هي إلاّ استرحام من مخلوق ضعيف إلى آخر ضعيف أيضًا. أجل يا عزيزي، إنّنا هكذا لكنّنا لا نريد الاعتراف بذلك. اسمع، أيّ إغراء هذا الذي يراودك ويتمكّن منك، ها؟ بالتأكيد هو إغراء حقيقي أن يختفي عضوك. كأنّ هناك مصلحة عليا مرتبطة بالاختفاء. أرجوك، عليك بتجاوز المرحلة العاطفيّة فأنا لست متأكّدًا، لكنّني أيضًا لا أقول لك أشياء مغشوشة، على الأقل قبل إجراء بعض الفحوصات. أنظر إليّ، في هذه اللّحظة أريد أن أقول شيئًا لنفسي وليس لك فقط، أبدًا لم تكن أعضاؤنا ذخرًا لنا، أعني ذخيرة وطنيّة. دائمًا هناك ذلك الأمر المثقل بالغم، الضمور، الانكماش وربما الاختفاء».

كان يتحدّث لنفسه بالدرجة الأولى فعاد ثانية وبصوت به شيء من المرح:

«لا أريد سماع أيّة قصّة من القصص إيّاها فأنا أعرفها. لكن، أسمع أيّ تشهٍّ لا تستطيع تجنبه، ها، قل لي أرجوك؟ أيّ إلهام، وأيّ نهم للأكل يمسك بك فيدع الحجاب الحاجز يتشقّق لكنّك لا تموتُ لسبب سرمدي خرافي لا أعرفه ولا أعرف سرّه. لماذا لم تمت؟ ولا حلّ كان أمامك إلاّ الموت، أنت أصلاً كنت مخصّصًا للموت، قوّة الموت، وضرورته، لكن، هناك شيء غيّر رأيه، هي المشيئة الإلهيّة، أو سمِّها ما تشاء. عضوك الكريم تخلّص منك وها أنا لا أمزح معك وأردّد على مسامعك، ولن

أغيّر رأيي أبدًا بوهم أنّ إحداهنّ تناديك وما عليك إلاّ أن تلبّي النداء. كلْ يا صديقي لأنّك لا تقوى إلاّ على هذا. الطعام يُدخل السرور عليك فتستطيع تقبّل الأذية والقساوة. أقسم أنّك تأكل في منامك، فمك منفرج وأصابعك تدور بين الفروج وأنت تتحسّس صاحبك، تراه في المنام وتحسبه ممدّدًا في صواني التشريب المحشوّة بالأفخاذ والزنود، المرق الثخين الدّسم الذي كان يلتصق بعويناتك الطبّيّة من الخارج فيزوغ بصرك فلم تعد ترى ويتعالى صوتك باللذّة ليسمعه الجميع.. أليس كذلك يا عزيزي؟

طبيبي شديد الملاحظة وأنا لا أخفي عليه معظم الأشياء التي تحصل معي. لكن بخصوص صاحبي لا أقدر على اجتراح المعجزات، فأنا أحبّ الأكل والمضاجعة، ليس كما يقال من أجل البقاء، وإنّما لتجاهل الفشل الذي كان يفاقم عيوبي. توقّف عن الضحك واتّجه صوبي رأسًا، ذهب صوته إلى بقعة شديدة الصفاء فشاهد روحي بعد ثوان في حالة من ألم ميئوس الشفاء منه. لا رأفة في نظراته. استلطفت تلك الحالة فهو إلى حدّ ما كان بين بين؛ أصلع وطويلاً جدًّا ـ أطول منّي، وفي عينيه الكبيرتين، في داخلهما وعميقًا جدًّا داخل البؤبؤ ظهر شيء لا تقدر على ترجمته وبندر أن يكتب وصفه خارج ما أنت عليه: إنّك لا يمكنك إنقاذ صاحبك مهما تفنّن أو راوغ هذا الطبيب. خفت في بادئ الأمر، لم أتوقّع اختفاء عضوي بهذه الطريقة الخالية من الرحمة والتي لم تترك لنا، هو وأنا أيّة احتياطات نتعكّز عليها. كنت أتحذلق على حالي وأنا أحسب الاختفاء ضروريًّا في بعض الأحيان. قلت، ربما هو اختفاء لحقبة من عمري، لمرتبة من

مكبوتاتي ودرجة من ميراثي ومواهبي. وقف حكيم، مشى قليلاً ثم جاء وجلس في المقعد المواجه لمقعدي، فجأة عاد يضحك بصورة عصبيّة، وبدأ يضرب كفًّا بكفّ ثم وضع إحدى يديه على ساقي اليمنى وأخذ ينقر عليه ويواصل النظر ما بين ساقيّ. كنت أرى اختلال حياتي ونمط سلوكي وقلق وظائف أعضائي؛ وها أنا أرى جميع تلك المخلّفات أمامي وطبيبي لا يظهر الحذر في حديثه فلا أتشكّك في درجة تخييله. طبيبي رجل فكه، يهزأ بدون التباس، فلا أحد يردعه حتى لو كنّا، أنا وصاحبي، على وشك التلاشي. واكب بدانتي منذ بدايتها لكنّه لم يتوعّدني بكل هذه الطاقة والإلهام. يردّد، ظلّ يفعل ذلك وهو يقول: «فكاهة، هذه السمنة فكاهة، أليس كذلك»؟

لا أردّ ولا أسمح له بطرح أسئلة جديدة. كان يواجهني بجميع الاحتمالات: سكتات الدماغ والقلب، أمّا سكتات الذَكَر فتلك ظاهرة جديدة بالنسبة له. لم أوافق على ترحيل المشكلة من القلب إلى القضيب. كنت أسمع طنين الأصوات التي تنبعث منّي ومن طبيبي ولا تُحتمل وهي ترجني رجًّا فيبدأ لوني بالشحوب، أصير داكنًا كتلك الأوراق في الحديقة الجانبيّة من عيادة ذات هندسة فكتوريّة كانت تقع بالقرب من هاي ستريت كينسنغتين. أتحوّل إلى الأصفر والرصاصي وكأنّني على وشك الزوال. طبيبي اليوم بدا لي رجلاً معاديًا، في الترجمة نقول: هذا عدو. تمامًا، هذه الكلمة السوبر. عدو وفي أتمّ صورة هو. سمعت صوتي مهزوزًا:

«هل تعني أن لا شيء ينقذني، لا أحد، لا دواء لا فكرة لا

أمل لا نكتة لا دعابة؟ هل وصلت إلى ما نطلق عليه الانسداد التام فلا فائدة هناك ولا نفع»؟

لم أسرد عليه بالطبع مروري بين المشافي والأطبّاء والمستشفيات العموميّة والخاصّة. بهدوء غريب أجاب:

«ترجو ممّن؟ منّي أو منك؟ ممّن يا صديقي، ممّا تسمّيه صاحبك أو نائبك فهو الآخر لا يرتوي. هو لا يعيش في الرجاء بل في العوز وها أنت تخاف عليه أو عليك بعدما نُزع سلاحكما سويًّا، أليس كذلك»؟

صديقي الدكتور يوسف الذي يعيش في باريس منذ عقود، أخبرته وعلى أقساط أيضًا، لكنّه مثل كل الحكماء استلّ المعنى كاملاً فقال قولة صارت مصدر ضيق وقلق مضاعفين:

«إنّ أعضاءنا لا تموت أو تختفي، إنّها، ربما تتحوّل. التحوّل هذا أيضًا ليس دقيقًا، لكنّها الكلمة الأقرب».

أجبت طبيبي الباكستاني بصوت ناء جدًّا:

«لكن هذا الاختفاء شكل من أشكال الموت».

ابتسمتُ من دون مناسبة حين عادت إليّ ملاحظات دور النشر التي كانت تفاوضني مازحة أو جادّة:

«عليك بالاختفاء، نعني اختفاء الاسم، اسمك».

لكن بقي اسمي موجودًا بمعنى من المعاني وذاك اللطيف الخسيس هو الذي اجتاز المصاعب جميعًا واختفى. سجّلت ذلك

في كرّاستي العريضة؛ هو شيء يشبه الترحيل، غادرني باحتقار أو بغض، لا يعلم المرء كيف يفكّر ذَكَره، حتى لا يدري متى يقيم في الرغد وأين هو الادعاء والكذب؟

قال يوسف؛ صاحبك اعتزل، أجبته، هل تعني صار ورعًا وناسكًا؟ ردّ عليّ: من الجائز أن يكون أغرب ممّا تظنّ.

على ذلك النحو كنت أهزّ رأسي وأجيب نفسي؛ نعم، نعم، إنّني بدين، أنا المترجم الذي لا أنجز أيّ شيء إلاّ بالإلحاح، أو تفرض عليّ الأعمال، هذا الذي يسمّونه أشغالاً بلا مواعيد وهي كثيرة جدًّا في بريطانيا لكن مواقيتها لا تلائمني دائمًا، فيظلّ هناك شيء يضرب طبلة أذني وأنا أرى القواميس والكرّاسات المفتوحة والصفحات متناثرة من حولي ولا شيء يطابق الأصل حتى وإن أدخلت بعض التجديد. أحيانًا أهتم بالعمق فعلاً وأبحث عنه لكن همّتي تفتر بعد أيّام قليلة وأبدو بلا أصالة فأشعر وكأنّني أقترب من الهاوية، وقتذاك أصل إلى جميع أدوات التعذيب؛ كل ما يخصّ الترجمة والبحث والكتابة فأشرع بالتهام كل ما يقع تحت يدي، وهي كثيرة التنوّع، من المعجّنات والحلويات والسكاكر والبزورات والبورك والزلابية والقمر الدين والمشمش اليابس واللوز والفستق والتين المجفّف والتمر المكبوس والنستلة المأكول نصفها والتي رميت على إحدى الطاولات البعيدة فأبدأ بالبحث عنها في ليل الجوع المستديم حتى أجدها. أتفرّج عليها قبل التهامها بعدما يبدأ شيء ما بين لعابي وغددي وزيوتي تتصاعد أبخرتها من جوفي فَينمّل جسمي وظهري وأبدأ أفور، رأسي

وقدمي يهتزّان، آخذ على نفسي فشلي في الوصول إلى مفردة في المنجد تنجدني ممّا أنا عليه فلا أعثر على أيّ مرادف يخصّ الأكل والمضاجعة. أدعو نفسي إلى أحد المطاعم الصينيّة أو الإيطاليّة حين لا تكون إحدى العشيقات معي، أطلب أنواعًا من لحم الغزال المنقوع بالخردل والخل الطلياني وبهارات حريفة، وصحنًا من الأرز بالزعفران وسلطة خاصّة جدًّا مكوّنة من الفجل والبصل والخيار والمشروم والكزبرة والفلفل الأخضر الرفيع الحارّ والخسّ ذي الأوراق العزخرفة والطماطم الصغيرة والخبز الأسمر الطازج المقلي بالثوم والأعشاب ذات الرائحة الزكيّة؛ أقول للنادل، هذه مجرّد فاتحة للتشهّي بعد ذلك سأطلب الوجبة الأصليّة. ولمّا كنت لا أقدر على تقنين شهواتي المعديّة أعود إلى كتب ذلك الشيخ الحيي، أفحصها مجدّدًا وأدوّن لذّات الحواس التي تملأ العين في بعض الأحيان بالدموع. أبدأ بالذهاب إلى الشيوخ المسلمين الذين لم تنقصهم الموهبة ولا العثور على سبل تشقّ لي طرقًا جديدة، على الأخصّ في تلك التفاصيل العلميّة؛ فقد كانوا مفتونين بالفحص وتسجيل مقدار النطفة في كل قذفة فيحسبونها بالملميتر وكانت تتراوح بين «١ ـ ٦» سنتمترات مكعّبة وتحتوي عددًا من الدود المنويّ يتراوح بين «٢٠٠ ـ ٤٠٠» مليون دودة بالرغم من أنّ التلقيح يتمّ من قبل دودة واحدة فقط.

بدأت كيلوغرامات اللّحم تردم جميع ما كنت أداريه من وحشة ووحشيّة، فكان جلدي في بعض الأحيان يتقشّر، تتساقط منه كما قشرة الرأس، ذرّات أزيحها وأنا أنظر إليها وأبتسم طيلة الوقت

الذي أنظّف فيه جلدي بالقطن ومزيج من سائل معقّم وغسول مستقطر من عشبة جميلة كانت موجودة بالمغرب تُحضرها لي عشيقتي «البيضاويّة» بسخاء وتعلّمني طريقة استعمالها ولا تتوجّس من بعض تشوّهات الجلد. الأمر الذي أزعجني فعلاً، أنفي، صار يشبه منقارًا غليظًا ففكّرت بإجراء عمليّة تجميل. سألت وتقصّيت كل ما يخصّ هذا النوع من العمليّات، وفي إحدى المرّات اخترت النموذج الذي سوف أقابل به نفسي فيما إذا وإذا... لكنّي غيّرت رأيي، فمن يدري! ربما سيعاود التضخم ويدعني أعاني من حماقاته. لم أقدر على تفادي تورّم خدّيّ وتهدّلهما، ففي أحيان كثيرة يتورّدان فتقرصني كيتا، عشيقتي البرلينيّة، الشيوعيّة السابقة، مثل أبو مكسيم، الشيوعي العراقي السابق كما يدّعي، ولكنّي علمت أنّ ذلك غير صحيح لكنّه ظلّ يردّد وأمام الجميع، أنّه صديقي اللدود. وبصوت ضاحك تقول كيتا:

«تكفيني هذه القرصة من خدك لكي تعود لِيدي البركة. خدّاك مرجودان بهذا الشكل من أجلي».

الذي كان يحرجني هو الترهّل الذي يزداد يوميًّا حول فمي وحنكي وصولاً إلى لغدي ورقبتي، هذه الأخيرة تقريبًا غير موجودة. فمي وشفتاي، لا أقوى حقيقة على النقاش الطويل وإجراء الحوارات المعقّدة مع أصحاب المصالح كما يجب ونحن نُدير الاجتماعات الأسبوعيّة في المؤسّسة المختلطة من العرب والإنكليز. فحين أقترب من اللغة، اللغتين، العربيّة والإنكليزيّة،

لا أقوى على المماحكة كالسابق، أتخبّط وأضطرب وتتلاطم مكوّنات رغبتي الجنسيّة وأنا أشاهد النساء والفتيات في الشغل ينظرن إليّ ويتراجعن إلى وراء، فصوتي صار كالطنين لا يستلطفه أحد.

ترجمت ما كان ينسب إلى الترجمة من تدنيس للنسب الأصلي فما زلت أخاف من تذوّق تلك الثمرة الملعونة؛ الترجمة. فقلت في أحد الأيّام للسيّدة فلورنس التي تطبع لنا التراجم وأحيانًا تعيد صياغات الكثير من تراجمنا في المؤسّسة:

«لا زلت أخاف المجازفة والفشل بعدما قطعت أشواطًا طويلة في هذه المهنة».

تردّ ضاحكة بصوت رقيق:

«الترجمة يا مستر برهان الدين حرفة بها غواية قد تقود إلى التهلكة فاحذر».

كنت أواصل ترجمة ما قيل وما كتب وما سجّل عنها وعن المترجم: «فغالبًا ما يمنع المترجم من الوقوف عند عتبات البيت / النص فلا يدرج اسمه في الغلاف وهذا ما يقود إلى بذرة الموت التي تتربّص بالترجمة، ومرجعها إلى تصوّر معيّن عن النصّ والمؤلّف والإبداع. إنّ ما كان يطال الترجمة وما نقوم به يشبه عمليّة الاقتلاع، وكأنّ الأحكم للمترجم ودون شكّ الآخرين به أن يتقبّل كونه لا يقوم سوى بفعل ضارّ، وأن يحاول مع ذلك القيام به على أحسن وجه ممكن، ممّا يعني غالبًا القيام بشيء آخر».

وقف الدكتور حكيم وكأنّه يستعدّ لضربي، وضع يده حول كتفي، استفزّتني تلك الحركة فاضطررت للوقوف. صرنا وجهًا لوجه، حدّق مليًّا بسترتي الصوفيّة، لمسها بيده وقال:

«ترى أين تجد موديلات بذلاتك الأنيقة هذه؟ من أين تشتري قمصانك الحريريّة الهفهافة؟ هل تدري وأنا أفحصك أحسدك على ملابسك الداخليّة ذات النوعيّة الفاخرة المصنوعة من القطن الأصلي. اسمع، أوّل مرّة أشعر بالخطر الحقيقي وأنت تتعرّض له فعلاً وليس أمامك إلاّ خيارات قليلة جدًّا، إقفال المعدة لا أنصح به، فقد تقع تلك الآلة الصغيرة جدًّا في جوف المعدة وتسبّب مخاطر عدّة. عمليّة الشفط لا تلائمك لأنّك أصلاً تجاوزت الحدود. لا أعرف هل ستنفعك تلك المصحّات الخاصّة ذات التكلفة المرتفعة لغرض إنقاص الأوزان الفلكيّة والموجودة في بعض الدول الأوروبيّة كسويسرا والنمسا وفرنسا. ترى، هل ستقوى على أنظمتها وقوانينها الروحيّة والغذائيّة شديدة الانضباط، هكذا أسمع»؟

توقّف وأخذ نفسًا عميقًا وبدأ ينظر في باطن عيني تمامًا:

«ربّما، لا تأكيدات البتّة أن يعاود عضوك الظهور ثانية. لا أحد يقدر على تأكيد أو نفي ذلك فكل شيء يحسم على أرضك أنت، أعني جسمك .. ها».

من قبل كنت أجاريه في ضحكاته المجنونة وأشاركه فيها، أمّا اليوم فلم أحبّها أبدًا. من جانبي، حاولت امتلاك طاقة التدمير ذاتها التي لديّ، أواجهه بضحكتي وأنا أطلقها، تلك التي تملأ

عدّة صفحات من تلك الكتب التي كنت أنوي ترجمتها. ضحكتي الطالعة من دماغي والتي تكشف عن لياقتي الأولى التي فقدتها، تلاشت بعد تلاشي أوضاعي الشهويّة والمهانة التي وصل إليها جسمي. لم أكن أفضّل أن أقول، في آخر الأمر، لم أقل ذلك أمام طبيبي الباكستاني، تشبّثت أنا وهو، كل بطريقته الخاصّة، بضخامة بدني، لكن بقي شيء واحد ثابت أمامي وربما أمامه؛ إنّني رجل مسكين وما عليّ إلاّ التخفّي بهذه المسكنة البغيضة. ذهب التعقيد الذي كان يلازم حياتي، فالجنس لا يصلح العيوب واختفاء ذَكَري، كأنّه يبعد عنّي التحاسد. فأبدو مجرّد شي، لا من عامّة الناس ولا صاحب وظيفة ويكاد يحتضر من اختلاط الريق بالرماد والمرارة وقلّة الحيلة. لا أقدر على تحريك جسمي كما يجب ولا أشبه حالي وليس لديّ ما أتشبّه به، حتى شاربي الكثّ الذي يقع ما بين اللونين الرصاصي والبني من كثرة الصبغات التي لا أجيد وضع نسبها كما يجب، هو أيضًا أراه يختفي وتتوقّف شعيراته عن النموّ ثم تتبعثر وتصير فرجة وعبرة لمن اعتبر.

كنت أحمل شكلاً معاديًا، ضحكت وأنا أقول هذا لنفسي وأفرك العينين المنتحبتين، اللتين انتحبتا كثيرًا وعاودتا الانتحاب وبدون توقّف. تصلّبت شرايين قدمي وتخشّبت مفاصلي وحركات ساقيّ فلم تعد تردّد إلاّ السير في طريق الوداعات الطويلة. فظهر لي أنّ عضوي المسنّ كان يجامع من أجل اللاشيء، من أجل الفراغ والتلاشي، من أجل الآخرين، لا من أجلي أنا. أنظر إلى

وسطي وأغرق بضحك عصبي. شيء مسلّ جدًّا هذا الذي حصل ويحصل لي. شيء مسلّ ذاك الذي يدعى هناك، بتلك البلاد، ما يدعى بكوكبي وأرضي، ما يطلقون عليه جميع النعوت لكن جميعها تحتاج إلى تصحيح. حسنًا، خذوه هو أيضًا كما أخذتم صاحبي. خذوه، ولماذا لا تأخذونه؟ في الأصل هو يشتاق إلى الغياب، وأنا أيضًا شعرت بارتياح غامض لغياب صاحبي. لازمني هذا الشعور وأنا أتأكّد يومًا بعد يوم أنّ المدينة تغيب ولا أحد بقادر على الإمساك بها، تتبخّر مثل رغوة الكابوتشينا وتنسحب بسرعة وعندما تبلع ريقك لا يبقى إلاّ شيء من اللذّة الناقصة، وها أنت تتخلّص ممّا كان يمتنع عليك التخلّص منه، تلك المدينة، مدينتي، التي توهّمت أنّها ستكون حاضرة للأبد، شديدة الرسوخ وعصيّة على الالتهام فأغذّي أنا أيضًا شراهتي في تدميرها وهلاكها. هي تفرّ وأنا لا أعود. أجل على البلدان أن تتعلّم الغياب، أن تشتاق الجلوس مع نفسها فقط، فالباقون لم يعودوا موجودين قط. لم يبق أحد لكي أسأل عمّا بقي من الطاولات والستائر وخيوط بكرات الخياطة ودفاتر قياسات الأجسام المتقلّبة الأوزان والأطوار والأحجام. أجسام السادة الضبّاط والجنرالات المتقاعدين وأصحاب الشأن وموظّفي الدولة الفتيّة، الذين كانوا يسلّمون أنفسهم ونياشينهم وأنواط شجاعتهم ونجومهم اللمّاعة للسيّد الوالد ولأخي مهنّد، هذا الذي كان مفتونًا بأعمال التجسّس والجاسوسيّة ما بين النوم والاستيقاظ، فيردّد: كل شيء يتجسّس على كل شيء. الواطي على العالي وهذا على الأعلى. القديم على الجديد. والآلهة لا تمدّ يد

المساعدة قطّ لبني البشر وباب الخروج هو باب الدخول. يقهقه مهنّد كما طبيبي الباكستاني ويردّد: «تريد تصير مترجم، عال، هذا همّ يشتغل جاسوس من طراز لا مثيل له، هو يتشمشم رحيق الآخرين، يقتنص من ذكائهم وسموّهم وخراقاتهم، من زهوهم وخياناتهم. الجميع يتجسّس على الكل، الوالدان، الأزواج المغرومون، رجال الدين والأحزاب، الدول والأطفال، الأذكياء والدجّالون فلا يعرف كل واحد ما هو المتوقّع». كان مهنّد وهو يسجّل أرقام القياسات، يقول للذين يحضرون لمحل أبي: «تعالوا تعالوا وادخلوا الإطار والكادر لكي تكتمل حلقات الدائرة».
لازال كل شيء ثابتًا في رأسي، ماكنة والدي، الأرفف وفوقها أطوال الأقمشة وعلى مختلف الأنواع والألوان، أعداد لا حصر لها من بكرات بخيطان رقيقة وغليظة ومتوسّطة. لم يحبّ الأقرباء والأصدقاء مهنة أبي إلاّ أنا. كنت أهتاج نفسيًا وأغالي في تصوير أولئك الناس الذين سيقفون أمام الوالد وهم يصغون إلى تعاليمه ومهنّد يدوّن أدقّ تفاصيل الأبدان المرتخية القويّة المنطوية والذليلة. أستيقظ صباحًا لكي أرى صفوف السيّارات وهي تقف بجوار البيت والمحلّ. كنت صغيرًا ولا أعرف كيف تكتب بيانات تلك الأجسام، لكنّي كنت أواظب وبصورة شبه عصابيّة على مسك تلك الدفاتر وقراءة المعدّلات: طول القامة محيط الفخذ والخصر والأكتاف... كانت الدفاتر تبدو لي كسجلاّت الجامعة ومكاتب الشغل، وحين كبرت طُلب منّي أنا أيضًا التوقيع بجوار اسمي، بعدها تسلّمت هويّتي الجامعيّة. غالبًا ما كان يغلط مهنّد في كتابة القياسات لكن أبي لا يوجّه له النقد. وعندما يحضر

الزبون مرّة ثانية وثالثة لم يكن يعتذر أيضًا، هذا في البداية. فالوالد يفتقر لحسن الحظّ لقوّة الذاكرة فخياله أشدّ سرعة من الانغماس بالواقع، على العكس من مهنّد الذي كان يحمي سجل الأسماء والعناوين والتواقيع في مكان يتعذّر الوصول إليه. ظلّت أجسام الآخرين ومن الجنسين تشحنني بلذّة التنوّع والأسرار والحقارات أيضًا، فأصاب بشيء من الدوار وتصير تأثيراتها عليّ شديدة الأثر وإلى هذه الساعة.

* * *

لم أتفاخر بماء صاحبي الغزير ولا كان ماء وجهي يزن أكثر ممّا أقدر على وضعه في زجاجة أصغر من كشتبان والدي والتفرّج عليه من حين لآخر، فأكتشف أنّ حفظ ماء الوجه لا يعني إلاّ الإفراط في هدره وبدون ضرورة تذكر. آه، كيف بمقدور المرء أن يصف شكله؟ كيف يتكهّن مثلاً أنّ قامته مرتفعة وأنفه شامخ وقدميه ثابتتان على الأرض؟ وشعره، هذه هي المشكلة، إذا لم يكن ذا كثافة معقولة فهو يفتح عليك القيل والقال والغمز واللمز على الخصوص من قبل الفتيات وطالبات الجامعة. شعري كأنّه معاق لا ينبسط كما أشاء وليس له طيّات لطيفة، فجأة، أرى خصلاته تتلبّد أمامي كاشفة فروة رأسي فأشاهد الناس تحملق فيّ. أوّلهم مهنّد وما إن يبدأ بالسخرية حتّى أتركه وحده وأخرج للشارع العام. إنّ انعدام الحساسيّة كان سيّد شخصيّته، أمّا تقزّزه، هكذا يظهر على محيّاه فيلوح لي أنّه أكثر من تقزّزي. أنا وحتى اللحظة لا أعرف لماذا، فنحن لم نتبار في ذلك وبالتالي لم نتباه به أيضًا. تقزّزه جعله أكثر قساوة ودمويّة وتقزّزي جعلني أزداد بدانة فتمازحني كيتا قائلة:

«الديك غدد محرّضة وأخرى كابحة وأنا أحيانًا لا أعرف من

أهوى فأنت لطيف ولديك رقّة خفيّة لا ترى بالعين المجرّدة. صحيح أنت لست وسيمًا ولا تعرف روح النكتة دائمًا، وأنا أفضّل الرجال المرحين ولا أحبّ الوسيمين جدًا، لكن عليك أن تعرف، ربما قلت لك ذلك في اللقاء الأوّل، إمّا أن يحبّك المرء أو لا يحبّك. شيء كالجذل فيك وربما دون علمك ما إن تكن رائقًا حتى ينتشر الوله على من حولك، أنا أوّلهم».

لم تشأ كيتا الكلام على خشونتي وجلافة طبعي وفظاظة أغلب تصرّفاتي التي كنت أمنحها درجة ثالثة إزاء أخي الوحيد مهنّد، الذي يكبرني بسبع سنين والذي كانت خشونته خارج الدرجات. البيضاويّة تضحك وأنا أرحّب بها في زيارتها الأولى لدارتي في مدينة «Surrey» تدخل بكل الصخب وتردّد طوال الوقت:

«شيء جميل يا سي سرمد. والله زوين خير من العيش بلندن الملوّثة والصاخبة».

يستهويني إعجابها بي وترديد ذلك على مسامعي، يدخلني في نرجسيّة مفرطة حين تكرّر بعض صفاتي بصورة علانيّة. البيضاويّة كانت تستطيع بلوغ درجة عالية من الاستحواذ عليّ فتجعلني أتخيّلها مرارًا أكثر من الإمساك بها حقيقة فأقذف من جرّاء ذلك وبهدوء شديد، وعلى الأغلب، كنّا أوّل ما نصل البيت وفي الممرّ، ذاك الفسيح نوعًا، ننام على الأرض وفوق بساط جميل شغل مدينة السماوه، فتئنّ من وجع في ظهرها من صلابة الأرضيّة الخشبيّة القاسية لكنّها تواصل الرهز والاستمتاع. بعد ساعة أو أكثر تبدأ بالضحك كالأطفال، تهرج قليلاً وتردّد:

«نحبّ كل شيء فيك. العجرفة والحماوة والتناقض الذي يجعل بعض أصحابك أعداء لك، لكنّي أفهم ذلك خيرًا منهم جميعًا».

لم أفطن لليقظة والانتباه الشديدين لديها، فهذه السيّدة المغربيّة كانت شبه مشروعي الذهبي الذي لم أحافظ عليه. حاولتُ وفشلتُ. كانت أكثر نسائي شبقًا وسخونة وضحكًا عاليًا. لم تصدّق في بادئ الأمر ما حصل. فبعد عامين من العلاقة المضنية فيما بيننا، بدأ موضوع ذَكَري وإخفاقاته يقلقني فعلاً، فقالت بصوت ساخر وضاحك للتهوين من الحدث:

«دعني أنا التي تقوم بالتفتيش عن صاحبك بدلاً عنك، أنت لا تقوم بذلك بحسب الأصول المرعيّة. الرجال لا يفتّشون مرافق الأشياء ودواخل النفوس بصورة دقيقة، أصلاً هم لا يرون جيّدًا فتفوتهم أشياء وأشياء. دعني، هيّا تمدّد كالسابق لكن أنا التي تتولاّك، أنا التي سأقودك إليه. سوف أدعك تشاهد كنوزه هو لا كنوزك أنت. أنا أعرفه أفضل وخيرًا منك».

ومن فرط تهوّرها، وهي هكذا فعلاً، كانت تجلس ما بين ساقي تفتحهما بشكل لا مثيل له. في ذلك الوقت كانت تتحدّث معه بحنكة وتفحصه بعاطفة. تحدّثه وتتمايل أمامه، تكاد ترقّص نصفها السفلي، وتبدو لي كأنّها على وشك الطيران. تراه بعينها هي وتعاود كأنّها تريد أن تركله لأنّه لا يتحرّك مثلما تشتهي، لا تلمسه ولا تداعبه ولا تمصّه كالسابق، فقط تتحدّث بحرّيّة أكبر ممّا نملك هي وأنا. هو، كان أكثرنا حرّيّة، ولذلك كانت تردّد:

«غاب في النهاية يا سي ابن برهان الدين، شنو تبغي عاد أكثر من هذا برهان؟ الحرِّيَّة ربما تفعل هذا، الحرِّيَّة تجعله يغيب ويروح على هواه أهذا ما تقوله في التراجم يا سرمدي الحبيب؟ وها نحن ننتبه متأخّرين للأمر أليس كذلك»؟

لا تلهث البيضاويّة ولا تنفخ بالبوق بين فخذي، تهمس كالوالدة وصوتها سوف ينشطر إلى أقسام كثيرة، فقط تواصل إبقاء رأسي إلى وراء لكي لا أرى اكتآبها. في السابق كانت تقوم بتهييجي بضراوة، صوتها يخفت وصوتي يتعالى. اليوم صرنا متعاكسين، أنا الذي أريد أن تحكّه بيدها، فأفهم أنّها توقّفت عن الهذيان، أرتاب من أصابعها السمراء الغليظة المرصّعة باللّحم والخواتم الفضِّيَّة وهي تبتسم، أشعر بذلك لكنّي لا أراه فأنا ممدّد على ظهري فاتحًا ساقي إلى آخرهما، ذلك كان هو الشيء الأكثر هزءًا وكربًا الذي حدث ومرّ علينا وبيننا. ولمّا لم يتحرّك قطّ ما بين صوتها وحركات يديها الإلهيّة بدأت تردّد بصوت ضعيف، ضعف كثيرًا فلم أسمع إلاّ نهاياته:

«أظنّ ما هو إلاّ حادث عرضي ولن يدوم طويلاً».

* * *

أصبحت قلقًا متطيّرًا، فكنت أقف بالطول ثم أنزل بالعرض أرفع ثيابي إلى أعلى وأحاول القفز قليلاً لكي أراه، لكن عبثًا. أنزّل السروال إلى أسفل السافلين وأنظر بعينين مستغربتين ثم اغلقهما بهدوء وكأنّني أسمع أنينًا خافتًا يطفح من مسامي لا هو حزن ولا هو ألم، كلاّ، هو شيء لا تتّسع قدراتي لكي أسترسل في نعته، حتى أنّني كدت أصرخ بطريقة سينمائيّة وكأنّ ورائي رجل بوليس يهتف له هو أيضًا، قائلاً:

«قف، قف. من هناك؟»

كان جامدًا ولا ينبس كما يقال ببنت شفة. صاحبي ذاو، يغطّ في نوم عميق. لن أقول جثّة هامدة لكي لا أنزلق إلى الرعب. كنت في منطقة سرّي الريفيّة حين حصل هذا الهزء. لماذا كان يريد الانصراف وبهذه السرعة العجيبة، لم أكن أكملتُ الخمسين بعد. ذرعتُ المكان جيئة وذهابًا أمام المرآة. لم أصرخ ولا تعالى صوتي. كان الصمت قد طغى على كل شيء من حولي:

«ما نفع الضجيج والصياح العالي، ها؟»

أوّل مرّة أمقت دار سكناي في المنطقة الريفيّة الساحرة،

فتركتها نهائيًا واستأجرت شقّة مفروشة في حيّ تشيلسي الراقي والتي لا زلت أقطن فيها. وضعت إعلانًا للبيع أو الإيجار الطويل لبيتي وحصل كل شيء بسرعة غير متوقّعة فتضاعف كربي بعد بيعه نهائيًا فبدأت أعدّد مناقب بيتي السابق وعضوي الأسبق. لكن لا شيء يشفي غليلي حتى وأنا في تلك الشقّة اللطيفة، فقرّرت تغيير نظام الإضاءة بآخر خارق للعادة. قلت لصاحب المحل الكبير الذي يبيع هذه الأنواع الخاصّة التي لا أعرف ما هي، كنت أبحث عن شيء موجود في رأسي وأريد مشاهدته أمامي لكي أصرخ قائلاً: «أخيرًا، ها إنّي أعثر عليه. أضوية تشعّ ضياء يعمي البصر ويجعلني أرى أصغر ذرّة في الوجود، تلك النوعيّات التي توضع عادة في الجنائن والسرادقات الخاصّة والأماكن العامّة والميادين الرياضيّة، في احتفالات الأعياد والمآتم والأعراس إلخ. أجل، قلت له وهو يعرض عليّ بعضها: كلا، أكبر قليلاً، أريده أضخم من هذا». أجاب بصوت ضاحك: «تريد بروجكتورًا على ما يظهر، أليس كذلك؟» «تمامًا وذا فولتيه لا أعرف كم رقمًا يوضع بجوارها». أريد أن أرى وأرى لأرى، لكنّي لا أرى. من الجائز، تصوّر الرّجل، أنّني أحد المخرجين العرب، ربما مدير للتصوير، فبدأ يسألني أسئلة حرفيّة حقيقيّة لكنّني كنت أهزّ رأسي طربًا وأنا أتصوّر أنّني سوف أراه أخيرًا، صاحبي المغترّ بنفسه، أراه بالسليقة والغريزة والحساسيّة. جاؤوا بجهاز ضخم بعمود أسود ثخين وطويل وخيوط كهربائيّة طويلة ملفوفة على عجلة، كلّما مشى الموظّف تفتح وتمشي وراءه حتى وضعها في محوّلة خاصّة ثم ربطها بالكهرباء. فجأة، صار المحل والأدوات ونحن

كما لو أنّ بركانًا من الإشعاعات يتصاعد إلى أعلى السقف وما حولنا. صار المكان محيّرًا ومقلقًا لي، فشعرت أنّني قد لا أقدر على المشي كالسابق ولا المعاينة كما أريد لكنّي هززت رأسي بالموافقة. البروجكتور ذاك حفز وأنهك حواسي كلّها، وجعل منّي رجلاً شديد الخراقة. كنت أتصوّر أنّ الضوء الشديد سوف يرحمني لما أنا عليه، هكذا، سيحدث شيئًا قدريًا إلْهيًّا خارجًا عنّي فلا يسيء معاملتي أو معاملة صاحبي. لو راقبني أحدهم، أيّ أحد، تلك الجارة الثرثارة أو ذاك العجوز السكّير لضحكوا طويلاً. فالجميع كان سيتصوّر أنّني أعاني من غشاوة أو من مرض خطير بالعين لا ينفع معه إلاّ هذا النوع من الضياء الذي انبثق للتوّ كالألعاب الناريّة في الصالة الواسعة وسوف يرفع الغطاء تمامًا عمّا أعاني. نعم، من الجائز سيخبرني أخيرًا أنّ عضوي موجود ومتعافًى ولكن لنفسه ولا يظهر للعيان، خاتل بالغيبة، مختف بصورة غامضة، رزين وصلب ويعرف الأصول. يغيب حين لا أعيره انتباهًا وأشيح عنه بوجهي وما ملكت أيماني ويداي وعيناي، فأصرخ وأنا وحدي: من يملك أعضاءه؟ لا أحد، لا مالك حقيقيًّا لها، هي ليست ملك أصحابها. الطريف في هذا البروجكتور أنّه يضعف ويقوى باللمس، وهذا الذي كنت أفضّله.

وقفت أمام المرآة بدون ثيابي. كل شيء وأيّ شيء غاب عنّي إلاّ تلك الحكمة التي كنت أتعامل بها مع هذا الرجل الواقف أمامي، المنكسر الضعيف والفاشل. شاهدوني، تفرّجوا عليّ وأنا أتفرّغ لهذا العمل الوحيد القادر على الإتيان به؛ الفرجة

والانتظار. كنت أتصرّف وأنا أبصر في عين خيالي الآنسة ألف، هي الوحيدة التي لا أعرف الاحتراس أمامها، وذاك البحث الطويل المجمّد لرسالة الماجستير عن ت. س. إليوت وشهر نيسان. أطلقتُ ضحكة فاجرة وأنا أردّد أمام المرآة: نيسان أخرى الشهور والفصول والأعوام. أصمّ أذني لكي لا أسمع أنينه فأكتشف كآبات إليوت وهو يعيد تكشيرة الشاعر إلى اليأس الرقيق الذي يذكّر بأنثى. بعض ابياته وأنا أترجمها تشبه جسم وقلب ألف وهي تستلقي على ظهرها وتنصرف إلى تفاقم اللذّة، لذّتها ولذتي. «لكن على الرّغم من إنّي بكيتُ وصُمتُ، بكيتُ وصلّيتُ، على الرّغم من إنّي رأيتُ رأسي «الأصلع بعض الشيء» موضوعًا على طبق، فأنا لست نبيًّا وهذا لا يهمّ حقًّا».

فتحتُ وبالتدريج الضوء. آه لو كانت ألف بجواري تعلّي وتخفّض الدرجة وأنا أدور وألوب، التفت وأتلفّت وهي تدير الشعاع كلّه على ما كنت أسمّيه إلهامي وفيضي وابتلائي. عملتُ ذلك لسبع ليال وسبعة نهارات. في الليل الرؤية أفضل وفي النهار ينفد صبري وأنا لا أرى أيّة بادرة حسن نيّة. كنت أحاول تخيّل وتصوّر ما حدث فقط لكنّي لم أتوصّل إلى قرار حاسم. اعتقدتُ أنّه سمعني وأنا أنادي على ألف فهو شديد الغيرة، لكنّي بقيت أناديه بأسماء محسنة منتظمة الإيقاع مثل الصخّاب الرقّاص الدفّاق المتلاف المغوار الخربان. فأشعر أنّ جميع الأسماء والنعوت دون مستوى نواياي وبصيرتي. اعتقدتُ أنّني كنت أكثر حيطة من بعض أصدقائي، يوسف على سبيل المثال، وأنا أقفل جميع منافذ

جسمي وأحكم الإغلاق عليه مردّدًا: «هه، فإلى أين سوف تذهب بدوني؟»

لماذا حضرتْ ألف للتو؟ حاولتُ دفعها وقيادتها إلى صفحات آتية، لكنّها أبت. كنت أتلذّذ بغيابها لكن ما إن يحضر اسمها حتى تأخذ جميع الصفحات وتسحب الأرض من تحت أقدام جميع اللاتي عاشرتُ. وضعتُ يدها على قلبي، فسألتها: ألف ألا ترين هذا العجوز الذي صرته، هل قضى نحبه ونحب من تحبّينه؟ أجل، أنت أيضًا أحببتِ ذكري وحبّك له أزعجني في بداية الأمر؛ فقد كنت لا أعرف كيف تؤخذ الاحتياطات لكي لا أقذف بسرعة، ولكي أبقيه بيدك ولو لعدّة دقائق وعيناي وعيناه تراقبك بحذر وحنّية. أبتسمُ بوهن الآن، وشيء كالغبطة جعلني أشعر أنّ عضوي لم يعد يحدّثني عن ألف كالسابق، فصرتُ أهدأ قليلاً وأنا أحاول إعادة ترتيب الأحداث فلم أفعل أشياء كثيرة من جرّاء غياب صاحبي. أجل، أخذته ونفسي إلى المشافي الخاصّة والعامّة. توقّفت في Cromwell Hospital وبعد ذلك نصحوني بسانت ماري. ولمّا لم أفهم ما كان يتهدّدني حقيقة أرسلوني إلى مستشفى كنغ جورج. بقيت أمامي ثلاثة مشافٍ لم أخبر طبيبي الباكستاني عنها وأنا أدخلها وأطلع منها، وكانت على التوالي: Portland; Wellington; Brompton.

لم أكتف بذلك. لكن نَصحتُ حالي بسؤال بعض الصيادلة أصحابي من النصارى والبوذيين واليهود، ولكن بلا نفع كبير. فقد بقيتُ أرقبه يوميًا وهو يتقلّص ويتوتّر من الانكماش والتيبّس

في جلدته. وفي أحد الأيّام وجدته ملقى على أرض جسمي كأنّه تلقى أمرًا بذلك. بقيت أردّد في بادئ الأمر، قبل أن تعيد وتكرّر ذلك البيضاويّة؛ ما هو إلاّ مجرّد حادث عرضي ولن يدوم طويلاً على ما كانت تحسب. كنت لا أقتنع فأنا أعرفه بصورة لا بأس بها ولقد استغربتُ فعلته هذه فكنت أسمع أقوال الكثيرين على هذا النحو؛ لو تشتري المراهم والزيوت، الأعشاب وأشياء لا أعرف كيف أصفها فأنا لا أطيق روائحها. في إحدى المرّات أمسكت بي إحدى السيّدات الهنديّات المسنّات، كانت تضحك بطريقة فاجرة، ولمّا شاهدت غضبي بدأت تلين وتردّد كلامًا غير مفهوم. فاقتربت منها وهي تنادي وتدلّ بيدها عليّ. أخرجتْ قطعة من قماش بلون أخضر داكن جدًا تلثّمت جيّدًا وبدأت بحرق رأس تلك القطعة حتى تصاعد الدخان منها، وما إن هدأت النار قليلاً حتى قامت بخلع قميصي. بدأت تكوي في مفصل يدي ورسغي ثم دفعتني بقوّة وبدأت من آخر عمودي الفقري وأنا أولول وأصرخ بصوت كريه. أكملتْ نزع سروالي، تنزله إلى حيث تشاء وتكوي في أعلى الفخذ وأسفل القدم، في الركبة وتحت الإليتين. دمدمتْ وهي تشاهد عجيزتي الهائلة فبدأت تضربها بيدها النحيلة والقويّة. تحوّل جسمي إلى بقع مشوّهة وبشعة فانسحبت بعدما أدركتُ أن لا فائدة ولا نفع، بدأ البعض يتزّني ويتعالى الضجيج والسخرية حين يدخل فريق ويخرج آخر من النساء والرجال وأنا مستلقٍ في منتصف الغرفة، وسطي عارٍ وساقاي مفتوحتان وشيء كالشماتة لا أدري ما سببها كنت ألاحظها وأسمعها وهم يثرثرون ويتغامزون، ونحن لا نعرف بعضنا بعضًا. كأنّ القصّة خرافة، أن

يختفي الذكَر، يغيب بتلك الطريقة غير النظاميّة ويتحوّل. كلا، لا يموت. لم أشأ قول ذلك، لا أحبّ سماع ذلك قطّ. وحين عجزت عن فعل أيّ شيء تواعدت مع طبيبي الباكستاني. طبعًا سردت له بعضًا من غراميّاتي وبالغت قليلاً، كلا، كثيرًا. كنت أحبّ سماع المفرقعات وأنا أسرد وأروي والآخر يدوّن ويصغي لوجودي الشهوي الذي كنت أنا وبالدرجة الأولى مادّته في اللذّة والضراوة التي أوصلتني إليها المعلّمة الاسكتلنديّة ڤيونا لنتون. الأستاذة المبجّلة في المعهد البريطاني الكائن في الوزيريّة. شاهدتها أوّل مرّة وأنا أقود درّاجتي الهوائيّة. لم أنتبه إلاّ وأنا أترجّل وأمشي بجوارها، بعدما أوقفتْ سيّارتها الأوستن الزيتونيّة القديمة والصغيرة جدًّا. كأنّني سمعتها وهي تشير بيدها إليّ:

سر ورائي.

أقسم بأغلظ الأيمان أنّ هذا ما حصل، لكنّها وفيما بعد حدّقتْ فيّ ودلّ وجهها أنّ هذا غير صحيح، وأنا لم أعد أهتم. ڤيونا الأربعينيّة ذات الشعر الأشقر الداكن ونظّاراتها الطبّيّة بإطارها الرفيع البنّي، وذلك الشيء الذي يظهر ويشعّ لا أدري أين وما هو مصدره: الجبين، الرقبة، الصدر أم الفخذان. السير وراءها أكثر سهولة من المشي بجوارها فهي ذات مشية عسكريّة وأنا في تلك السن لم أقدر على مجاراتها:

هل تحب الفستق؟

قالت ذلك بعربيّة صريحة ذات لكنة جميلة. لم أفهم ما المقصود بهذا، لكنّي سعيت وراء فستقها ولغتها الإنكليزيّة

الملفوفة بالرغبة والضجر. وأنا كنت أشعر أنّني قروي بائس بالرغم من أنّني ابن المدينة، وسوف تفصح عنّي الكلمات العربيّة قبل الأجنبيّة. كانت المفردات الإنكليزيّة مبعثرة على الدوام بين حجرتي وحنجرتي، فشعرت أنّ ڤيونا تريد أن تقول؛ هي موهبتي في اللغة وأنا غدتها في الجنس. سأكون متوقّدًا بين ذراعيها وهي لا أظنّ أنّها سوف ترتكب أخطاء كبيرة. بالطبع، ما كان عليّ إلاّ أن أقلب الأدوار، سأتحدّث الإنكليزيّة اللطيفة ولو بلكنة عراقيّة، للعراقيين لُكنة تعرفها عن بعد آلاف الأميال، لا أدري كيف؟ لكن ڤيونا هذه كيف حدستْ أنّني سأكون طالبًا منتظمًا بالمعهد البريطاني للدورة القادمة؟ ربما، ظهر بريق ما وأنا في سنّي اليافع ذاك وبلغ حدود الهوس باللغة، بالمضاجعة، بامتزاج العينين واليدين والساقين وبكل تلك المناطق الجنسيّة بحيث يبلغ كل عضو مراده وعلى أحسن وجه، فأستدير نحوها رافعًا ذراعي إليها لكي أحميها من أشعة شمس أيلول. كيف استجابتْ لطالب لازال في الصف الخامس الثانوي وسنّه تتراوح ما بين الاستمناء والتشهّي؟ كانت مؤخّرتها مشدودة. كرتان منفوختان بهواء ساخن أشد حماوة من صيف المدينة، وإذا ما وخزت أيّ جزء فيها فسوف تنفجر بين يدي ووجهي وجسمي فلا أمسك منها إلاّ الرغبة المخيفة. حتى هذه اللّحظة لا أعرف قطّ من أمسك بيدي ووضع درّاجتي في حديقة المعهد الخلفيّة؟ اخترقتني ڤيونا وكلّمتني بالإشارة. لا تلتفتْ. لكنّي كنت أرتعش وأنا وراءها أسير. أريد الصراخ بأقصى ما أقدر على ما ينتظرني من المتع الغامضة، والغوايات الشهوانيّة التي سأتقلّب فيها لأوّل مرّة. كنت أتصوّر

كل شيء سوف يحصل فيما بيننا إلاّ دخولها فيّ بتلك الطريقة الشهيّة والباسلة. ما أعجب تلك النفس، نفسي وهي تفتح لي باب العربة لكي أجلس بجوارها. كنت أستعجل لمسها، لمس زغبها الذي كان واقفًا أمامي وأنا أراها وهي وراء المقود. زغبها الأشقر كان يداعبني قبل أن أبدأ بمداعبته ويقول لي: أنت جاهل.

لم أدر رأسي وأنا أرى جميع الموجودات. صافنًا كنت، وأغلي على مهل، تحت الجلد، جلدي، وفوق المقعد الملتهب. ما هذه الظهيرة الحامية التي أخاف أن تهزمني للتوّ فقد أقذف قبل لمسها وقبل تنشّق هوائها الذي عبّأ السيّارة. من هذه الڤيونا؟ ركبتاي تصطكان فأهدّئ من روعهما. ماذا لو شاهدني السيّد الوالد الجهم؟ وماذا لو أوقف العربة مهنّد برهان الدين وأنزلني عنوة بقوّة الأخوّة وادّعاء الفيض الثوري؟ لم يحدث أيّ شيء، أيّ شيء بتاتًا. يداها وهما تديران المقود كانتا حمراوين، أصابعها تورّمت قليلاً، وأظافرها كانت مروّسة ومصبوغة باللون الفضي الكامد. كنت أتأجّج وتنبعث منّي ضجّة، حتى قميصي وسروالي كانا يتخضخضان فوق لحمي، وريقي ناشف ولساني يابس. ڤيونا تقطن في إحدى البيوت القديمة من حي المسبح ذي الرقي الآفل، فهذه الدور كانت في الأصل بيوت الأجانب، على الخصوص الإنكليز والطليان والأرمن. بيوت سقوفها شاهقة وأصباغها تقشّرت على الأغلب من رطوبة دجلة المحاذي، فخشب أبوابها الخارجيّة والداخليّة كان من خشب الصاج القويّ؛

لكن ألوانه بهتت فعاد إلى لونه الأوّل. كانت الأشجار الباسقة الكبيرة الهرمة مكفهرّة ومتربة بطريقة كدت ألتفتُ إليها وألقي عليها خطبة قويّة في كيفيّة السقي والاغتسال والشطف الخاصّ بهذا النوع من الأشجار، وإلاّ: سوف نقطعها ونغطّسها في النهر المجاور لها إلى آخر ورقة في أغصانها. كنت أدمدم بكل ذلك بلغة عربيّة فصيحة وإنكليزيّة مضعضعة، فشبح اللغة، اللغات الأجنبيّة لازال يحضر ويعكّر مزاجي بين الحين والآخر. أتمتم بذلك وهي لا تردّ عليّ قطّ. قلت، ربما أنّها مبهورة بشبابي واقتداري الآتي. ندخل البيت الذي كانت تفوح منه رائحة امرأة ونساء كثيرات ومتعدّدات. رائحة ملوحة وسيقان مفتوحة بعنفوان، وشيء منسي لا أدري ما هو موجود بين الزوايا وتحت الشراشف. خفت قول ذلك كلّه لها، لكنّي حاولت بالإنكليزيّة إنقاذ عربيّتي السيّئة أصلاً من إنكليزيّتي الأسوأ. من أين للنساء هذه الروائح التي تفتّت الكبد ولا أدري كيف قدرن على تجميعها ومتى؟

ربما التقطتُ تلك الرائحة أوّل ما شاهدتني قرب باب المعهد البريطاني بجوار حوشنا في الوزيريّة، فمن الجائز أنا الآخر لديَّ رائحة ما، كالثمرة المالحة كنت أبدو وما عليها إلاّ تقشيرها. هل هذا هو الذي دوّخها فيّ، وجنّنني فيها فأمسك بي ووضعني في صالونها؟ أثاث بسيط وطريقة للجلوس على كنبات كبيرة يغوص بها المرء، بسط جنوبيّة ذات ألوان برّاقة وناريّة بين الأحمر والرمّاني والزهري والأخضر. قلتُ، كما لدينا في بيتنا نحن أيضًا.

أوّل ما دخلت صدمني الضوء الشديد في الصالون فجعل رموشي تهتزّ وقبل أن أغلق عيني ذهبتْ حالاً وسحبت الستائر السميكة، فتحوّل المكان إلى شيء آخر ما بين العتمة واستعجال الليل. فتحتْ جهاز التبريد فانتبهتُ حالاً وأنا أنظر على مهل للموجودات؛ طاسة ذات نقوش كربلائيّة بألوان التركواز والأصفر المدخّن والفستقي الفاهي، ممتلئة إلى آخرها بحبوب الفستق المشقوقة فلقاتها مثل فخذين مفتوحين أمامك وتكاد تفرّ حباتها إلى أصابعك ثم لسانك. ما إن تبدأ بفستقة واحدة حتى تتورّط بالطاسة كلّها، هكذا هي المضاجعة، تشتهي، تهيم وتتفاقم حالتك، يهزمك التشهّي فيجعل محيط الحالبين يتوجعان لكنّك تواصل، تقشّر الفستق، تشقّق قشرته بحركة خاطفة وتهوي الثمرة ما بين اللعاب واللسان. الفستق عبوديّة الجنس الأوّل الفجّ المتعثّر المرتبك ما بين الفلقة والثمرة. ڤيونا لم تتحدّث ولم تتفوّه بكلمة، أشارت فقط «كلْ». كانت تروح وتجيء. خلعت عويناتها وسترتها القطنيّة ثم فكّت أزرار قميصها الأزرق الذي كان مبقّعًا تحت إبطيها بعرق غزير. رفعتُ يدي بلا وعي ففتحت أنا الآخر أزرار قميصي المقلّم بالليموني والرصاصي. تلاقت نظراتنا في تلك الدقيقة فأشارت: «انزعه» وفيما بعد؛ حين أشرت إلى الفانيلا.

فات أوان الشاي الإنكليزي وأيضًا لم يحن وقت شاي أم مهنّد المخدّر الثقيل والمحلّى كثيرًا، وأنا لا أعرف ماذا ستفعل بي هذه الڤيونا؟ لم أفكّر، للأمانة ماذا سأفعل بها؟ من الجائز لأنّها كانت

أكبر منّي كثيرًا، ربما، لكنّي، لا أدري. لسنا من البساطة بالقدر الكافي الذي كنّا نتصوّره عن أنفسنا، فأنا حضرتُ إلى هناك على سبيل اللعب والاكتشاف والتحدّي، ربّما، قلت ذلك فيما بعد لكي أدرّب حبالي الصوتيّة على سماع اللغة الإنكليزيّة، فأنا أريد التحدّث بهذه اللغة حتى لو أخطأتُ في جميع الجمل. هل ستناديني باسمي الأوّل وأنا أولجه فيها؟ هل ستدرّبني على اللغة أم على الجسد؟ أذعنتُ لكأس الويسكي الممتلئة بمكعبات الثلج حين سمعتُ صوتها أوّل مرّة:

لا، سكوتش، هكذا نقول هناك. لا تنس أنّني من اسكتلندا وأنا شخصيًّا لا أزال أحلم بالانفصال عنهم.

تحدّثت عن الإنكليز من وراء أنفها مثل والدي بالضبط الذي كان يكرههم، ليس لوجه الله أبدًا. الكراهية لا تبدو كثيرًا في الشراب وعلى الفراش، أمّا الحبّ فهو لم يبدأ بعد، غير موجود فيما بيننا. ڤيونا وأنا، بين تلك الكؤوس انتفخ عضوي بالمياه والتعرّق الشديد والأوراد الذابلة في أرجاء الغرفة وعلى حواف سور الجنينة العطشانة التي كنت أرى جزءًا منها من طرف الشبّاك. انتفختُ من خاصرتي وداخل جميع غددي الصمّاء التي تتكلّم عن شبابي الخاطف. وحين عادت بعد قليل كانت مبلولة معطّرة، شعرها تركته يقطر ماء كما جسمها الذي كنت أرى وأحسب عدد القطرات النازلة ببطء من فخذيها ورسغها. عيناها صارتا أوسع وأكثر جاذبيّة من قبل، وصارت الدنيا بجوارها ولو بلمح البصر لذّة. بدت جميلة أو غير شكل عمّا شاهدتها أوّل

مرّة. فأنا حتى اليوم لا أعرف من هي الجميلة؟ هل هي المحتشمة أم الضارية، الملائكيّة أم الفاحشة؟ فيونا تشبه حيوانًا لا اسم له. بدا وجهها وجسمها الذي غطّته بروب أزرق حريري قصير وبدون أكمام كأنّها ملكت شيئًا ما؛ بدائيّة جسمي وحقوق جسدها، أنا غير المدرّب إلاّ على الاستمناء السريع والفوري الذي جرّبناه، نحن طلاب الثانويّات والأقسام الداخليّة، فلم نحصل إلاّ على انقذافات رجراجة عنيفة وكتومة في أغلب الأحيان. فجأة وبيد أكثر من خبيرة صرت كالعجينة بين يديها. دارت عليّ وحولي كما تدور الحيوانات الضارية على الطريدة، قلت لها وأنا شبه هيمان:

أنا لا أحبّ الإنكليز تمامًا سامحيني! ولكن همه في صحّة الإنكليز.

ما معنى تمامًا؟

أعني، أنّني أحبّ اللغة الإنكليزيّة وأحلم بإتقانها وإكمال دراستي في بريطانيا في أحد الأيام. وسكتّ.

وأنا مثلك لا أحبّ الإنكليز.

قالت ذلك كأنّها تخلّصت من سر لا يستحقّ أن يكون سرًّا. لكنّها مضت وهي تتصوّر أنّها خرجتْ عن القواعد المألوفة. لم أعلّق على ذلك فأنا كنت مشغولاً بحركات يدها وهي تمسح عرقي وتمشي بين مسامي. بدأتْ من ظهري حين غيّرتْ وضعيّتي، نزعتْ عنّي الفانيلا والبنطلون وتركت اللباس الداخلي.

وما إن انقلبت على بطني حتى قذفتُ أولى قذفاتي المنعشة والرهيبة. فلتت منّي آهات وتنهّدات خافتة الصوت، وعلى الفور ربتت على ظهري ورأسي وردّدت بصوت مبحوح: شهيّة طيبة.

أغرقتُ كل شيء بمائي، الأغطية والسرير واللباس وبطني وفخذيّ. همدتُ ودفنتُ وجهي بين الشراشف وأنا لا أعرف ماذا أفعل بمائي الغزير الكثيف.. حصلتُ على كميّة من المياه أكثر ممّا أحصل عليه من الاستمناء. كنتُ لا أعرف «أنّ الرجل عندما يضاجع دون إضاعة منيه يصير أقوى، فإذا نام مرّتين بدون إضاعة المني يصبح بصره وسمعه أكثر حدّة، وإذا نام ثلاث مرّات تتلاشى أمراضه، وإذا أربعًا يملأ السلام روحه، وإذا خمسًا يتجدّد قلبه، وإذا ستًّا تصبح خاصرته أقوى، وإذا سبعًا تغدو إلياه وفخذاه أقوى، وإذا ثماني يصبح جلده أنعم، وإذا تسعًا يحصل على طول العمر، وإذا عشرًا يصير كالخالدين تصير ڤيونا فوقي ثم أصير فوقها. تعرّت وبان جسمها رضيًّا لم يتعب لا من العيش ولا من الجماع. كان جسمًا تندلع منه الشرارات بهدوء. هي أهدأ منّي لكنّي كنت أشعر أنّها الأعنف، فالرغبة لديها تبدأ تدريجيًا والوصول إلى الذروة يتمّ على خطّ يكاد يكون شاقوليًا. لم أرتبك وهي تقلبني على ظهري وتبدأ بلحس المني فيختفي كل شيء داخل الفم وبين الشفتين فتئنّ كالحيوان في أيّام هوسه ووصاله. كانت لديّ ندبة بلون أغمق قليلاً من لون بشرتي موجودة على صدغي الأيمن أثر عضّة عنكبوت سامّ، فصارت لديها رغبة حارقة للوصول إليها والبدء بمصّها على مهل مصًّا بطيئًا، ثم أخذت يدي وبدأت تدرّبني على نفسها وجسمها.

كانت تتصاعد منها رائحة شواء في بريّة غريبة وحولنا زهور وخزامى وزعتر وعطور ذات عبق لا يصدّق يدخلنا في الدوار، وأغذية وخضار ريّانة وأنواع وأسماء لم أسمع بها من قبل، قالت: صلصة. صلصتها هي، فأشعر بها تمرّ بين السيقان وتختلط باللحم والدم وسرعان ما تتبخّر وبسرعة. فوجئت حين سمعتها تقول بصوت واطئ صوتها كلّه كان يضاجع:

ماذا تشتهي اليوم؟ نقول صحن اليوم، ما هو صحنك المفضل؟

كنت أتخبّط بصورة مزرية، ألتصق بها ثم أبتعد. تلتصق فأبتعد ثم أعود وأرتعب فألتصق بالحائط. حاصرتني من أمام ومن خلف فشعرتُ أنّني مجرد حشرة يتمّ التلاعب بها ثم سحقها وبالتالي موتها. كنتُ أموتُ بطريقة مضحكة وأفيق لكي تحرسني. لا أملك في تلك الساعات إلاّ فرق حراستها فكانت تترجم لي عن اللغة الإنكليزية تقلّصات بطنها وابتكارات فرجها وحركات فخذيها وتوتر شعر عانتها الذي كان نديًا وهو يفرد نفسه بين راحتي. فحولتي التي كنت أشعر بها وأعرفها من بعض المظاهر الجنسيّة بالطبع، أعرفها من خلال عضوي وخيالاتي وتوريات الوالد ومهنّد والأصحاب والمدرّسين في الثانويّة، تتطاير فوق رأسي، الفحولة أراها تسبح بالعرق وتلغي الزمن ولا تختم إلاّ على مذاقات لا أعرف أسماءها ووصفات معظمها لا تصلح للتناقل والبوح. كانت تتصفّحني كما الكتب وتريد فتح مجار جديدة لمياهها الجوفيّة التي كانت لا تعرف كيف تصرّف وإلى أين؟

فيونا تشعّ وأنا أزداد عتمة فتركتها تترجمني على مهل. يترطّب ذَكَري ممّا أفكّر به فحسب فكيف إذا أمسكته بيدها وهي تطلق عليه أبخرتها ومداعباتها، لسانها ولعابها فتحمحم كالفرس: سأدرّبك وأعلّمك. سأطبخك على نار جسمي حتى تتصاعد رائحتك من داخلي، من جوفي ولساني فأنا خليط من كل شيء، منك ومنّي. وأنت بكر. تغرف على عجلة وبلا تركيز تمتصّ عرقي وتشربه بلسانها وصوتها يشتعل. لم تقبّلني حتى ذلك الوقت، تمرّ على خدي وحول فمي، تمرّ حول الشفتين ولا تلمسهما إلاّ بالأنفاس. لم تتجلّ المرأة أمامي إلاّ بهذا النوع من الخطر الآتي من لا مكان. الفرج وحده ليس الخطر، هو البهو الذي يزدحم به الخطر. أحاطتني في كل سنتيمتر من جسمي، تقترب من الموت لكنّها لا تموت، يغادرها فيحضر إليّ فأعود وأقذف ثانية وثالثة بطريقة لم أشعر بها من قبل وكأنّني أقذف في وجوه الآلهة والأساتذة والآباء البكّائين. ترفعني إلى أعلى وترفع ذَكَري أعلى، أعلى كثيرًا، أعلى من الأعوام والبلدان واللوردات وملكات وملوك بريطانيا العظمى وكأنّها تجهّزني لتقنيّات لم أجرّبها بعد. تدلّك وتمسّد كل شيء بيدها بقدميها بظهرها وبطنها وفخذيها ويتمّ الانفجار فأشعر أنّني بلّلت وجهها وشعرها ورقبتها ونهديها. كانت تأخذه بيدها وتجعله يصبّ كما يشاء على أطراف وأجزاء بدنها، وكما تشاء، فتضحك بطريقة شيطانيّة لم أسمع مثلها من قبل. تمتصّني وتبلعني وتعيدني وهي تنادي بأسماء لاتينيّة لا أعرف بالطبع ماذا تعني، فتشتهي قبل الشهوة وبعد السنين والأيام وهي منهمكة فيّ دائخة وتعلّمني كيف أصير في متناولها ولا أستعجل. لم أفهم ولا فهمتُ إلاّ بعد التي واللتيا،

عضوي الريفي الذي يجهل الإنكليزيّة لكنّه يسكر بالعربيّة ويطرب لهذه الحروف التي يجهلها فلا يستطيع الصبر إذا ما تمّ اللمس، اللمس بالصوت الأجنبي، بالصوت العراقي المكسّر بالبذاءة التي لا أدري أين تعلّمتها وادّخرتها فاستخرجتها ڤيونا على دفعات باللسان وبالكلمات الملكيّة. آه يا ابن برهان الدين وشقيق مهنّد، هتفتُ بصوت مختنق: تعيش اللغة الإنكليزيّة التي تفاوحت ولأوّل مرّة بالإيروسيّة. لم أفهم تلك الكلمة إلاّ بعد الويلات والغصص. تصوّرتُ الكلمة أكلة اسكتلنديّة لذيذة سوف تطبخها ڤيونا وتتكوّن من لحم الخروف المشهورة به وديان بلدها. أو من العجل أو الكبدة منقوعة بالدارسين والأعشاب البريّة والزنجبيل الأخضر. قلت لها في أحد الأيّام ذلك كما لو كانت أمّي وهي تنود بين فخذيّ:

«هذا هو صحن اليوم».

هكذا أجابت. فلماذا فكّرت أن الإيروسيّة، عندما سمعتها أوّل مرّة من بين شفتيها، هي شيء مموّه ما بين الفراق والاتحاد، وأنّها سوف تنقذني من أشياء لا أعرف ما هي لكنّها موجودة وتلحّ عليّ، ربما، هي الطاقة الهائلة التي لديّ ولا أدري كيفيّة الاحتفاظ بها أو ماذا أفعل لكي أحسن تصريفها كما أفعل وفعلت مع ڤيونا. قالت بصوت مليء بمائي ومغطّى به:

«ماؤك غزير، ماؤك معطّر به رائحة ليمون وصابون، يود وزلال. أنت لا تقدر على شمّ ذلك. أجل رائحة حيوان أملاحه ألذّ من سكريّاته».

* * *

عرفتُ جسمي من داخل مخابئ مسامها وافتراسها. صوتها في البداية هو الذي نهبني ووثقني بالبحث عن عضلاتي وعظامي وغضاريفي. كان علينا أن لا ننتظر ونرى ذاك الماء ومن جميع جهات جسمينا. العرق كان شيئًا آخر، يتعاظم فأقرأ من داخله أسرار الكلمات والأفكار والابتسامات التي كنت أقطعها وأعود إليها وأنا أريد الهتاف: تحيا ڤيونا التي كانت تموت وتعود ما بين ساقي ومائي فتبتكر صرخات لم أسمع مثلها من قبل، ولا أرى وجهًا يتقلّص بتلك الطريقة وهو يطلقها، إنّها تعيش في بقعتي العزيزة وينبغي أن لا نترجم ذلك لكي لا نفسده. ترقص وتلتهمني وأنا مغطّى بالمني واللعاب ووهج شمس بدأت تغرب وجهاز التبريد لا يعمل كما تشاء أجسامنا المعروقة وبالتالي فالعرق أينما نلتفت يواجهنا. شعرتُ أنّني أنتزع من رفقة نفسي فتأخذني إلى مكر الإمبراطوريّة إيّاها حتى لو كانت تضجر وتبغض أن تكون إحدى بناتها. تحدّثتُ بأكثر من لغة، عبرت الحدود، حدودي وحدود لغتي ومدينتي، عبرت التاريخ البريطاني في بلدي، عبرتُ طويلاً وها هي تجري وتركض عبري وكأنّها تريد الاختباء فيّ، ما بين ساعدي وتكشيرتي التي بدأتْ تتسع: عال، إنّها مثلنا لا تحبّ

رائحة الإنكليز. لكن الأمر لا يتوقّف عند هذا الحدّ. شعرت أنّها تتجسّس على ذهني وطبيعتي، كانت تحمل شيئًا من التهديد. لا أعرف أين يكمن، كلا، ليس بابتسامة الفرج الدائمة، ما أزال أجهل ذلك إلى هذا اليوم وأنا أدوّن هذه الكرّاسة لكنّني أيقنتُ من شيء واحد أساسي؛ إنّها مخلوقة حكم عليها بالجنس المؤبّد.

كان يخيّم عليها عبق المضاجعة فتضيف بصوت يكاد لا يسمع: أذكر لي حروف الجنس، قل ذلك، الفظه ومطّ بالحروف ببطء شديد وحُسن ألفاظ. ها، هيا لا تتخلّ عن كل هذه المفردات. كان صوتها يعرب عن قواعد صحيحة في اللغة العربية، لكنّه كان يتفتّح بصورة لا مثيل لها وهي تردّد ورائي الحروف الحلقيّة والحروف الإيروسيّة. تطبخ الكلمات وتجعلها تنبثق من مهاو شديدة الغور. تطلع الكلمات من وسطنا وجوفنا وكأنّ جنونًا مسّنا. الكلمات كانت تعيش حياتها الثانية بين ألسنتنا فنبتكر لها ماء ووسطًا وتموّجًا وترنّحًا، على ذلك النحو كان عرقنا ودموعنا تسيل معًا من عيوننا وممّا لا نقدر على الإفصاح عنه حين حان وقت الرحيل، رحيلها، كأنّها كانت تنشد أو تصلّي فتتّقد وتشتعل وتزداد رهافة فتبدو متلألئة. وها أنا أبجّل المهبل والبظر وأستحضر اسم الفرج باللهجات المحليّة والعربيّة وبصوت عالٍ كي تستثار أكثر، وأنا أهيم وسطها، فاللغة أخطر وسيط في المضاجعة وهي وحدها التي تشترط ما لديّ من جروح وعاهات. هي التي قالت ذلك وذكرتُ اسم فرويد، علّمتني أن لا يصيبني الشرود. فكانت تجبرني على النظر والنظر كأحد القواعد لخديعة

البصر ذاته، فأصرخ بصوت، قالت عنه فيما بعد، إنّه كالإعصار: أدخليه سالمة، أدخليه بأمان باللسان والشفتين والأنفاس والتقبيل والتقتيل بالأصابع والشموع والرطوبة والسعال والأنين والندى والبخار، بالبطء والمباشرة والعذاب والجماع الناقص و... وأنا وسط ساقيها وهي تسحق وتدفع لكي لا ننتهي فأرفع رأسي وأنظر؛ سرّتها أمامي تضحك بين يدي ووجهي، وما إن أتوقّف عن الاهتزاز حتى تضربني بخفّة على جانبي خاصرتي بقدميها وأنا فوقها أدور دورتي، بعدها، توقّفتُ عن الحساب...، فتتوجّه وتصب فيّ ماءها. من أكلة لحوم الفتيان والصبيان والشبّان والغلمان ڤيونا هذه، في السرير أو على الأرض ليست من البشر. آفة هي.

بعد سنين طويلة قلتُ لصديقي الدكتور يوسف ونحن نتمشّى في الهايد بارك:

«من قال لنا وكذب علينا بأنّنا كذا وكيت.. كل هذا وذاك هراء!».

أنا كنتُ في الحدود السفلى وڤيونا بلا حدود، تلك الاسكتلنديّة، فعلّقتُ على فرجها وسام جميع حروفي الخسرانة. كانت تضاجع لكي تستمر في العالم، وأنا، وكأنّني أغادر الدنيا.

* * *

في أحد الأيّام دفعتني كيتا عنها وهي على وشك الصراخ الحادّ. وهذا كان خلاف عادتها:

«اسمع، أنت لا تضاجع لكنّك تنتقم. أخبرني، هل جميع الرجال العرب يمتلكون ضراوة الانتقام هذه وممّن يا عزيزي»؟

حين استرخت أضافت:

«قل لي، هل تعرف المرأة حقًّا كما تدّعي؟ هل تعرّفت عليها فعلاً؟ الفراش مكان نموذجي للاثنين معًا لكن، انتبه قد تغشّك وتسخر منك، بمقدورها أن تشوّهك وتضحك عليك إذا عوملت برياء وزيف فتصير أنت مبعثًا للفشل والهزء».

أوّل ما شاهدتُ كيتا كانت في بيت أحد أعضاء الحزب الشيوعي العراقي بلندن. لاحظتُ وأنا أتطلّع فيها أنّها لا تشجّع أيّ أحد على التحرّش بها أو مغازلتها، لكنّها كانت تشيع شيئًا من البهجة والمرح معًا. وصلتُ متأخّرًا، حضرتُ من أجلها، قلت لها ذلك فيما بعد فابتسمتْ وهي تجيب:

«حدست بهذا».

كنت أتابعها جيّدًا في تلك الليلة فقد أثارتْ جملها وكلماتها الواضحة والمقلقة ضجيجًا وتعليقات سافرة من الرفض والتقريع. بدأتْ باسم لينين وهو يتطاير في عرض واقعي أمامنا، وكأنّنا داخل مسرح. . وهذا هو القسم الأساسي من المسرحيّة وبطريقة كانت تريد منها تبديد الضجر عن نفسها بالدرجة الأولى، فكانت توفّر سياقًا خارج أيّة نظريّة. فرضتْ في تلك الليلة من ليالي آب من العام ١٩٩٨ إيقاعًا لا أعرف إن كانت سرقته أو اقتبسته من أحد المسرحيين الألمان. تتحدّث بهدوء وتبتسم بخفر وهي

تشاهد الرفيق الشيوعي السابق كما يدّعي، أبو مكسيم، وكيف ينصب الفخاخ لزوجة صاحب الدار السيّدة هنكا البلغاريّة ولصديقاتها القادمات من أوروبا الشرقيّة. علّقتْ كيتا على كل ذلك فيما بعد وبصورة شديدة الدقة: «ألم تلاحظ عدد الغزوات الغراميّة من أبو مكسيم لأكثر النساء يفاعة وغباء في السهرة. يرمي الشباك ويدع إحداهنّ إمّا أن تتعثّر به أو تقوم وتقع عليه. ذاك الرجل يشبه موظّفي البلديّة يريد تسجيل ممتلكات الغير باسمه، شيء به رائحة غير مستحبّة ليس هو الأسوأ بالطبع في تلك السهرة، وأنت تشاهد الزينة والملابس والمجوهرات الحقيقيّة. ذاك الرجل له عين خبير وتاجر و.. سامحني لكنّي». خمّنت، أرادت أن تضيف، عين سمسار مثلاً، ذكرتُ ذلك لها بشيء من الحياديّة لكنّها لم تردّ لا بالإيجاب ولا بالرفض. حضرتُ إلى لندن بعد أعوام من سقوط الجدار والبنادق التي كانت موجّهة إلى صدرها. قالتْ، إنّها مهتمّة بعمل بعض البحوث عمّا أطلقتْ عليه لقبًا لم أسمع به من قبل؛ فجاجة المناضل. صمتوا وتوقّفوا عن الشراب وقضم الخيار والجزر. نظر أحدهم إلى الآخر فلاحظتُ أنّ فتح النار عليها وعلى من دعاها قد تجمّع في العيون، السيّدة هنكا على ما أظنّ. أفاضتْ في القول مردّدة ـ إنّنا ـ بحاجة إلى بحوث ودراسات تفصيليّة لهذا المناضل الذي أنتجته البشريّة وبدا لها أنّه مخلوق غير مكتمل بشكل من الأشكال، قافزًا من ذاته إلى الآخرين. هو لا يحبّ المكوث في الداخل، داخله، يتجنّبه هاربًا منه إلى الخارج. وجهه الملائكي وجه مذعور، ومصاب بالرعب على الدوام. خائف من أنّ أحدًا

سيطالبه بتغيير ذاته فأشغل نفسه ووعيه بتغيير الآخرين. كانت توزّع أفكارها وتسبّب تشتّتًا حين انبرى لها أبو مكسيم مفنّدًا رأيها وما عليها إلاّ أن تتقبّل كلماته حين ادعى أنّ ما يلائم المناضل من نعوت هو الغيريّة والإيثار... إلى باقي المسلّمات السحريّة التي تمنح له وتضعه في اللحظة ذاتها في موقع الأفضليّة. لم توافق على ما قاله الرجل ولا انتظرتْ بركات أيّ من الحاضرين. غطرسة أبو مكسيم كانت غير مصطنعة فأيقظ لديها اعتبارات الإهمال التامّ عندما بدأتْ ابتسامتها الناعمة تزداد إشعاعًا، وبدأت تتحدّث بلغتها الإنكليزيّة ذات اللكنة الآتية من أولئك الاشتراكيين السابقين في ألمانيا الديموقراطيّة، الذين تعلّموا اللغات الأجنبيّة لارتباطها بالصعود الاجتماعي والطموح الشخصي وتسلّق أعلى المناصب في وزارة الخارجيّة. لم تفرّ إلى أمام بل واصلتْ بصوت به شيء من الانتصار وهي تردّد: البعض يفضّل مثل هذه التسميات المطّاطيّة وإطلاق الصفات الطنّانة والألقاب المقدّسة كالعظيم والعبقري والمقدّس والبطل الذي لا يجوز المسّ به، هذا غباء في رأيي. لم يعبأ أبو مكسيم بها ولا بأيّ أحد، فانبرى بصوت به شيء من اللامبالاة والعناد:

«وإذن، سيّدتي، قولي ولا تحدّقي في الأرض من فضلك. كيف تفسّرين ظواهر الأفراد من المناضلين في العالم»؟

عدّد أسماء هوشي منه، لينين ثانية.. أمّا اسم جيفارا فقد ذكره بشيء من الشماتة لأنّه ميت والنساء لازلن مغرمات به. صاحب الدار، السيّد صفاء، أحد الأشخاص الذين إذا ما تورّط

بلعبة من ألعاب خبثي، فسوف أجعله يقوم بخلع قميصه والكشف وأمام الجميع عمّا يخفيّه تحت إبطه الأيسر، «البازباند»، الدعاء الحامي والهادي والمنقذ في الجولات السياسيّة والجنسيّة الفاشلة. قال بصوت كلّه اعتراضات كما لو كنّا في اجتماع حزبي وهو لا ينظر ناحيتي خائفًا من خططي:

«يا معوذين ما علينا من كل هذا، هيّا كعب أبيض في صحّة الوطن». حسنًا، لم يذهب بعيدًا ويردّد شعار الحزب لعفطت له أمام الجميع. كيتا لم تهتم بالوطن ولم تفقه معنى كعب أبيض، فيما بعد شرحت لها ذلك قولاً وفعلاً. كأس البيرة السوداء بجوارها لم تفرغ، فكانت مصمّمة على عزل أبو مكسيم وعدم استلام رسائله كما هي، ليس بالازدراء كما يفعل ولا بالشجب. كانت تعتمد على حرّيّتها الفكريّة، وهذه كانت صادمة جدًّا «لهم» فقد تصوّرتْ هي، أنّ ما تقوم به ما هو إلاّ مجرّد عرض أفكار غير محدّدة أو نهائيّة وأحيانًا لازالت ملتبسة عليها، وهي بلا ترابط، وهذا ما جعل خطّتها تحتاج إلى عمل طويل وشاقّ فالموضوع كما وصفته طريف، أضافتْ: آه، طريف، لكنّه ليس خطيرًا. لم يعد أيّ شيء خطيرًا بعد اليوم. رفعت رأسها وكأنّها تطلّ من نافذة أحد القطارات المسرعة جدًّا حين قالت بصوت به رفعة:

«لينين بالمعنى التجريدي رجل فاشل».

وصفتْ كتاباته بالناقصة بالرغم من أن ربع العالم يطلق عليها عظيمة لكنّها لا تراها كذلك. ظلّت عيناها مستقرّتين في بقعة بعيدة جدًّا وهي تؤكّد؛ أنّ لينين لو كان رسّامًا أو موسيقيًّا أو

روائيًا لما اتجه إلى النضال. وسط ذلك الهدوء كانت تضحك فجأة والجميع من حولها في حالة وجوم تامّ. كانت تردم النواقص أمامنا حين وصلتْ إلى هوشي منه؛ ليس هناك من سبب يدعوها ألاّ ترى هذا المناضل إلاّ رجلاً حقيقيًّا فهو شاعر بالمقام الأوّل، أليس كذلك؟ كأنّها تجيب على أسئلتي فتقول: «إذا ما دقّقنا النظر في ذات هذا الشاعر لتراءت لنا كالبلّور وبذلك توحّد كل شيء فيه وما حوله فذهب مدافعًا عن الكرامة البشريّة لشعبه وشعوب العالم». كان عليها أن تواصل لكي تصل إلى جيفارا؛ فأبو مكسيم بتلك الطريقة في الأخذ والرد كان يتصوّر أنّها لن تردّ عليه حتى لو كانت تتحدّث بطريقة رومانسيّة فات أوانها. حين شربت من قدحها، تركته بيدها ونظرت إليّ بطريقة حسبتها شهوانيّة، سمحت لنفسي بذلك وهي تنزّل جيفارا إلى السقف الواطئ:

«عليّ الاعتراف بالجمال، جمال هذا المناضل. وسامته مع الأسف لم تبدّد ظلام القرن العشرين، لكن كتاباته لا تخلو من طرافة ومتعة».

يبدو أنّها هي نفسها بقيت مثلي تفتّش عن شيء ما في تلك اليوميّات والمذكّرات التي تركها وراءه لكنّها لم تفلح. لم يجد ذاك الوسيم لا في داخله ولا لدى الآخرين ما كان يفتّش عنه:

«آه، مأساة جيفارا أفظع مآسي المناضلين قاطبة» أضافت.

انبرى لها أبو مكسيم لكنّه لم يوجه الكلام صوبها. وقف وبدأ خطابه على هذه الصورة:

«لكنّ الشيوعيّة ظاهرة كونيّة وهي تحتوي على السحر نفسه وردود الفعل نفسها، تلك المعقّدة التي يعرفها الجميع من حبّ وحقد، من تقليد ونفور، تلك التي أحدثتها الحضارة الأوروبيّة ذاتها. فالماركسيّة اللينينيّة في الوقت نفسه أحد المنتوجات التصديريّة الكبرى للثقافة السياسيّة الأوروبيّة، وأحد أعمدة مناهضة الإمبرياليّة الأوروبيّة والأميركيّة».

تدخّلت أنا قائلاً بصوت مرح:

«تريد القول ـ كانت، أليس كذلك».

لم يردّ فواصلت:

«كانت تصلح كإيديولوجيا ثوريّة، وتقنيّة في السلطة، وكنظريّة للحزب الوحيد. كما أنّها بحسب علمكم الكريم صارت كتبرير ديموقراطي للأنظمة الاستبداديّة بعد الاستعمار. وهي ذاتها قدّمت مشروعيّة كونيّة لأبسط كفاح محلّي شريطة أن يكون مضادًّا للإمبرياليّة. ألم تسمعوا بكل هذا يا سادتي الأعزّاء»؟

أجابتني كيتا وعلى الموجة ذاتها قائلة:

«إنّ التاريخ قد كفّ عن أن يكون مسجّلاً في برنامج على اليمين أن يحاربه وعلى اليسار أن ينجزه. إنّ اليمين قد فقد في الشيوعيّة عدوّه الوراثي وفقد الثاني نظرة كانت له بمثابة هويّة. لا أدري إذا صحوتم تمامًا واعترفتم أن: «أوّلاً، إنّ الشيوعيّة ماتت وعلى نحو لا عودة فيه ونتيجة انفجار داخلي. إنّها دمّرت نفسها بقدرٍ ما وأكثر ممّا نظنّ وبدون أن تطلق طلقة واحدة».

وقفتُ أمامها وبيدي قدح الجن تونيك قائلاً بصوت شديد المرح والعبث:

«عندنا في العراق طريقة طريفة للملاطفة غير جميع ما سمعتْ. ترى هؤلاء جميعًا يستلطفونك ولكن بالطريقة العراقيّة، فنحن حين نحبّ نكسر العظم وحين نبغض نكسر الرقبة. دعينا من هذا الحبّ القاتل، أنا سأقول لك شيئًا آخر، حين نعجب بإحدى الفتيات نطلق عليها اسم أكلة يحبّها الصغار والكبار: كيكة. كل شيء نرغبه ندوّنه في خانة الأكل. أنت كيكة يا كيتا. حروف اسمك نستطيع قلبها فتتحوّل وها أنت وأبو مكسيم وأنا استطعنا تكسير وترسيم وتفكيك كل تلك الأسماء والرموز بدون وازع ضمير لا ثوري ولا أخلاقي ولا إنساني أو أنثوي نحسد عليه وأمام عناترة الشيوعيين العراقيين، الآباء الفعليين للتضرّع واللعنة والتوسّل والبكاء. آه لو تركت، على الأقلّ، أنت، كل شيء محنّطًا مقولبًا تفوح منه رائحة عطن قديم. لو أبقيتِ شيئًا ما من السذاجة والصغْر بهذا الشكل أو ذاك لتبديد اليأسين الشخصي والكوني أليس هذا أفضل»؟

رفعتْ كيتا رأسها وابتسمتْ في وجهي. كنتُ أشاهدُ في تلك الابتسامة مبيضها ومهبلها وبالحجم المكبّر. شاهدتها وأنا أخترقها على السرير وهي تئنّ وحبّات العرق لا تقوى على مسحها فأمسحها بشفتي. كانت بين ذراعي وهذه الضحكة كانت تصلني كهديل «الفختاية» فوق تيغة حوشنا بالوزيريّة. هل هذه كانت إحدى نوبات فجاجتي وأنا أشتهي مضاجعتها كتسليم لجميع

ما تفوّهتْ به بعدما صُوّر من قبل الجميع، على أنّه بقايا من تلك الأوقات الاشتراكيّة التشكيكيّة التي أرادت فحصها وأمامنا، فالجميع نصّب نفسه مالكًا للحقيقة التي بدت في تلك الثانية أنّها لا تعدو أن تكون كالأوراق الماليّة، فئات متكوّنة من العشرات والمئات والألوف والملايين ومن يشاء يسحب ما يشاء ومن لا يحتاج يسحب وبحسب الظروف، والجميع يسيل لعابه للمصارف التي اعتزمت الموافقة على القروض الطويلة الآجال والتي في أغلب الأحيان لا أحد يقدر على سدادها. ابتسامات كيتا كانت تتواصل وهي تصغي إلى تعليق من تلك أو ذاك، وكأنّها قرّرتْ في تلك الأمسية وفي صبر غريب مواصلة خططها، فهي لم تحضر إلى لندن ولتلبية هذه الدعوة إلاّ لكي تتأكّد ممّا سمعتْ عن أخلاقيّاتهم وعلاقاتهم وضالّتهم وكانت القائمة تحت لسانها طويلة وشيطانيّة، فقد كانت لها حكايات تافهة وساذجة مع بعض المراقبين اليساريين في برلين الشرقيّة إلاّ واحدًا فقط، نسيم. لم يظهر غضبها ولا تفوّهت بكلام قليل الأدب، على العكس، كانت هادئة هازئة وغير واثقة تمامًا ممّا تتفوّه به، لكنّها لم تتلعثم وهي تحاول أن تدع هؤلاء ينصتون إليها حتى آخر السهرة، وأنا لا أرفع عيني عنها وأدور حولها كالديك الهاراتي الملحاح: يا لها من كيكة، حتى تشاؤميّتها وتعاستها لم تكن أكثر من جميع الغائبين عنها وعنّي. أسئلتها نغّصتِ الليلة لكنّها لم تنافق أو تدّعِ، وحين بدأتْ بتحضير نفسها للانصراف بدأتِ البحث عن حقيبتها، وقفتُ ونظرتُ وراء الكنبة الطويلة وعندما انحنتْ أمامنا بدت عجيزتها مثالية أكثر من جميع ما قيل. وقف أبو مكسيم أيضًا

وبغتة، ووقفتْ حالاً أربع رفيقات ملسوعات من اللاتي لم نسمع لهنّ إلاّ صوت بعض الضحكات الخافتة أو الهمهمة التي لا تُفهم. انتبه الجميع لهذه الحركة المباغتة، هل هي الكلمة الفصل في ختام هذه السهرة؟ هنكا البلغاريّة زوجة صاحب البيت أصيبت بإحراج مباغت. احمرّ وجهها الأبيض الشمعي. سبعة أنفار وقفوا مرّة واحدة. أنا أتابع كيتا وهذه لم تستغرب وقفتي بجوارها وكأنّني ما حضرت إلاّ لمدّ يد العون لها، الآن وفي هذه الدقائق. بدأتِ التحيّات والمصافحات ثم النزول من على ذاك السلّم الحجري. بوسعي أن أكتب كتيّبًا عمّا حصل فيما بعد، بعد نزولنا ووقوفنا أمام بعضنا. لا يجوز التلخيص فليس هناك خلاصة نافعة. أبو مكسيم بدأ متعطّشًا للعمل الغوري، كان أسرعنا في نزول الدرجات التي على ما أظنّ لم تزد على العشر. كنّا نتحرّك على إثره، نحن جميعًا ، هكذا كنوع من المطاردة، فتصوّرتُ أنّه قد يتعثّر ويقع فينال ضربة عنيفة على رأسه، ولذلك كنّا نوسع له الطريق حتى توقّف جانبًا أمام الأسلاك الرقيقة التي كانت تحيط الجانب الأمامي من الحديقة الصغيرة الملحقة بالبيت. كان يبتسم ابتسامة جافّة، يبتسم لنفسه وهو يمسك ما بين فخذيه بيديه الاثنتين. كانت هناك أشجار قصيرة ذات أغصان متدلية إلى خارج السور، ووراءها كانت تتطاول أشجار صنوبريّة واقفة بطولها المعتدل تطرح ظلالها على الشارع العام فتشكّل مع الضياء الخانس لعمود النور شيئًا يشبه مجموعة من الأشباح رؤوسها مهشّمة أو شيئًا من هذا القبيل. هذا ما كنت أبصره أمامي، بذلك التأثير الغامض لأجسادنا وقاماتنا وهيئاتنا؛ فقد كانت وقفتنا كلّنا

ونحن نبصر أبا مكسيم، كأنّنا حضرنا لكي ننظر إليه ونظلّل مكانه وسط تلك الحلكة. شيء جعلنا نتبعه بعيوننا كبوليس سرّي لكنّ الرجل غير عابئ. إنّه يدفع بي، أنا على الأقل إلى العجز حيال ما كنت أبصره، فتصوّرتُ أنّ عيني أصابتهما غشاوة ما فبدأتُ بفركهما سويًّا بعدما نزعتُ عويناتي الطبّيّة. كنّا نتبع حركات أبي مكسيم وكأنّنا أمام راوٍ سوف يسرد لنا اعترافه الغريب؛ كان بدأ بفتح إبزيم السروال، هنا لا محالة، عليّ اللجوء إلى ذاك الحماس المضاعف ولكي أرى ذَكَر أبي مكسيم ، فمهما أسرع في عمله، وسواء كان مكتفيًا أو رافضًا فها نحن جميعًا نقف بالمرصاد في تفاعل وانفعال لا مثيل لهما. كان عضوه أمامنا بعدما بدأ بضبط اتجاهاته وحركة الخصيتين وطبيعة ما سوف يقع تحت أبصارنا. آه، عضو عادي، حجمه كبير، يعني، وبه مزيج من الدهاء. ضحكتُ وأنا أقترب أكثر وأنظر بكلتا عينيّ وقد تراءى لي كما لو أنّه ملفوف بورق السلوفان ومربوط في منتصفه بشريط ملون، وما حضوره هذه الليلة وبكل هذه الهوبرة بحسب قول صاحبنا «أبو العزّ» إلاّ لقصّ الشريط. لم أنتبه لابتعاد كيتا عنّا بخطوات حسبتها بعيدة. كدت أطلق ضحكة من الصعب خنقها لكنّي واصلتُ الفرجة وهو يسحبه سحبًا بطيئًا كما لو أنّه يسحب المخّ من بطن العظم. كان يريد على ما يبدو سقي الأشجار، فبدأ ينظر إليه دون الالتفات إلى أيّة جهة ونحن بدورنا كنّا مساقين للنظر ورؤية ما يقوم به من جولات، فالبول كان يشرشر ويسيح أمامنا، ينزلق على السياج ثم تضبط الاتجاهات فيسيل وسط أحذية الرفيقات ويشقّ بعد ذلك طريقه إلى الشارع العام نازلاً إلى

تحت، إلى الأسفل. لم نر أحدًا يمرّ ولا نحن نطقنا بكلمة، شعرتُ أنّه يبطئه كما تقتضي حاجة الفرجة وهو يديره إلى جميع الجهات. كان يلاعبه ويقلّبه كما لو كان يفلّيه أمامنا بشيء من العاطفيّة المحمومة ذاهبًا مرّة إلى اليمين وثانية إلى اليسار ثم إلى أمام. كان يحاول أن يدعه مستيقظًا فارضًا نفسه كنسر حضر بعد الطوفان لكي نعثر من خلاله على سلالات إنسانيّة جديدة تليق باللاتي وقفن حوله على شكل شبه دائرة. شعرتُ أنّه تكهرب حين لاحظ أنّ كيتا بعيدة تمامًا عن المشهد، كأنّه يفعل كل هذا من أجلها، ولم لا، فهي امرأة مباركة حقًّا. كنّا نتسلّى، قلت لحالي ذلك. نفض رأس عضوه بقوّة وبدا يعيده بهدوء وحنان شديدين إلى مكانه داخل السروال ثم سحب الإبزيم. ثم دون أن ينظر إلى أيّ أحد منّا. اخترق الصفّ وانزلق من بيننا كمسؤول حكومي ووراءه المرافقون يتحرّكون. لم يلتفتْ إليّ قطّ ولا نظر إلى كيتا التي وقفتْ بعيدًا عنّا جميعًا. ظهر لي من سحنته أنّه يغلي، وأنا إذا ما أطلقتُ صوتي بالضحك فسوف ينفجر، يصعب عليّ الضحك العالي وقتذاك، لم أقدر. لم يقل لنا تعالا لكي أوصلكما وهو يعرف أنّني حضرتُ بدون عربتي. فبعدما ساروا وابتعدوا شعرتُ أنّ كيتا كانت ترتعش وتهتزّ وهي واقفة بعيدًا عنّي، هل كانت هكذا فعلاً؟ كان ثمّة جسد يرتفع وينخفض أمامي فتبدو على وشك السقوط أرضًا فأسرعت لاحتضانها فوقعت بين ذراعي. أنظر إليها وأبو مكسيم يدير مقود عربة الفولفو وأنا ما بين التفاتة إليه وإليها. عدتُ أراها تتلوّى من ألم أو شيء أكثر منه فدفعتُ يدي برقّة وانحنتْ كثيرًا وقارب وجهها السياج والأسلاك

الشائكة. بركتُ بعيدًا عنّي وبدأت بالاستفراغ. اقتربتُ منها فأدارتْ وجهها بعيدًا عنّي. كان صوتها ضعيفًا يصعد ثم ينخفض وأنا في ذهول لا أدري ماذا أفعل؟ أخرجتُ منديلي القطني النظيف ووضعته على زندها وابتعدتُ. أشعلت سيجارتي وكانت نار الولاعة قد صغّرت أمامي الموجودات. اقتربت من كيتا وهي تحاول الوقوف ثانية كأنّها على وشك الدخول في غيبوبة وأنا أنظر إليها من قمّة رأسها هابطًا إلى صدرها وبطنها وساقيها البيضاوين. يومها، كنتُ أريد ان أدفن وجهي في صدرها، أن نصمت تمامًا وأنا أدفعها أمامي إلى البانيو. هي ترتعد وأنا أقوم بتدفئتها من غير انقطاع. كنت أشتهيها وأشتهي تحوّلاتها وهي طيّعة ودائخة بين يدي.

* * *

ـ كيتا ـ

تبرّمتُ وتأففتُ قبل أن أجيب هنكا بالإيجاب بأنّني سأحضر إلى تلك الدعوة. منذ سقوط الجدار لم ألتق بها. استبعدتُ نفسي وبالتدريج من التجمّعات العربيّة والأفريقيّة والآسيويّة، وحاولت قدر الإمكان أن تظلّ علاقاتي ببعض الشيوعيين العراقيين رسميّة بعدما اضطررتُ إلى التخلّي عن نسيم جلال، لا فتاة أو سيّدة بمقدورها النجاة من غرام العراقيين، هذا الرأي ينطوي على مبالغة لكنّي لم أعد أهتمّ بآراء الآخرين، صرت على الهامش، اخترت هذا الموقف والسكوت واتجهت إلى تحليل معايب الشيوعيين الألمان والعرب الشائنة؛ أمّا العراقيّون، بالفعل، لم أعثر على نعت إيجابي يحرّك همّتي لكي أدوّنه بجوارهم، وبصوت عالٍ صرخت؛ لا، لا يجوز أن يكون نسيم شيوعيًّا عراقيًّا، على الأقلّ، في ذلك المتعلق بموضوعة الجمال والخفر الداخلي في روحه ودرجة التشاؤم التي كان بمقدوره إنتاجها أمامي كالشهيق والزفير، فيمكنني أن أحادثه على إيقاعها أو أنازله وأنا أريد العبور إليه فلا أقدر في أغلب الأحيان. أورثني ما لم أتمكّن قطّ من الإطاحة به فصرت أخشى ملاقاة أيّ رجل عراقي أو الوقوع في غرامه. أجل تقوّضتُ، قالت هنكا وهي تستقبلني.

أوّل مرّة التقيتها وصفاء قبل زواجهما في إحدى الندوات الحزبيّة في صوفيا وقتذاك، كل شيوعي عراقي قابلته كان يريد أن يحتلّ موقع الداعية، الأستاذ والمناضل المبجّل والوطني الذي على الجميع، رفاقًا ومناضلين وأخيارًا ومن جميع الجنسيّات، توفير النفوذ والوجاهة والمال وتنظيف الأيديولوجيّة ممّا أصابها من ترهّل وتخشّب. هنا، كنّا نطلق صفيرًا حادًّا للسخرية أنا ونسيم حين أعود وأخبره فيردّ عليّ قائلاً بصوت خفيض:

«هؤلاء ما هم إلاّ غشاشون صغار جدًّا. ما علينا منهم لا الآن ولا فيما بعد».

كنت أحبّ أفكاري فقد درست الأدب في جامعة كارل ماركس في لايبزغ وتخرّجت بدرجة امتياز، حاولت التخصّص بالشاعر الروسي بوريس باسترناك لكنّي وجدت استهجانًا لا مثيل له فبدأت أقرأه بالخفاء. يقول نسيم عن أفكاري إنّها اللاأدريّة الجماليّة بدلاً من اللاأدريّة الثوريّة. نطلق ضحكة عالية وأحضنه من وجهه المنحوت من صلصال وتبغ ورماد. أكثر ما كان يقوله نسيم كان صحيحًا إلى حدّ كبير، فأنا أحبّ الأفكار والتصرّفات والثياب الأنيقة. فبقي نسيم يردّد على مسمعي:

«كأنّك لم تناضلي في أحد الأيّام وتُحتجزي في أسر أو سجن انفرادي أو تنازلت وأصابك الغم. من أين لك كل هذه القدرة على اللارضوخ واللاتأجيل. آه، أنت أفضلُ منّي في هذه الأمور، فنتبادل الكتب المترجمة عن الفرنسيّة والإسبانيّة. لشدّ ما كان انخطاف فرلين برامبو يوجعنا فأقول له: مسكين هذا الشاعر

وقع في حبائل رامبو وبدون أيّ أمل بالنجاة كما أنا معك. أقف قبالته وأنا أحدّق في عينيه الذابلتين:

«ترى هل ستطلق عليّ النّار في أحد الأيّام يا نسيم»؟

هو فضّل خيانة حزبه فخانه. إنّ الخيانة تغذّي الروح وتضبط الذات وتحظى بصيرورة خاصّة فهي في نهاية المطاف خلق لا يدركه الكثيرون ممّنْ حولنا».

كاد يصفّق بيده وهو يطلب قدحًا آخر من المارتيني فأضاف:

«لابد من انتهاج مبدأ الخيانة. هو وحده الذي سيوفّر لنا حيوات ومصائر مغايرة».

منذ اللقاء الأوّل بنسيم وأنا أتشكّك بشيوعيّته، أفكاري التي حاولتْ التجانس معه جاءت من داخل لسانه وتهذيبه الغريب عن باقي الشيوعيين. وفي أحد الأيّام اكتشفت أنّه مطارد من قبل المخابرات العراقيّة ولقد فرّ من بيروت إلى برلين بعد واقعة نسف السفارة العراقيّة ببيروت. كان التقرير أمامي والوقائع كثيرة. الاسم الأوّل في القائمة ومطلوب فيها رأسه، فإمّا اغتياله أو تسفيره بصورة من الصور إلى بلده. فتمّ ترحيله وبصورة سرّيّة جدًّا وبواسطة منظّمة التحرير الفلسطينيّة تحت اسم نسيم جلال، وللعلاقات المتينة ما بين ألمانيا الشرقيّة والمنظّمة لم يسلّم إلى الحكومة العراقيّة، أمّا الرجل الذي ربما لا يزال يبحث عنه فهو السيّد مهنّد برهان الدين.

بعد الكأس الثالث كان نسيم يسترخي ويردّد، إنّه الأجنبي هنا

وهناك، ما بين هؤلاء وأولئك. كان مؤرّخًا ورسّامًا. فيصلح كلامي قائلاً:

«كلا، أنا أريد أن أرى الصوت البشري في اللوحة التي أرسمها. لا أفضّل سماع صوت التاريخ المزوّر، ذاك الذي تمّ فأخذنا معه إلى ما انحدرنا إليه».

كان جميلاً بالمعنى الكلّي للغز الجمال، بمعنى الرغبة الحارقة أن أكون بين ذراعيه وأن لا أهتمّ بالعثور على أيّ حلّ لمشاكلي الكثيرة في السكن والعمل والإدارة.. إلخ.

قال: لا ينبغي أن تفهميني وتقومي بتأويلي. إنّني معقّد وملتبس على نفسي وأيّ سؤال تسألينه لا أملك أيّ جواب عليه. تمامًا، إنّني متزوّج لكنّني أشعر أنّني عانس، لا زلت هكذا وإذا تعلّق الأمر بالمرأة، أعني بالأنثى المبهجة، فأنا دائمًا أعثر على خطوط للهرب. أجل، أخاف، خائف، أتلعثم في الفراش وارتبك خارجه وأمام المرأة والأمر الأكثر إثارة إليّ وهذا ما أثرته أمامي ومنذ اللقاءات الأولى؛ أنّ النضال صار وصيًّا على الذكاء والإبداع والنبوغ، نبوغك ونبوغي. تمامًا، أشعر بكل هذا التشاؤم يا كيتا وأردّد، حذار، ما عليك أن تتأخّري في إعلان كل هذا وتدوينه بصورة من الصور. أعرف أنّ أسباب النضال وفي جميع مراحل التاريخ المكتوب وغيره تتعرّج قليلاً، لكن أسباب الخلق والإبداع ومنذ نشوء الحضارات واحدة لم تتغيّر.

آه، كم أحببت نسيمًا وخياناته المتواصلة لزوجته ولي ولغيرنا.. لكنّه كان يتهج ويقول أفضل ما عنده:

«جميع ما تعلّمته في حياتي تعلّمته من النساء. في حضرتهنّ تكتمل إنسانيّتي ورجولتي. أنت أجمل وأهمّ من تعرّفت إليهنّ في حياتي.. لكن»..

يصمت فأفهم أنّ زوجته المصابة بمرض مزمن لم يشأ التفوّه به. فيردّد: أجل، هي مريضة بمرض قديم. يضحك ويواصل، أجل هناك أمراض قديمة مثل الحضارات القديمة لا تفتأ تفتك بنا وما علينا إلاّ الانحناء أمامها».

كنّا نتذابح في النقاشات فأبادره فجأة:

«اسمع أنت تشبه بوريس باسترناك».

يبتسم ولا يردّ، فأواصل:

«آه، أنا أحبّ هذا الكاتب أكثر ممّا في مقدوري أن أفعل. أحبّه أفضل ممّا أحبّ حالي، وما يدور في رأسي هو من جرّاء ما دار في رأسه. بالطبع أحبّك نسيم، لديك شيء منه لا أعرف ما هو، ربما هو الخفر والحذر وجميع تلك الإجراءات التي تفعلها قبل أن نلتقي. إنّ الأشخاص الشعراء الفنّانين يتشابهون في خصال كثيرة. أنت متشدّد مثله في المآكل، طعامك قليل وجسمك نحيل وسراويلك من النوع العادي جدًا جدًا، وملابسك الداخليّة عتيقة بالرغم من نظافتها. وحين حدّثتني عن تلك المربّية لعائلة باسترناك وكان اسمها ماروسيا، هي أيضًا أحبّت لينين وبوريس. كان لديه زوج من الأحذية القديمة، وذات يوم وجد واحدًا جديدًا تحت سريره. سأل متفاجئًا «من أين أتى؟ لم يكن

أحد يعرف شيئًا لكن ماروسيا خرجت بحزم من غرفتها، بعد بضعة أيّام ظهر حذاء آخر، عندها قال بوريس بصوت مترجّيًا: ماروسيا، أنا لست أم أربعة وأربعين. كان بوسعي أن أشتريهما بنفسي لو كنت بحاجة إليهما، وأنت تصرفين مالك. أجابت: ولماذا إذن لا تشتريها؟ أنظر إلى الكتّاب الآخرين كم هم أنيقون؟ تأثّر باسترناك بعمق باهتمامها وبدأ يشرح لها أنّ الملابس ليست إلاّ مظهرًا بسيطًا إنّما يجب أن نهتمّ بالضروري جدًّا وأن نساعد الآخرين.. وهذا ما كان يفعله بكل دقّة».

ماذا بمقدوري أن أفعله معك يا نسيم؟ ففي اليوم الأخير من انتخابات اللّجان الفرعيّة تأخرتُ ليلاً بعدما خذلتُ من قبل رفاقي الرجال. أجل الماركسيّة اللينينيّة لها دخل بسقوطي في الانتخابات. هو شيء من ذكورة لينين وماركس وليس من أنوثة باسترناك ونسيم. انتظرني نسيم في الشقّة الكائنة في شارع كوبينك الكائن في حي فريدريشسهاين. كنت أسكن في الطابق السابع ولقد سلّمته المفتاح ولكنّه لم يحضر مرّة ويجدني بانتظاره. أخبرني فيما بعد كيف ضاع طويلاً وهو يبحث لي عن باقة زهور صفراء لوني المفضّل، لكنّه تاه وسار على غير هدى وكتب في رأسه لوحة المرأة الهيمانة والرجل الذي كان يحترق لوحده. أوقد شموعًا ملوّنة في جميع أرجاء الشقّة وحضر الكونياك من أصدقائه الفلسطينيين. كانت الشموع تسيح أسرع من ظهور نتائج الانتخابات وسقوط كيتا المدوّي. أجل رسبت أنا بطريقة باهرة، على السقوط أن يكون تامًّا ناجزًا وشخصيًّا، سقوط لا يشغلنا عن

متابعة باقي الإجراءات بالتصفيق الحادّ للرفاق الذين فازوا والباقين الذين شطبوا. تلك قواعد التحضيرات الجديدة، للسقوط وقبل سقوط الجدار. كنت عرفتُ بصورة حدسيّة أنّني سأفوز بمقعد الأكثريّة المرتاحة. كنت شابّة لطيفة ومشتهاة أيضًا، والذي غدر بي يا نسيم هم رفاقي. رفاق الطريق المتعرّج، هؤلاء الذين كانوا الأعزّ في حياتي على الصعيد الشخصي والحزبي والنضالي. صوّتوا لغيري، صوّتوا للبهلوانيّة، للانتحال، لرجل ما وليس لامرأة بعينها، ليس لكيتا، وليس لأنثى. يومها، قلت لنسيم وأنا أعود مكسورة مكفهرّة أردّد قصيدة بورخس: «أتوسّل إليك يا إلٰهي يا من تجعلني أحلم أن تستمرّ في جعلي أحلم».. في تلك الليلة كان لساني يمصّ لسان نسيم ويعضّه بطريقة بعيدة عن الجدليّة والراديكاليّة إلخ وجميع تلك الكلمات الفارغة. نمنا خارج جميع النصوص. كان يهيجني بجميع ما يمتلك من قوى وأعصاب وأعضاء وحواس، واللذة كانت تتضمّن جميع شهوات الأرض، فنسيم يخزّن جنسًا عراقيًا لا مثيل له، على الأصحّ جنسًا من اختصاص العراقيين، لا يلجأ للتحليل النفسي أو اللغة الشعريّة والتعابير البدائيّة. كانت المفردات تعثر على لسانه فتصير فيه فيطلقها في فمي وبين لعابي فأصاب بالدوار فأقول سوف أموت يا نسيم! موتي من اللذّة أفضل من الموت بالانتخابات، يردّ عليّ. لا يعطي دروسًا وأحكامه بالطبع ليست جميعًا صائبة. كان يردّد وهو داخلي: إنّ الشهوانيّة السياسيّة لا تصل إلى الشهوانيّة الجنسيّة. ثم اعترف أخيرًا: أنت يا كيتا من أجمل من تعرّفت عليهنّ خارج البلاد العربيّة.. لكن اسمعي، من أنت يا كيتا؟

آه سقط الجدار وتمنّيت سقوط جدارات أخرى داخلنا. يجب أن نتحدّث عن العشق لا من اليأس وكان اليأس حولي، حولنا، كثيرًا جدًّا. انهيار الجدار بعثر عوائل عربيّة كثيرة لم تعرف ماذا ستفعل بحياتها ولاجدوى رواتبها وأوضاعها الصحّيّة والاجتماعيّة. ونسيم زوجته كانت هي أيضًا على وشك الزوال وهو، أظنّ أنّه كان رجلاً أخلاقيًّا. ترك الحزب الشيوعي منذ زمن طويل جدًّا وظلّ يحاكم ويفحص الأفكار وتلك المسلّمات، وها هو أمامي سرمد برهان الدين، ترى ما هي العلاقة بين سرمد ومهنّد؟ هل هما شقيقان أم..؟ لم أتوجّس خيفة منه وأنا أراه يراقبني في هذه الليلة، نشيط هو ويلتقط موجتي الجنسية بيسر ويريد صعودها أو ركوبها. لسانه متجانس هو أيضًا، متنوّع وشديد السخرية، وكل كلمة كان يتفوّه بها أشعر أنّها مجرّد علامات يضعها في طريقي لكي أستدلّ عليه. فيما بعد قال: كلماتي مصابيح. لكنّه لا يمت بأيّة صلة لنسيم بل على العكس، فنسيم الرشيق كان يهزم الأطعمة ولا يأكل إلاّ نادرًا. ترى ماذا سأفعل بسرمد ومعه؟

لم أشغف بسرمد كما شغفت بنسيم. فذاك لديه قلب، أعني وصايا قلب سوف يدعني أجد مخرجًا لوصايا قلبي أنا. حين هجرني فجأة وظلّ يواظب بجوار زوجته حتى اختفت، لا ندري إلى أين رحلت فتغيّر كثيرًا، ولم أعد أتعرّف عليه. صار رجلاً خائنًا بصورة تامّة وأنا أحبّ الخونة لكنّه هو لم يعد لحبّي. لم يقل أيّ شيء. كان بحاجة إلى مخرج لكي يكتشف وجوهه

ومراياه. أوّل ما شاهدت سرمد، قلت، هذا يضاجع بصورة مدهشة لكنّه لا يغرم البتّة، ونحن في سنّ متقارب، ربما أكبره قليلاً أو العكس، لكن من يهتمّ؟ بدأ يعاني من خيبات لا أوّل لها ولا آخر من الشيوعيين والبعثيين والأصوليين والمستقلّين فالجميع لا يطيقه، لا أعرف لماذا؟ كأنّه لاعب في سيرك وما عليه إلاّ القفز عاليًا لكي يحصل على الدرجة النهائيّة. في السياسة لا أحد ينال تلك الدرجة لكنّ الجميع يتمنّى الحصول عليها. في برلين، كنّا أنا ونسيم نتمشى ونتخاصم ونصمت طويلاً فهو أكبر منّي ودائمًا هناك أحد ما بيننا، الزوجة، الأفكار، القراءة، الرسم الفنون قاطبة. أحببته بطريقة لا تحتمل الخيبة ولا الأمل. حبّ، هكذا بلا وعي ولا أسى ولا مسؤوليّة ولا مظاهر ولا ثناء ولا أيّ رجاء. كل جزء فيّ كان يجرّب سخاء ما هو قادم منه بصورة من الصور فأتغذّى على كرمه وغناه. حبّ لاامتثالي وبه شيء من الدراميّة والمأساويّة. فنحن لم نقل وداعًا ولم نرتّب أصول الفراق ولم ينمُ بيننا، أن يكون أحدنا رهنًا للآخر. آخر مرّة شاهدت نسيمًا فيها كانت في إحدى التظاهرات الكبيرة ضدّ موت أطفال بلده. كان يمشي على الرصيف لوحده ويدخّن، ساهيًا غائبًا نائيًا وبعيدًا، لا أحد يمسك به ولا يريد من أحد أيّ شيء. حين اختفت زوجته اختفى وراءها. لم يكن يحبّها كما أحبّني، الزوجات، بحسب ظنّي مثل الجبال والصخور موجودات دائمًا لا أحد ينال منهنّ ولا بالموت. حبّه لها به شيء من الرفاقيّة والأموميّة بحسب ما أزعم، كيف نقول، لديهما ـ كانت ـ أهداف مشتركة، ربما غير واقعيّة لكنّهما ينتميان أحدهما للآخر. يقول

بصورة من الصور؛ هو القدر الخالص الرسمي والإلٰهي فلم يعد يعرف ماذا يفعل بعدما ذهبت الزوجة. فجأة، بدا لي أنّه يفضّل أن تكون موجودة دائمًا لكي يخونها. الخيانة ليست معي، الخيانة تتربّص به فيتربّص بنا كلّنا، نحن عشيقاته الكثيرات.

سرمد، ترى إذا ما أخبرته الحكاية هل سيتفهم، لا أظنّ أنّه سيحبّ نسيم ولا نسيم سيحبّ سرمد فكلّ منهما له نظريّة في الغرام والسياسة والحياة. نسيم طلّق السياسة واتّجه للتنظير. سرمد طلّق الاثنين واتجه إليّ في البداية، وها أنا أستفرغ وراء سور بيت السيّد صفاء وكأنّني أوزّع بيانًا بلغة القيء. هذا هو الذي بقي من التاريخ والنضال واليفاعة والشعر والفنون، التي سلّمت أغلبها إلى نسيم الذي انكفأ دوني. فنحن مكشوفان أمام بعضنا بعضًا. وإذن ماذا سأفعل مع سرمد، هو بدين، فتصوّرت أنّه يقدر بلكمة واحدة الإطاحة بنسيم الذي ظلّ وحيدًا وربّما بدون ندامة.

* * *

لم أقع ضحيّة الألقاب التي تلاها عليّ أبو مكسيم في إحدى زياراته إلى لندن، قائلاً بصوت ساخر وعال جدًّا كما لو أنّه واقف يخطب بالجماهير:

«أنت فاسق وغد وفسقك يعطب النساء اللاتي تعرف. إنّهنّ يتحدّثن عنك كما لو كنت الساحر الأخير بين الرجال العرب».

«والإنكليز من فضلك، لا تنسَ هذا قط».

قلت ذلك وأنا أقهقه. استهوتني النعوت لكنّي اكتشفت أنّها ناقصة. لم أدّعِ أيّ شيء ولا كنت طيّبًا أو متواضعًا وأصلاً لا أطيق أدوار الضحايا. دمدمت بصوت خفيض:

من الجائز، الضحيّة تنتج قاتلاً، وإذا صان الأمانة فقد يكون شهيدًا، لكنّي حتى تجلّيات الشهداء تنفرني فغالبًا ما تصير الشهادة لعنة هي الأخرى. لم أعد أتذكّر كم امرأة عاشرت؟ كيتا تستلطف أنانيّتي وتردّد:

«لا أنكر ذلك عليك وعليّ أيضًا، بمعنى، أنّني أحيانًا لا أقدر على القبض عليك، تزوغ وتختفي وتتوارى عن الأنظار. إلى أين تذهب يا ابن برهان الدين؟ أنانيّتك هي عملك الإضافي وبها

تتقوّى على نفسك وعلينا وعلى زمانك، أي علينا كلّنا مجتمعات، نحن النساء اسمع، إنّني أنانيّة أكثر منك ولعلّ هذه الصفة هي سلاحي الوحيد ضدّك، لا أندمج بك كليًّا ولا أكون نافعة تمامًا لكنّي أشعر أنّ كلينا ـ أحدنا ـ هارموني للآخر. أعني، أنّني أعذرك في الغياب والسكوت والقلق والترك. لا أدري، يقال إنّ النساء أكثر أنانيّة من الرجال هل تثق بمثل هذه الأقوال؟ أنا أتحدّث عنّا نحن الاثنين. أنت أعزب وأنا عزباء. تقول عنّي إنّني جميلة بطريقة ما، أعني، لا أعرف كيف تكون المرأة جميلة؟ أنا أميل إلى شيء آخر غير الجمال فهذا أيضًا عابر سريع العطب. لا أعرف ما هو، سامحني، ربما هو التملّص من الصفات».

حسنًا، كل مرّة كنت أريد أن أكون خسيسًا وأتراجع قائلاً، في المرّة القادمة سأكون أكثر خسّة لكنّي لا أفعل، ليس تطيّرًا أو نزاهة تافهة، إنّني فقط أشعر بالقصور فأترك كل شيء خلفي ضبابيًّا وأنا أتصوّر أنّ الشيوعي العراقي كان يعتقد أن كلّ علاقة مع الآخر تنطوي على عداوة، أيْ أنّ هناك أرضيّة فُلحت جيّدًا بسماد سوف ينبت العدوّ، وهذا ما كان يثير الاستغراب والامتعاض. فلا الشيوعي يزول ولا العدوّ يموت. أمّا الشيوعيّة فقد كنت أتصوّرها لم تكتمل بعد حتى لو اندحرت، أعني، لم تبدأ بعد. فصيرورتها ليست الوصول إلى شكل ما لم يتمّ أو يصر أو يُحَكْ، ولكن أن يكون في داخلها عناصر غير متوقّعة ولم توجد من قبل داخل تلك الأقوام شريطة أن لا تخنق الحرّيّة، الحرّيّات كلّها. أبو مكسيم اشتغل في خدمة الغير وبالأعمال التطوّعيّة والخيريّة النبيلة، عندما أردّد هذه النعوت بصوت عال

أمام أبو العزّ أو البيضاويّة يطلقان قهقهات متواصلة من رنّة سخريّتي. تأكّدا، يومًا بعد يوم من جميع ما كان يقوم به من صفقات مشبوهة وأعمال خسيسة، فعرفا أنّ الرجل تغيّر وتحوّل، وربما، اختفى هو أيضًا. اختفى أبو مكسيم الأوّل. ظلّت له، على الخصوص مع المنظّمات الفلسطينيّة في بيروت مهمّات لا أوّل لها ولا آخر، يسّرت لبعض الشيوعيين العراقيين الهاربين من قبضة النظام السائد، السفر والعمل والإقامة في لبنان وبواسطة المنظّمة. كان له أسلوب مميّز باقتناص ربع الراتب المخصّص لذاك الهارب من البلد فيوقّع معه أوراقًا ويبرم معه اتفاقًا وبالسرعة نفسها تدخل آلاف الليرات اللبنانيّة في الحساب الشخصي للسيّد أبي مكسيم. تتضاعف الغلّة كلّما ازدادت انشقاقات الحزب وتضاعفت مهاتراته، انقساماته وعمليّات الطرد والتشهير والقذف والتخوين من هذا الغريق لذاك والتي طالت قياداته وكوادره المتقدّمة. وليس هذا فقط، فقد كان يزداد توادًّا معي طالما أخي مهنّد ينكّل بالشيوعيين في المعتقلات هناك. لا ينبذني ولا يشهّر بي ولا يدع أحدًا ينهشني أكثر ممّا أستحق وأخي. كان يتضايق، لا أقول يغار من تراجمي والكتب التي ترجمتها فينصت إلى القصص التي تمتدحني، مردّدًا على مسامعي أنّني حيوي جدًّا وتراجمي جيّدة وكان هذا غير صحيح، فأنا كنت أجاهد لكي أحصل على لقب مترجم لا بأس به فأردّد ما كنت مؤمنًا بترجمته على هذه الصورة: «سيكون الوضع الأمثل حينها ألاّ تحمل الترجمة أيّ اسم وألاّ يرد اسم المترجم في أيّ موضع منها، لأنّ قضيّة المؤلّف هي أوّلاً قضيّة اسم وتوقيع».

أبو مكسيم هو الآخر يضع البازباند في مكان ما من جسمه

اللطيف. أخبرتني بذلك إحدى عشيقاته، لن أفشي اسمها قطّ. هذه التسمية فارسيّة تحمل حروفًا جميلة من تزاوج الباء والنون وفي الوسط الزاء. كنت أعرفهم، هربوا من البلد واستقرّ أغلبهم في لندن. عشيقاتهم يقصصن عليّ تفاصيل مضحكة منذ لحظة الاهتياج التي تطول أحيانًا إلى نهاية الليل بدون فائدة تذكر. يتحدّثن عنهم بفصاحة ويشرن إلى تفاصيل تسرّ العدوّ قبل الصديق، ولا ينفع ذاك السرّ: الأدعية المخفيّة إمّا تحت الكتف أو فوق الصدر. قطعة من قماش بألوان زاهية سميكة وبها درزات بخيوط كبيرة ثخينة من جميع الجوانب ولا أحد يعرف ماذا تحتوي من كتابات، وصفات أو بيانات. النساء يردّدن، أنّهم وضعوا كل ذلك من أجل انتصاب يسير، وربما نادر الحدوث، يوافقون أن لا يكون على الدوام ولكن على الأقل للتمتّع بظفر يشبه قلاّمة أظفر، وما إن تبدأ المضاجعة حتى يصرخوا بأسماء الله الحسنى والأولياء الغائبين وأصحاب الكرامات. يستعجلون ماءهم أن يحضر لكن للأمانة كما تقول هذه وتلك، كان بياض عيونهم يصفرّ ويزرق ثم يخمدون بدون التفوّه بكلمة.

لم أعد ألتقي بالشيوعيين كالسابق، طبعًا، ليس لهذا السبب التافه، وإنّما، لأنّني كلّما أراهم أصاب بحكّة شديدة، قال الدكتور يوسف «هي حساسيّة ثوريّة لا غير».

كانت أمي تردّد دومًا وبدون أن يتملّكها الأسى: اللّهمّ حوالينا لا علينا. لكنّ الشيوعيين كانوا حواليّ وعليّ أيضًا. وهناك الكثير منهم في لندن، أطقم مدرّبة تدريبًا راقيًا وعلى قدر من الحرفيّة

العالية للشركات عابرة القارّات والدولة العظمى. أزعم أنّني كنت متعلّقًا باليسار، قريبًا منه إذا صحّ التعبير، بوسعي أن أقول هذا وأستغرق في اليسار الذي صار هو الآخر مبتذل السلوك وسوقي المواقف، ولم يتورّع من استخدام أوسخ الوسائل في النفاق والتدليس، في الفساد والنذالة.

ـ البيضاوية ـ

أبو مكسيم هو الذي أطلق عليّ اسم البيضاويّة. قال أمينة، هذا هو اسمي الأصلي، اسم يبعث على الملل كما أنّني لا أثق بمعناه. أنت من الدار البيضاء أليس كذلك؟ سألني أبو مكسيم. لم أتعب كثيرًا بالعثور على فرصة ممتازة في المملكة المتحدة بسبب نفوذ الوالد الإقطاعي وفتنتي، اعترف بذلك أبو مكسيم لاحقًا وأنا أراه أول مرّة وهو يزور مدير مؤسّسة الأدوية التي أعمل بها، لم أرتح له، لا شيء واضحًا فيه. أعني الأساليب والتصرّفات، أمّا التجاعيد والهالات السوداء تحت جفنيه فلا وجود لها. طبعًا له عيوب غير مرئيّة، عيوب الرجال في منتصف العمر. ساورني شكّ أن يكون ما أشاهده هو سنّه التقريبي، بين الخمسين والستين على سبيل المثال، لكن سي الهادي مدير المبيعات الآتي من مدينة الصويرة المغربيّة يقول، كلا هو يبدو في سنّ لا نقدر على تحديده. ألا ترين وجهه كأنّنا نتنزعه من متاهة. كان يزورنا يوميًا طالما هو في لندن. لم يكن عشيقًا محتملاً ولا وضعته على خططي الخمسيّة ولا رافقني في أحلام اليقظة أو المنام ولا فكّرت بتمضية الوقت، أيّ وقت، معه ولو من باب اليأس، ولا فكّرت الإيقاع به أصلاً، لا أدري لماذا لا، فهو

لطيف ووسيم لكن به شيء غير قادرة على تحديده؛ السفالة والشرّ، شعرت أنّهما عاديان، أعني ليسا نهائيين ومتكاملين. كان يتصرّف كأنّه يريد تدريبهما وأمامنا لكي نشهق ويصيبنا الانبهار. أبو العزّ الفلسطيني اللبناني صاحب الشركة وصديق والدي الثري الذي أوصاه بي قبل أن يتوفّاه الله، هو أوّل الأشخاص الذين قابلتهم حين حطّت قدمي بريطانيا في ١٩٩٨، فدخلت في طاقم الشركة وصرت المترجمة رقم واحد في الترجمة وكتابة الرسائل لمئات الشركات في العالم. وما إن أدخل غرفة المدير حتى يبدأ بمراقبتي من وراء عويناته الطبّيّة وبيدي ملفّات كثيرة تحتاج إلى توقيعه. في ذلك العام كان الحصار على العراق في الأوجّ وشركة الأدوية وجدت لها مواطئ الأقدام كلّها هناك. أدوية صحيحة، فاسدة، بين بين، أدوية نجسة، جمهوريّة ملكيّة نردّد ذلك وأكثر أنا وسي الهادي ونحزن بصورة لا مثيل لها، فقد كنّا نحبّ ذلك البلد كثيرًا. أبو العزّ يعرف بصورة من الصور أنّني لست من أصحاب المزايا الثوريّة، ولا اشتغلت بالشأن النضالي ولا أريد تحطيم العائلة والدولة والدين والأحزاب، ولم أفكر أن أحدث أيّ خلل في المجتمع، بل لم أكن فوضويّة، لكنّي كنت أحبّ المجازفات الجنسيّة. سي الهادي يقول، كلا، العدوانيّة الجنسيّة. ثم يضيف ضاحكًا:

«أبو مكسيم زير نساء وأنت زيرة رجال أليس كذلك»؟

أبتسم ولا أردّ عليه. أتفنّن باكتشاف طرق وتنويعات في التحرّش الجنسي فأدخل الرهان أنا ونفسي على فلان أو علان.

الإفراط في الملاطفة والمداعبة الخفيّة السرّيّة وأنا أمصّ شفتي أو أسبل عيني. أنا التي أحدّد جدول أعمالي خارج جدول أعمال الشركة المتحدة وما وراء البحار. من نظرة واحدة للغير أقرّر أنّ ذلك المساء سيبدأ بداية لطيفة سارّة وغير تقليديّة فأردّد؛ وإذن، لن نقاوم ونجعل الخطوة القادمة تتأخّر كثيرًا. أتشهّى وأشتهي كما لو أنّ الذي أمامي هو الشيزبورغر. أصوّر شريكي هكذا بسوائل حارّة وهي تسيح على فمي فأدعها هكذا لكي يمصّها شريكي كلّها ولا أقول له انتظر. هكذا نمضي إلى الفراش، نبتكر في بعض الأحيان صلصة من عصير سنجابي اللون والشراكة التي بيننا تسمح بطرد أحدنا عن الآخر، فعلى السرير لا يوجد مثل أعلى وفي الأصل أنا لا أملك هذا المثل. كنت أحبّ أنوثتي، أحبّ الكشف عن محتويات المرأة التي أحملها. أن تكوني ذكرًا مثلهم، أي أن تكوني فوق الطاقة المقرّرة فيحدث ويصير المطلوب منّي كثيرًا فكيف عليّ أن أدفع جميع تلك الفواتير؟ مكلف جدًّا جدًّا أن أكون ذكرًا. كنّا نضحك بأكثر ممّا نملك من طاقات أنا وسي الهادي فأراه أمامي رجلاً يستيقظ فيه الجنس ولا ينام، هو مستيقظ على الدوام، هو ليس مثلي تمامًا، رقيقًا دافئًا كان، فقلت له مازحة: «أنا أفضل وأحبّ جزأك الأنثوي فهو يسهّل الأمور عليّ»؛ فقد كنت أقصى أحلامه وأنا ليس كذلك. أعرف حدوده وأردّد؛ سنبدأ هكذا وسوف نصل إلى هناك وبدون عذاب أو منغّصات ما ونعاود في اليوم التالي نضحك وننام، نتاءب بين لساني بعضنا للبعض الآخر، «ماذا يا سي الهادي! هيّا غادرني. لكنّه لا يفعل ولا يتحرّك في أيّ اتجاه ولا تسلّق الحائط

كالبهلوان كما كان يفعل، وفي الغالب كنت أشاهد شيئًا يلتمع بين جفنيه لكنّه لا ينزل، لا يستره ولا يجفّفه. أبواب عينيه دائمًا مفتوحة حين يدعني أستلقي بين سقفيهما وهدبيهما. كالسرير كانتا حين أدخلهما أعصر ماءهما وأدعه لا ينظر إلى أعلى أو أسفل، فأقول له، لا ترمش كثيرًا توقّف عن هذا، هيّا حدّق في عيني ولا تصدّق قطّ إذا ما كرّرت لك ذلك» فأشعر أنّ شواربه تختضّ ولحمه الطري يقشعر وسرواله المجعّد يهتزّ وطوله الفارع يبدأ بالاهتزاز، أمّا عرقه فيصبح غزيرًا جدًّا أراه من قفاه ومن أمام. كنت أمرض وأنا أنظر إليه فالشهوة الفادحة تمرض، وتوجع. أجهّز رغبتي وأرتّب كل شيء في رأسي وهو يتحدّث ويدخن، يشرب النبيذ الأحمر ويغنّي أغاني عبد الوهاب. كان له صوت عادي لكنّه يحفظ «عندما يأتي المساء» و«جفنه علّم الغزل» فأستشعره فورًا وهو يتلاطم فوقي. أستشعر البانيو وأبخرة العطور وأتحرّق شوقًا إلى أن أجلسه أمامي، أحلق ذقنه وأسوّي شواربه فأنا أفضّل حملة الشوارب، فهؤلاء يذكّرونني بمؤسّسات الجيش والبوليس وما عليّ إلاّ تسفيهها والضحك عليها. فما إن أختلي بواحد منهم حتّى أبدأ بقصقصة بعض الشعيرات البيضاء أو الصفراء أو الحمراء، الشعيرات الزائدة الفالتة، أخفّف غلواء الشوارب الكثّة، وكلّما أقطع جزءًا منها أشعر أنّ الذي أمامي لم يعد يشبه ما أبغي فأتركه مردّدة عليه أقوالي المأثورة؛ ألا ترى أنّني أستحقّ التضحيات كلّها. حتى الرجال الذين كنت أقابلهم في الحفلات الرسميّة والسفارات الأجنبيّة، والذين كانوا حليقي الشوارب، أنا وحدي من يضع لهم تلك الشعيرات الكثيبة وأتخيّل

كيف سيكونون بها ثم أبدأ بنتفها كما أشتهي.

عندما أدخل غرفة أبو العزّ أتوقّف أحيانًا عن التنفّس، أغمض عيني ويمتلئ كياني بأصوات، أتصوّر أنّ بعضهم بمقدوره سماعها، سي الهادي، الذي بدأ يسبّب لي الضجر، فأردّد:

«سأجد أحدهم الآن، هنا سيكون ذاك الرجل الذي أنتظره وإذا لم أعثر عليه وأنا في طريقي للغرفة الفسيحة أبلع ريقي وأواصل؛ سيحضر في آخر المطاف وسيتمّ الإيقاع به، سأعطيه فرصة، لم لا».

كنت أوصف بالسكرتيرة والمترجمة الاستثنائيّة التي تسدّ شواغر بضعة رجال ونساء. شيء ممتاز، هه؟ قابلت أبا مكسيم أوّل مرّة في الاحتفال السنوي الكبير لمرور أعوام ثلاثة على افتتاح الشركة. دخل وحيدًا وبدون حرسه فلم يعره أحد اهتمامًا. صدره متضخّم وعالٍ. سي الهادي قال بهدوء:

«إنّه يرتدي صدريّة داخليّة مضادّة للرصاص. حذار، إيّاك أن تطرحي عليه أيّة أسئلة. أصغي فقط وسجّلي الباقي في رأسك. أبو العزّ يفضّل رؤوسنا عامرة بالمعلومات وأوراقنا بيضاء».

فرجة ما بعدها، عروض مسرحيّة، بين هؤلاء وأولئك القوم، فوق الطاولات تجري صفقات بالملايين ولا تحتاج إلى الكثير من الخيال لكي يمكن استيعابها، ومن تحت يتمّ التفاهم بلا مشقّة على الباقي وهو أكثر ممّا يتصوّر. سي الهادي أطلق عليّ لقب صاحبة القلب الصخري، فأنا لا أشتكي، لا أتحسّر وأبتسم في

وجوه الغرباء بقيراط. صحيح أنّني أثب مثل النمرة وأمشي وراء مديرنا وأحسب عدد الكلمات التي سوف أكتبها في الخطاب الذي سيأخذه بيده أبو مكسيم لإحدى الدول الشرقيّة. أهزّ رأسي وأعرف أنّ أبا العزّ يملك نوعًا من الإيحاء بالثقة تجعل الناس تحضر للاتفاق معه بدون صعوبات تذكر. مؤكّد، هو يعرف بالفطرة والحدس، البعيد عن الروح العلميّة «هذا رأي سي الهادي به».

أبو العزّ يعرف البشر منذ النظرة الأولى لكنّه لا يذهب إلى الأقصى في هذا التعارف، ولهذا السبب كانت شركتنا من أكثر الشركات التي تبيع الأدوية لجميع الدول التي تعاني من الأوبئة والأمراض والكوارث البيئيّة والطبيعيّة والانقلابات العسكريّة والحظر الاقتصادي، فما إن أتطلّع في وجه أبي العزّ وأمامنا أحد المندوبين الكبار حتى أعرف أنّ بمقدوره ودائمًا التخفيف من مصاعب جمّة، لنا جميعًا وعلى الخصوص سي الهادي، الذي يسمّيه جنّي البحار والمحيطات والشركات متعدّدة الجنسيّات، فألمسه خلسة، أعصر أصابعه وكفّه، أتحسّس لحمه باللمس الأعمى فنشتعل كلانا. كانت لغة الهادي مُشَكّلَة بالضمّة والكسرة والفتحة، وحين يتحدّث يشبه فقهاء الجوامع الأوّلين وتخرج المفردات من بين أسنانه مسترخية مرتاحة كأنّه يكتبها أمامنا ويلفظها كما مذيعي الـ BBC. عندما قرّرت تركه فعليًا كانت وضعيّتي شديدة الصعوبة. كلا، ليس هو الإشفاق أبدًا فأنا لم أحبّه ما فيه الكفاية. والجنس معه يشبهه، هادئ ومريح. بدأت

احضنه، فشعرت أنّ عينيه مبتلّتان فبدأت أقبّلهما، بدأت بتقبيل جفنيه، أغلقتهما بلساني ولثمتهما برقّة. لثم العيون المغلقة طيّب جدًّا كأنّك تنفث بخّاخًا من أنفاسك. قبلة العيون يداخلها شيء من كآبة شفيفة وشفقة ما تحمل شيئًا كما كان يردّد أبو العزّ من الرفاقيّة التي ولّى عهدها. هي أقلّ من الحنان الصباحي وأبعد ما تكون عن الاكتواء بالإيروسيّة كما حصل مع ابن برهان الدين العراقي. فأطلق عليّ أبو العزّ وأمام أبي مكسيم اسم «امرأة الوداعات وبلا رجعة»؛ ولمّا قابلني أبو العزّ أكمل عليّ وهو منكّس الرأس:

«تودّعين بالذراعين والقدمين، بما يصادفك من أدوات وآلات وما يجاورك من آنيات للزهور. أذكر كيف ودّعت عائلتك حين تركت لهم تلك القصاصة: «الوداع نعمة الآلهة واللقاء مكياج البشر»».

كنت أترجم كما أتلمّظ قبلة ولعاب شريكي. الترجمة تدعني أتملّص من تبجّح شهواتي الرهيبة، فإذا لم أنم مع من أشتهي وقت ما أشتهي فأترجم أشياء غير صحيحة ولا دقيقة. أكذب وأراوغ وأتنصّل ممّا بين يدي، تصير تراجمي هي مصائبي والنصوص تلك أقابلها بنظرة استنكاف. فيمازحني أبو العزّ قائلاً بلهجته الفلسطينيّة المطعّمة باللبنانيّة:

«ويلي ويلي، رايحة تشتغلي بالترجمة لو رايحة تعيدي تركيب البشر؟ ولك شو خصّنا بالسيّد أبو مكسيم؟ ولك أي بيّك ع راسي وأني وعدته أدخلك صفوف الشغّيلة هون بلندن مش بباريس اللي

بتموتي فيها. ولك آني كمان بحبّها أكثر من لندن. شو محسبه إني بحبّ هالمدينة، لندن، أيّ لا. ولك باريس هو اسم مستعار، اسم سابق، اسم حركي مثل اسم أبو مكسيم اللي ما حدا يعرف اسمه الصحيح. باعرف أنّك ما حبّيتي لندن، بس مين بيقدر يبوح باسم باريس الأصلي؟ أي آني بحبّها منشان حالي مش منشانها، مشان الموت بلكي يصير شويّة حنون أكثر من الدنيا. ولي طلّعت المواجع. يالله بلا طول سيرة انضبّي واشتغلي بس لا تسألي على أبو مكسيم، خلّيك صاحية للسيّد سرمد فهو أصعب وأخطر من أبو مكسيم».

«ليش».

«بعدين بعدين».

«ما عليك من سرمد، دعه لي كرجل واشتغل معه في البزنيس، ها، اتفقنا. بس اسمع، أبو مكسيم يثير فضولي بصورة لا تتصوّرها فأتصوّره يقدر أن يدحرج رؤوسًا كثيرة وفي أوقات قياسيّة وليس بيده وبدون شفقة تذكر. يبدو حقودًا وحقده ذو طابع تأسيسي؛ ونقول إنّه متفرّد. ما يشعر به أقوى من البغض وضدّ الكثير من الأشخاص والأفكار والأنظمة. ومن طول ما تزدحم به الأحقاد فهو لا يقدر أن يوجّه الكلام إلى أيّ أحد إلاّ وينفضح تمامًا، هذا مجرّد انطباع بعد كذا جلسة معه».

«ولك يا عمّي من وين بتجيبي هالأفكار؟ بتفهمي عليّ من قبل ما أفتح تمّي شو بدّك أكثر من هيك. عم تمزحي ما؟ ولك كيف باللحظة المناسبة تضربين القواعد كلها، ها؟ روحي الله يحميك».

باسني من يدي ثم رفع وجهي إليه وقبّلني من جبيني. ربت على كتفي ولمس شعري المضفور ضفيرة واحدة من أجل ابن برهان الدين لكي أتشبّه بحبيبته «ألف»:

«عم تضفري شعراتك بضفيرة شو راح يفتكروك مشبشبة، اصحي عمّو بعد كم شهر سنحتفل بميلادك الثلاثين. أي بيّك خبّرني بسنك الحقيقي».

كنت أتصوّر أنّ العاطفة العقليّة هي التي تربطنا أنا وأبو العزّ لكن سي الهادي قال لي في أحد الأيّام خلاف ذلك:

«إنّ المدير لم يتوقّف عن اشتهائك».

أصير لجوجة جدًّا بسؤالي عن أبي مكسيم، حتى قبل فضيحته الكبرى مع الشركة وسرقة صفقات مهولة من الأدوية وبيعها بأسعار فلكيّة لشمال بلده وجنوبه، ثم فراره من الدخول إلى أراضي المملكة المتحدة بعدما رفعت الشكاوى وكبرت الإضبارة ضدّه، فترك عقاره الفخم في قرية مارلو المطلّة على النهر والتي كانت يقدّر ثمنها بنصف مليون جنيه إسترليني خصوصًا أنّها كانت تتمتّع بحقوق المرسى النهري. لقد عَزَمنا في اللقاء الثاني من التعارف إلى الفيللا النهريّة فجلسنا في الحديقة الواسعة، وكانت روائح الشواء تهبّ علينا فتستثير لدينا شهوات متناقضة ما بين الأكل والمضاجعة والنزول إلى النهر بملابس قليلة، ثم الصعود إلى الطابق الأعلى والجلوس في الشرفة والتفرّج على النهر والطيور التي كانت تحلّق وتحطّ أمامنا قبل أن يدعونا صاحب الفيلا للتفرّج على السبع عشرة غرفة محدّقًا في وجهي بالدرجة

الأولى مردّدًا: «لك ما تشائين من الغرف لقضاء ما تشائين من الليالي والنهارات أيضًا» كنت أضحك وأبو العزّ ينظر إليّ مواربة ولا أردّ عليه فقد كان به شيء يستفزّ شروري ويستثير أذيّتي. حاول أن يكون مجاملاً وحذرًا أمام أبي العزّ الذي يتململ ثم يتراجع إلى وراء ويتحدّث بعدما يسعل ويتنحنح قائلاً شيئًا لا علاقة له بما كان يدور حولنا:

«أبو مكسيم يقدر التحدّث بجميع اللهجات العربيّة على الخصوص السوريّة واللبنانيّة والفلسطينيّة، أمّا عراقيّته فهي لا تظهر إلاّ في اللاوعي، أليس كذلك يا رفيق»؟

فيما بعد، وبعدما نصير في عربة أبي العزّ يواصل بدون سؤاله أصلاً: «لا أعرف اسمه، كنّا نناديه هكذا» يقول إنّه لم يحبّ كاتبًا في حياته قدر مكسيم غوركي. أي، هو يحبّ الأسماء الحركيّة، يفضّلها ويختبئ وراءها. يقال إنّ اسمه الأوّل هو أبو فهد، ذاك المناضل الشيوعي الحبيب إلى قلبه، فيردّد: إنّ الفهد أجمل من النمر وأكثر رشاقة من الأسد. ويضيف وهو يسخر من خدع الفهد النموذجيّة. يا ستّي لا أحد يعرف ابو مكسيم منيح. مبلى، آني أعرفه في الجلسة، في السهرة، في السفرة من بيروت لدمشق. لكن ولا مرّة التقيت به وكان هو نفسه في المرّة السابقة. شلون بدّي فهمك. هو غير شكل، مش يعني أحسن ولا أسوأ. غير شكل، يفرغ ويتعبّأ بالشكّ بالدقيقة الواحدة فنحتار أكثر. ولك تقبريني، هلك شو خصّنا بالسوابق كلّها. أي هو شيوعي سابق، هو يحبّ يكون سابق وسبّاقًا لأيّ شيء. ولمّا كنّا نمزح معه

ونحن في شقّته في كورنيش المزرعة ببيروت كان يردد: «الشيوعي لا يمكن أن يشفى من الشيوعيّة. لا، هي ليست مرضًا لكنّها على الدوام تحتاج إلى طبيب واختصاصي للكشف عن أعدائها وخصومها. يمكن، يضيف أبو مكسيم؛ يمكن الحساسيّة مرتفعة لديهم وهذه خصلة لا يحبّها أعداء الشيوعيين، لكنّ الصداع النصفي، صداع نصف الكرة الأرضيّة خلص ونحن لم نشف. أي أبو العزّ الزيت خلص وانطفأ المصباح وصرنا يتامى يا صاحبي. كان هناك أمل أن تقدر الشيوعيّة أن تقدّم لنا نظامًا يحقّق العدالة والحرّيّة للبشريّة. أجل، اليوم أقول هذا أمامك وأمام نفسي لكن ذلك لم يحصل لا في أرض الاتحاد السوفييتي ولا في جمهورياته، أمّا عندنا نحن الأحزاب الشيوعيّة فقد انهزمنا تمامًا ودخلنا في العزلة.. آه، لا تسألني عن الأخطاء، ستقول كوارث، ربما. نقدر اليوم على ترديد ذلك، أن نقول ذاك كان خطأ وهذا كان صحيحًا ولكن، بذاك الوقت تيتّمتُ وفكّرتُ يمكن لازم نبحث عن أب جديد».

«وهل وجده؟ لا تصير بخيلاً ربّي يخليك».

«ولك يا عيوني هو راح يجي للشركة كتير وراح تشوفيه، ولك شو لتكوني مغرومة، ومسيو سرمد وسي الهادي بعد ما نشف دمع عيونه. ولك شو بدّي اخبرك، بس، أوعي هيدا مش تعبان أو شيطان هيدا أخطر. بس للأمانة، حين كان يتحدّث عن الشيوعيّة كان يصير رجلاً آخر، يتمنّى لو يقدر على هزيمة خسارته هو بالذات. يمكن، هو كفر بأشياء كثيرة فبدأ يعمل في الصفقات

التجاريّة. يتاجر في جميع ما يخطر على البال. كان فنّانًا في اكتشاف ما يمكن بيعه وشراؤه؛ ثياب ورق أدوية أجهزة كهربائيّة ساعات دخان وأسلحة، سمعت هذا من مستر سرمد، قال ذلك عرضًا ولم يتوقّف طويلاً عند هذه المعلومة وكأنّه متأكّد منها. صار ينظّر للرأسماليّة نظرة جديدة، شوفي أدّيش صار له أتباع ومكاتب ووكلاء».

«الك لا لوين رحت كتبالغ عاد. غير حرك فضولي وكما تقولوا عندكم حشريّتي. يعني كنحب الناس اللي يضعون حجابًا وقناعًا إيه باتسلى. هؤلاء البشر أمورهم مرتّبة شويّة، عندهم قواعد، أسماء مستعارة، حياة سرّيّة، مواد حارقة وملفّات سميكة وربما خطيرة وحياة جنسيّة ربما ليست سويّة. أتصوّره يستيقظ ليلاً وهو يصرخ من الخوف والكوابيس وعلاقته بالمرأة مهزوزة لأنّه يحتقرها لكنّه يستقلّ بالحصول عليها».

كلّما أراه كنت أتذكّر الرقيق الأبيض، المقايضة، الابتزاز، المكائد، آه، هو منجم ذهب، لهجته عراقيّة إيرانيّة وشغوف بالأكلات الشمّيّة في كواليسنا الخلفيّة كانوا يطلقون على هذا السيّد الملتبس الشيوعي المتأمرك، لكن هذه الصفات تتوالى عليه وأنا كلّما تزداد النعوت يزداد تفرّغي إليه. كانوا يعلّقون بصوت مرتفع وهم يضحكون قائلين:

كلا هو الآن لا يخفي إعجابه بالليبراليين وإنّ أكبر نصر حقّقه حين اصطفّ بجوار اليمين مبديًا إعجابه بالليدي تاتشر وحين يردّ عليه أبو العزّ أنّ ما تنادي به هذه السيّدة هو الرأسماليّة المتوحّشة

والاستغلال وعودة الاستعمار الجديد، كان يمسك ذقنه بيده ولا يردّ بصورة مباشرة لكنّه فيما بعد يقول:

«ينبغي أن يتغيّر مفهوم العدوّ. ينبغي أن لا نكون صارمين في هذه النقطة بالذات. ليس من الضروري أن يكون لدينا عدوّ أو أعداء كالسابق كما كنّا نهتف ونردّد ونستدلّ على الطريق ذاك الأوّل القديم، خلص». .

في الشتاء عندما يحضر كنّا نراه ببذلة كاملة وتحت السترة بلوفر من الكشمير الغالي جدًّا وفوق رأسه قبّعة من الصوف الإنكليزي الفاخر وفوق ذلك المعطف الأسود من أرقى أنواع الأصواف الاسكتلنديّة، وفوق هذا وذاك كانت عويناته الطبّيّة قد استبدلت بنظّارة ذات عدسات سوداء فنعلّق ونحن نراه داخلاً أنّه يشبه جواسيس بداية القرن، ورائحته لا نعرف أيّ الماركات التي يفضّلها، الفرنسيّة أو الأميركيّة. لكن أبو العزّ يتمازح قائلاً:

«لا، هو يفضّل الزيوت الفارسيّة الأصليّة يحملها في علبة خاصّة وأحيانًا يهديها لمن يغرم به أو يعشق».

أمّا في الصيف فقد كانت عضلاته وطيّات بطنه تتوضّح أمامنا حين نراه يرتدي قميصًا رياضيًّا أصفر ليمونيًّا ذا ياقة رقيقة وأزرار مخفيّة. وما إن ينزل بصري إلى تحت وأنا أسلّم عليه وهو يمدّ يده وكان هذا من الأمور الطبيعيّة في الشركة، أعني النظر إلى أسفل حتى أكاد يعلم الله أنّني أتعمّد ذلك. أرسل النظر إلى ما بين فخذيه تمامًا وطوال الأيّام والشهور التي تتوالى وتتراكم علينا. كان سروال البلوجينز يزداد ضيقًا يومًا بعد آخر فتبدو

أعضاؤه نافرة بعدما حشرها ما بين الإبزيم واللباس الداخلي فأراها مضخّمة وفي أغلب الأحيان على وشك الانتعاظ والقذف. في أحد الأيّام شاهدت كلمة الفصل، لطخة بيضاء، هناك، في بقعة ما في البنطلون، بقعة تحوّلت إلى لون وجعلت نسيج القماش يتغيّر ويتحلّل بياضها إلى شيء كالدمغة بلون رمادي فاتح وصارت واضحة في منتصفه أكثر ممّا ينبغي.

أبو العزّ له تجارة وأشغال وأرباح وفوائد وفواتير ومضاربات وتسويق وبيع أكثر من الشراء وأشياء تفسّر نفسها بنفسها لكن أبو العزّ يطلق ضحكة مجلجلة في أحد الأيّام، يضحك بصوت يصل إلى غرف الموظّفين الآخرين وهو ينفش صدره أمامي كالديك، يصير أبو العزّ آلة لضخّ الضحك القاسي والمويد، يمسح عرقه وعينيه وينظر إليّ:

«والله لو خبّرتك الخبريّة لمت من القهر والضحك معًا».

لم أستفزّه بالأسئلة فقط كنت أنظر إليه بطريقة بها توسّل وتضرّع ولكن بهزء أيضًا. فقال كأنّني جميع ما بقي له:

«حين قلت عنه إنّه حقود استغربتُ كيف عرفت، لكنّه هو هكذا فعلاً. في أحد الأيّام ومن حقده الشديد على أحدهم وكان صديقه الذي بزّه في الأعمال التجاريّة والغراميّة ويعيش في بيروت وبعد ملاسنات قاسية جدًا وصلت أصداؤها إلى مديّات خطيرة قرّر غواية زوجته. نصب لها الأفخاخ أينما تظهر. لوّح لها بالهدايا والنقود والنفوذ والسفر والمجوهرات. أغرقها بكل ما يخطر ببالك لكي ينتقم من زوجها بشخصها. فصار له ما أراد

معها. دعاها لقضاء ثلاث ليالٍ في إحدى الجزر الإسبانيّة وهناك صورها في جميع الأوضاع وأطلق شهواته إلى الأقصى. في أحد الأيّام غادر الفندق دون أن يدفع الحساب حتى. وضع الصور في مظروف سميك وأرسلها إلى الزوج. انتظر يومًا، ثلاثة، أسبوعًا ولا ردّة فعل واحدة: وحين عرض عليّ الصور وسرد لي القصّة أطلقتُ صوتي بالضحك كما لو كنتُ مجنونًا وأنا أشفق عليه وأضرب كفًّا بكفّ:

«لك عيني أبو مكسيم الورد، لك أنت نكت سكرتيرة عدوّك، أمّا زوجته فقد توفّيت منذ شهور بمرض غريب». استبدّ به غضب فاجر، بدأ يضرب الطاولة وعلا صوته بالشتائم لا على أحد معيّن. «لك يا ستي هيدا أبو مكسيم ولك يا تقبريني. هلّق خلصنا؟ خلّينا عاد نتفرّغ لشغلنا. متى سنلتقين مستر سرمد يا تقبريني»؟

* * *

تقول كينا بحياء جميل دون أن توجّه الكلام رأسًا إليّ، تضحك وتقول:

«لديك شيء من الانتهازيّة الجنسيّة، أي تمامًا لديك مثل هذا الطبع، إنّه ليس مرضًا خطيرًا ويحتاج إلى اختصاصي، هو، ربّما موهبة ولم لا. وحين أسمعك تقول عن نفسك إنّك برجوازي ونرجسي، نفور ومتطيّر ولك قابليّة الاستغناء والتخلّي بعدما رفضت الزواج بسبب السيّدة ألف. لكنّي لا أوافقك أبدًا حين تقول إنّك أدرت ظهرك لبلدك، وأنت تسمع بعضهم يردّد، هنا في لندن، أنّ بغداد سوف تتحوّل إلى موقف للسيّارات فقط. كنّا نعرف، بصورة صحيحة تمامًا، أنّ الغرب والشرق دمّرا بلدك فكنت تفتي عليّ بصوت ممرور، ربما، البلد يغري بالتدمير أليس كذلك»؟

ربما هذا صحيح! فنحن لا نعرف كيف يرانا الآخرون ولا أعرف ردود أفعال يدي اليمنى في الأكل والمداعبات الجنسيّة، في الكتابة وتقليب الصفحات، في الكومبيوتر والقواميس وفتح إبزيم السروال وإظهار ما بقي من ذكري لكي أتبوّل به على ما بقي منّي ومنه. لا أذكر أنّني استخدمتُ يدي اليسرى في أيّ احتفال حميميّ أو ثقافي، نعم، هي تساعد وتعين اليد اليمنى لكنّها لم

تحقّق نجاحًا مماثلاً لها، تصافح، تصفّق وتستثمر بعض الإيقاعات والحركات أيضًا. وقتذاك، كان بمقدوري ربط شبابي وجفاف عمري ومرارة حلقي بمخطوطات اليسار والأيدي الطلقة المرفوعة في الهواء علامة العنفوان والقوّة، فأقدّر حسناتها وتطرّفها رغم اليأس من اليسار ذاته. أقف ساعات طويلة، أصدّ عنه بالمناكب والهتاف والكتابات والمنشورات المتعجّلة والعجولة، وقتها تستنفر غددي اليساريّة فأرى الأشياء بأكثر العيون مثاليّة ودونكيشوتيّة ربّما، أرى أيّ نظام، بل كل نظام ما عداه نظامًا خرائيًّا.

بدون انقطاع ظلّ اليسار فردوسيًّا، نفحة من العدالة والنبالة والتشاؤميّة أيضًا، ولم لا، لكنّه ظلّ عندي هو الجمال، وأنا من فرط جنوني، أريد وأحبّ الجمال أكثر من العدالة، الجمال نفسه عدالة. إيماني شحيح وكلّما أنتقل من رتبة يبدأ الخواء يتضاعف من حولي. أمّا النساء فكنّ على الضدّ منّي، كان لديهنّ إيمان بشيء غير مرئي لا أعرف ما هو، قد يكون الأنثويّة التي كانت في نظري وأنا أسمع كيتا تتحدّث تعادل اليسار ذاته عندما قلت لها بعد ذلك إنّني لم أتقبّل فكرًا آخر غيره، لكنّني رفضت وطوال سني عمري التنظيم والتدرّج والتراتبيّة والسلوك البيروقراطي البائس. جاءت على ذكر أخي مهنّد وبتوجّس بعيد، سألتْ أسئلة بها انطباعات عائليّة، كأن تقول؛ ها أليس لك أخوات، ها.. ولكن كم شقيقًا لديك؟ هل لازال الجميع يعيش في بغداد؟ ها.. ترى من يشبهك أكثر؟ وما شاكل ذلك.

* * *

أخي مهنّد يطلق صفّارته العالية في أذني حين يحدّثني عن مناوراته ومغامراته وهو يقوم برحلاته الموسميّة إلى الاتحاد السوفيتي وألمانيا الشرقيّة وباقي دول المنظومة الاشتراكيّة. أظنّ كان يستكمل تدريباته الاستخباراتيّة التي لها أوّل وليس لها آخر. كانت حرفته الأصليّة النفس البشريّة، على الخصوص للنساء ذوات الحساسيّة والرهافة والبشرات الحريريّة التي يفرط في إيراد أوصافها وصوته يلعلع بالهاتف وهو في موسكو:

«لك عيني سرمد لو تجيء فدوة أروح لعيونك. والله كل شيء على حسابنا. أقسم لك الكحبات هنا أوقح من كحبات أيّ مكان بالعالم. لك عيني حللنا الأمور على مهل وأرجعنا الأوضاع إلى الماركسيّة اللينينيّة».

يطلق ضحكة مجلجلة تخرش أذني فأبعد السماعة لكنّه يواصل:

«وينك، وين رحت؟ سرمد اسمع، أيّ قابل سبينا العنب الأسود. أي تعال وشوف بعينك والله ما أدري شنو السبب، ها، بلكي تعرفه أنت باعتبارك صاحب المزاج اليساري لو الماركسي. يمكن الكحبة هنا تريد أن تتفوّق بهذا الجزء من جسمها، تريد

استعماله كما تشاء هي مو النظام. لا أدري، فبقدر ما ترتعب من أجهزة الدولة والمخابرات بقدر ما يكون فحشها صاعقًا فتبدو شهواتها تدميريّة كأنّها تضاجع ضدًّا للنظام، ضدًّا لكل شيء بكل ذاك العنف الذي يطلع منها على شريكها. مو هذا الذي يمكن أن تقوله سرمد أفندي»؟

حين كان يناقشني وبهذه الصورة السافرة والساخرة كنت أتصوّره أبا مكسيم. هما نموذجان يتشابهان وأحيانًا يتطابقان في مثل هذه المواضيع، فصيحان قاسيان شديدا العنف والإفساد. مهنّد يلاحقني ما بين لندن والمغرب، فلم أكن بعد قرّرتُ الاستقرار وأين. فهو يعرف وفي أغلب الأحيان أين أكون، عيونه تبثّ عليّ جواسيسه وأنا أنتقل بين الأمكنة. أحيانًا لا أردّ على هاتفه حين أرى أرقامه الدوليّة ومرّات لا تظهر الأرقام قطّ فأرفع السمّاعة وأسمع ضحكة مسمومة وهو يشتمني وأجدادي حين يحدس أنّني موجود لكنّي لا أجيب. أسمعه فيما بعد وهو يذكر اسمه الحركي وأسماء من يعملون معه أو من حضر للالتقاء بهم ويردّد وسط كل ذلك بعض الأسماء الحقيقيّة. يضعها في منتصف الكلام كنوع من الأقنعة. مهنّد مسقط رأسه الغموض والخيال وهذا أمر، ربما، لا يستقيم مع عمله كثيرًا، لا أدري تمامًا. لم يتخلّ عن ذينك الأمرين أبدًا. كانت شهوته للنفوذ والسلطة قادرة على تحويل الكثير من البشر ومن جميع الإيديولوجيّات إلى صفّه، بالترويع والإغراء وبالتالي تحويلهم إلى بقّاشين ودمويين أكثر منه. ظلّ يتفوّه بألفاظ عصبيّة وعلى هذه الشاكلة:

«ستبقى غشيمًا ولن تتعلّم لا من الماضي ولا من الحاضر. اسمع سوف تقرأ في إحدى السنين أسماء أصحاب الرواتب المرتفعة ومن جميع الفئات والأحزاب كما تقول. احتفظ بجميع ما أرسله إليك من وثائق وأفلام وأشرطة ومكاتيب. أعرف أنّني ذاهب إلى حتفي. لم أكن خيّرًا أو طيّبًا فأنا لا أحبّ الأخيار والطيّبين ولا روحي كانت تريد الخلاص من أيّ أحد أو شيء. اسمع لا أريد رأفتك ولا مواساتك. أي، هسه خلّينا نشرب في صحّة الخراء الوطني والمرحلة الإمتيّة. أي، سرمد، تتضايق من كلمة خراء، عال، سنحسّنها بلفظة ثانية متحذلقة شويّة. الغائط لا يثير الحمية ولا يجدّد الذّات ولذلك لا نقدر على استعادة كل شيء إلاّ به والتحكّم بمعناه العادي والتقليدي. اسمع، خراء عليك وعلى «ألف» التي كانت تضاجعني وهي تحلم بك فوقها وأنا أعرف ذلك، ولا نحتاج لا هي ولا أنا إلى أيّ إثبات ولكنّي أبقى داخلاً فيها، ليس بقوّة الرغبة واللذّة وإنّما بشروط العداوة والبغض الذي يركبني وأنا أركبها. لا تشفيًا بك وبالوالدين وبماكنة الخياطة وثياب الجنرالات والنياشين وجميع الملابس التي كنّا نرسلها إليك فتستخدمها وتغيّرها وتتبرّع بها فيما بعد للصليب الأحمر وجامع لندن، لكنّك لا تستنكف منها ولا منّا ولا من فلوسنا. أبول عليك وعلى رائحتك الخاصّة التي كنت أشمّها في عرق وإبط «ألف»، في لباسها الداخلي وهي تنزعه أمامي وفي تلك الأصوات التي لا تطلع من جوفها أبدًا فلا تغلط وهي تحسب عدد المرّات التي ضاجعتها. لك سرمد، وينك تسمعني، اللعنة عليك وعلى الساعة التي سمّيتك بها سرمد تيمّنًا

باسم صديقي الذي هرسته عربة مسرعة وقبل ولادتك. اسمع أدري أنّ «ألف» كانت ولا زالت ترسل إليك أشرطة بصوتها تنقل أخبارنا، فكنت أعبّر كل ما أريد عبوره وعلى مزاجي وكيفي وادعها تعتقد أنّها تخدعني، لا تنسَ يا ابن أمّي وأبي، أنا الذي أرتّب الخديعة. سرمد، «ألف» صارت خردة وأنت أيضًا. . أمّا أنا، فأنا أضعف مخلوق على وجه البسيطة. أي سلوكي يقرف، التسجيلات عادة تافهة وقديمة جدًّا وهي لا تفي بالغرض لكنّها على مقاسك ومقاسهم. لا تتأفّف كثيرًا فلديّ تسجيلات لك و«الألف» وأنتما بلندن في غرفة نومك وفي الفندق. للبيضاويّة وهي تصبغ شواربك وتحمّمك مثل حيوان رخوي لا تهشّ ولا تنش. لكيتا وأنتما بالحمّام سويًا وأنفاسك الرقيقة تمسحها من على الزجاج لكي ترى وجهيكما بالمرآة المغبّشة بفعل الندى والبخار. صوركما وأنتما تسيران في شارع Friedrichstrasse ما بين شطري المدينة التي توحّدت في برلين وكيتا تقاسي أكثر منك لكنّك لا تدري لماذا؟ أنا الذي سيقول لك ذلك الآن؛ كانت لا تزال على علاقة مهلكة مع أحد العراقيين اليساريين المنفيين في برلين، نسيم جلال، ذاك الهارب منّي بعد نسف سفارتنا ببيروت. هو الذي أذاقها الموت وما كانت تريد الاعتراف بذلك أمامك وأنت لا تتعلّم أو تفهم كفاية، لا. . كفاية يا أخي، لا الجنس يكفي ولا الكحبات ولا الفلوس ولا القتل الذي لا يخلص، ولا ذاك الجاه الخرائي. لك سرمد حتى الموت لا يكفي».

أبقى صامتًا وعرقي ينضح من صدغيّ نازلاً إلى رقبتي

وصدري، كان غزيرًا تحت إبطي وينتشر في كل بدني وكأنّه يغسل في طريقه الغضب:

«اسمع بلا ونونة، ما أريد أيّ صراخ أو شتائم، أمّك توفيت منذ»...

لم أسمع الباقي، ولا أغلقت الهاتف. تركت السمّاعة على الكنبة وشعرت، أيّة محنة أن يكون لي مثل هذا الأخ، وبمن التعويض حين تكون الحياة خالية من الأخوة أيضًا؟ أقف وأمشي ثم أجلس وأقوم وأقف. أستدير وأدور ما بين الغرف والحمّام والتواليت. كنت أتمنّى لو كان بمقدوري ضربه وبصورة مكشوفة، أذيع أسراره على الملأ وأرشد عليه بأفضل الطرق؛ بالبحوث الخاصّة بالعملاء المرضى والشهويين المثاليين. فأقدر أن أقوم أمامه وأنا أقول له هيّا، يا مهنّد، انتظر، لن تصل الدوريّة وتأخذك قبل أن أراك وأنت ترفع كفني وتابوتي وتريد لي شيئًا من الخير. أجل، الخير، هو الموت بتلك الكيفيّة التي كانت من اختصاصه، كلّنا صرنا من اختصاصه فأتجاسر وأبدأ بضربه وأتعارك معه حتى يلفّنا الظلام التامّ. كنت أحبّ كهولتي لو بلغتها ونحن نتقاذف بالكلمات، مجرّد تبادل الكلام العادي التافه وغير المخطّط له. مجرّد أن أستلقي وهو بجواري على السرير المقابل، صافن وأنا أعبّئ البايب بالتبغ، آخذ المجّة الأولى ويصعد إلى رأسي كل ما يمكن أن أتذكّره ونحن سويًا، فأشعر أنّه لا يتبادل الابتسامات معي ولا تتلاقى عيوننا، لا يراقبني كما يراقب عملاءه ولا يسأل لكنّي أشعر بطريقة من الطرق أنّه مشبوب

العاطفة. هه، هكذا، كنت أريد أن أثق به، نلعب الورق سويًا وأكشف أدواته التي يلعب بها ويكتشف أنّني لا أغشّ، على الأقل أمامه.

كنت أحبّ الوصول إلى كهولتي ونحن متجاوران في غرفة أو مسكن، فندق أو مدينة واحدة. كنت أريد ألاّ يرمش جفني وينشف ريقي وأنا أحاول أن ألعنه وأشتمه. أسمّيه بكل الأسماء السافلة ويناوشني هو أيضًا فنتضارب بالأيدي، نتمازح والضرب يتضاعف. نصير شديدي العصبيّة وأذرعنا تتلاوى لكنّنا فجأة، نسقط بين أذرع بعضنا بعضًا. أنا لا أكفّ عن ضربه حتى تثقل يداي وهو لا يتفادى لكماتي. يتمرّغ وجهانا فلا نرى بعضنا تمامًا ونتوقّف عن الاهتزاز. عندما يسكّن صدري بين يديه ويربت على كتفي، يكرّر تلك الحركات غير المجعولة وتقارب عيناي الانتحاب فأنغمس فيه وأشعر بالعجز التام عن المقاومة. وأردّد لنفسي: من الجائز، أنّ مهنّد يمزح في جميع تلك الجرائم، التي أعرف ولا أعرف، ولكن، عجبًا! إنّه لم يكن مرحًا، لا أتذكّر أنّني سمعت ضحكاته، أصلاً هو لا يمتلك تلك المواهب.

«قبل عام ١٦٨٨ لم توجد النوستالجيا. كان الناس يشعرون بالحزن ويفكّرون بالوطن. لكن في عام ١٦٨٨ اخترع جوهانس هوفر وهو طبيب سويسري الكلمة. لم يكن ما كان يشعر به نفسه، لكنّها كانت مرضًا لاحظه في الجنود الموجودين بعيدًا عن الوطن، العلقات والأفيون هي الدواء، وإذا ما فشلت العودة إلى الألب ومن ثم، كان الحنين إلى الوطن، عَرَض النوستالجيا.

الطريقة التي شعرتْ بها معدتك في تلك الليلة الأولى، في معسكر صيفي، برغم أنّه لو بكيت بكاء حارًّا سوف تضطر إلى أن ترحل وفيما بعد. ربما وجدت نفسك تفكّر، أنّهم لابد يسبحون الآن، يتناولون الغداء، وتشعر بالحزن بطريقة مختلفة. تخيّل كم عدد الأماكن التي لا يمكنك أن تعود إليها، شدّ ما يؤلم أن تريد ما فقدته، جميع تلك الأيّام، الأيّام التي تركتْ صورها الضبابيّة في ذهنك ورائحة غرف معيّنة. الضوء يتخلّل الأشجار في ساعات معيّنة، الوقت السابق. لأوّل مرّة شعرت به ليس مثل جميع السنوات السابقة، عندما كان لا أحد لديه الكلمة الصحيحة ليرجع إليها». . وقتها ترجمت هذه السطور للشاعر لورانس راب. لكنّي وأنا أعيد تلاوتها بدأت بتقطيع الأوراق المترجمة والتغوّط عليها، أردت نسيانها وأنا أسحب الماء لكي يخفيها إلى آخر بالوعة في العالم. أبدو أكثر واقعيّة ممّا أتمتّع به عادة لكنّني كنت أكذب وأراوغ، ثم لم أعد أهتم وأنا أترحّل من مدينة إلى أخرى. أوّل ما وصلت لندن جرّبت مخدر Crack. اشتريت عشر غرامات من هذا المخدر الصافي بنسبة ٩٠ بالمائة. لقد قرأت عنه قبل أن أصل إلى هناك، فقد أحدث منذ الثمانينات ثورة في سوق المخدّرات نظرًا لأنّه يمكن اقتناؤه بثمن متواضع وبكميّات صغيرة ذات جودة فائقة بالطبع، قال أحدهم بصوت خفيض وأجشّ، ذلك الشابّ الآسيوي:

«آه، أجل هذا مخدّر مشتقّ من الكوكايين ويمكن تدخينه».

«وتأثيره. . .».

«خذه، هل هي المرّة الأولى؟ هه. . . ».

تساءل بسخرية. لم أشأ الردّ لكنّه واصل حين شعر أنّني قد أستفز:

«هذا المخدر قوي يؤثّر على العقل في مدّة ست ثوان فقط. ويحدث لديك إحساس يشبه شرارة».

تدخّل مهنّد بطرق خفيّة لكي لا تفسد حياتي وتنهار قواي العقليّة. أبرك على درجات السلم والجفاف يتضاعف في حلقي، من يجلب لي الآن ذاك المخدّر؟ كنت أدري بطريقة غامضة أنّه سيحميني وبطرق فجّة جدًّا، هل جاء دوره أم سيفلت كالعادة؟ اليوم صوته كان يعلن العكس. لا أعرف ما هي رتبته ولم أسأل هل هو عميل أم ضابط استخبارات أم هو مجرّد جاسوس رثّ وقاتل؟ لا أعرف بالدقّة تلك الفروقات اللوجستيّة والحرفيّة والإداريّة، هل عمله توظيف المخبرين ومن جميع الفرق والملل والأعراق والطوائف والأديان، أم أنّ من واجبه استقطاب الجواسيس وتحويل ما يجمعونه ويحصلون عليه من معلومات إلى المحلّلين والخبراء؟ «فمن الطبيعي أنّ كل دولة، ودولته واحدة من هذه الدول تصوّر عملاءها كأشخاص نبلاء ذوي خلق رفيع معارض للاستبداد على خلاف حقيقتهم كمحترفي ابتزاز ونصب كمائن للإيقاع بالأبرياء ومصابين بأمراض عصبيّة، شرهين وانتهازيين، طبعًا يعملون مقابل المال أو الإيديولوجيّة أو الاثنين معًا، ولو أدّى عملهم إلى الإيقاع بأبرياء».

مهنّد ابن أمّي وأبي، الإخباري الخبير الذي كان قادرًا على

الاقتراب من الأبرياء والقتلة واللصوص والعاهرات واللواطيين، قريب بحيث يلمحونه في مناماتهم أو يتعرّفون عليه في غرف نومهم، فحمل اسمه معاني شتّى وحمّل أصحابه الكثير من أهوائه وجنونه وعصابيّته الإجراميّة، حتى والدنا، أشهر خيّاط في شارع الرشيد بعدما انتقل من الوزيريّة أجّج فيه شهوات النفوذ والنقود والفتيات اللاتي لا تتجاوز أعمارهنّ العشرين. كان يدفع بهنّ فرادى وجماعات، فكانت سلطة الاثنين تتضارب وتتضاعف ما بين من يخيّط البدلات العسكريّة ومن يشدّ ويثبت ويلمّع أصنافًا من النجوم والنياشين على صدور وأكتاف أصحاب الأنياب الحادّة والمخالب المدبّبة والأنفاس النتنة، هكذا كان يصفهم وهو يهاتفني من حين لآخر. تطوّرت الأمور بالنسبة إليّ حين شاهدت علامة برهان الدين على بطانة البدلات الموصى عليها والتي بقيت تُرسل إليّ بعدما استقرّت أحوالي في بريطانيا. كانت شارتها جميلة وغريبة، أحد الفنّانين من الخطّاطين العراقيين نفّذها وصمّمها له بالخطّ الكوفي والحروف الإفرنجيّة فظهرت خلطة خبيثة أفسدتني أنا الذي كنت مستعدًّا للفساد، الفساد في خدمة الصالح العام، من أجل الفعاليّة والمزيد من الرفاهيّة والفوز بجميع القضايا المرفوعة. بدأت أفتن بالمديح، أريد وابلاً منه يتساقط عليّ لكن لا يقتلعني من الأرض التي أقف فوقها. مديحًا بصوت واضح وبلا استعارات أو مجازات؛ أي، يقول لي أنت مهم، تدوخ ولا تشبه أحدًا. جبهتي تتغضّن من حركات وجهي التي تشي بالغرور أو الإسراف باللامبالاة. يمتدحون خياطة الوالد، يطلقون عليه هو أيضًا لقب السيّد نائب الرئيس فتلتهب

لهاتي بالضحك العالي، أمّا الرئيس فعلى ما يبدو كان مهنّدًا بالطبع. لم أعرف ذلك السرّ حتى اليوم ولا أحد قدّم لي تفسيرًا معقولاً عن هذه الألقاب، فكل شيء يحضر من هناك يكاد لا يفهم. في أحد الأعوام أخذ الإذن منّي أبو مكسيم وأبو العزّ للتوصية الخصوصيّة على عدد غير منته من البذلات. كان يلمس بيده صوف الجاكيت الأنيق ذا اللون الرصاصي الغامق وتحته بنطلونًا أسود وهو يتنهّد حسدًا:

«من يرتدي مثل هذه الملابس يحصل معه انتصاب دائم. أليس كذلك يا أبو العزّ؟».

* * *

في محلّ الوالد في الوزيريّة سمعت أوّل الكلمات الإنكليزيّة خارج الصفّ الثالث متوسط، فبقيت تلك المفردات وكأنّها تتوجّه إليّ وحدي. يتفوّه ببعضها المدير التنفيذي للمعهد البريطاني مستر سكوت. يعيد أبي بعض تلك العبارات كنوع من المجاملة والمرح وأنا أيضًا، الوالد يغلط وأنا أضحك. ذاك السيّد كان أشقر بصورة لا تصدّق كأنّه مصبوغ بالجص ومخفّف بالحليب. شعر رأسه أيضًا أشقر على أبيض ورموش عينيه بياضها يجعله يرمش طويلاً وهو يغلقهما ويفتحهما بصورة تنمّ عن شيء من الانزعاج. وجهه مطبطب وارم وأحمر اللون، معتدل القامة لكنّه قوي البنية ولحيم بصورة تتناسب مع جميع أجزاء جسمه. كان يتحوّل إلى رجل عصبي جدًّا وهو ينظر إليّ نظرات لم أفهمها في بادئ الأمر، فبدأت أهرب من ملاقاته ولو مصادفة. مهنّد كان يعرف لكنّه لا يسكت:

«ابتعد عنه. هذا رجل عسكري خدم في الهند وتقاعد. وصل بغداد عن طريق اللغة الإنكليزيّة. دير بالك هو يدوّر على الأولاد في سنّك ، لكنّا سنفعل به ما نشتهي نحن لا هو».

فهمتُ بصورة بها التباس لذيذ، فهمتُ إشارات مهنّد الفصيحة

لكنّي لم أعرف هل قالها من باب الخوف أو الاحتقار؟ وإذن، هو أمر يتعلّق بالأعضاء، أعضائنا جميعًا إذا كانت منتصبة أو لا نقدر على الإمساك بها. آخ من تلك المفردات الإنكليزيّة التي كلّما أسمعها منه أتصوّره يرتّل شيئًا كالصلوات لكي يوافق الوالد على إنجاز جميع ما يحضره من أقمشة إنكليزيّة عالية الجودة، لكنّ اللافت للنظر أنّه كان يجلب أيضًا قطعًا كثيرة من سراويل ومعاطف وسترات غريبة الأشكال والموديلات يتركها أمام والدي فيفهم أبي بسرعة ما يشتهي؛ إصلاحها وإعادة ضبطها ثانية على قياسات جسمه. الوالد يبقى يردّد: «أيّ هذه هدوم مستعملة لكنّها عبالك جديدة. شنو أصحابها لبسوها مرّة واحدة وباعوها. غريب أمر هذوله البشر».

مستر سكوت كان مفتونًا بملابس الغير التي استعملت ورميت. كان كما بدا لي يستنشق روائح الناس التي استقرّت في النسيج، رائحة العرق والمني والمرض والضحك الخافت والحمى والشهوة التي لن تستعاد ثانية. كان مهنّد يسجّل اسمه ومقاسات جسمه وهو يحتكّ به فألاحظ تداخل يده في نسيج لحمه وكأنّه كان يبطن لحمه بحركات الأصابع. يثني يده ثم ذراعه، ينزل إلى صدره ويتنفّس فيه فيستفزّ شعر صدر السيّد سكوت ذي اللونين الأبيض والأشقر. ثم يبدأ بطوي يده إلى وراء حتى أراه وهو يلتصق به. ظهرت أمامي صورة أمّي وهي تحاول أن ترتق لنا الأشياء في الأيّام الخوالي وها هو مهنّد يبدو وهو يرتق أعصاب هذا المستر ليس بالإبرة والخيط، وإنّما بالملامسة

والأنفاس الساخنة والإيحاءات المريبة. فيضع يده ما بين فخذه وساقه ثم يديره إلى الجانب الآخر ويلمس بهدوء عجيب حدود صدره وكتفه نازلاً إلى بطنه. يلاعبه مهنّد كأنّه اعتاد على ذلك من قبل. ولكن كيف تسنّى له ذلك بهذه الصورة الصريحة. يبتسم في وجهه ثم يعبس فيصدم الرجل. يصعّد مشاعره إلى الأوجّ ثم فجأة يدفعه بيده قائلاً:

«حسنًا البروفة بعد أسبوع يا مستر سكوت».

يتصبّب عرقًا وهو ينحني لالتقاط أيّ شيء من الأرض، فقط لكي لا يرفع رأسه في وجه مهنّد.

يتأفّف مهنّد حين يخرج:

«كذب، هذا ليس اسمه الحقيقي».

«ما علينا من الأسماء، اكتب القياسات ولا تدخلنا بمشاكل جديدة». يردّ الوالد..

أنا أيضًا وضعتُ شيئًا غير مريح بيني وبين هذا السيّد لكنّي لم أتبيّنه تمامًا. لا أفهم كيف يردّد مهنّد تلك الأقوال وكيف يتوصّل إلى أشياء غريبة لا أصدّق أنّها حقيقيّة. كنت أردّد الكلمات وأنا لا زلت في المرحلة المتوسطة والمعهد البريطاني تفصلنا عنه بضعة أحواش وشارع عريض وأنا أقف أتفرّج على الداخلين والخارجين حين يمتلئ المعهد في بعض الليالي بالرجال والنساء. تضاء مصابيح الحديقة الخلفيّة ونسمع أصوات الموسيقى والأغاني ذات اللكنة التي لم أفهمها إلاّ بعد حين وحين. ظلّ

شيء من الكياسة والتعالي ألاحظه وأنا أراقب الطرف الآخر من الشارع الرئيسي الذي كان يشكّل مفترقًا ما بين حلق الجسر الحديدي وشارع الإمام الأعظم وحيّ الوزيريّة، وأنا أفحص القادمين إلى المعهد، وفودًا طويلة من الموظّفين والمسؤولين العراقيين والأجانب، أزواجًا أزواجًا. كنت أتمنّى أن تدوم تلك السهرات فقد كانت تخفي أشياء كثيرة وأنا أحبّ كل ما خفي ما بين الخدع والليل والموسيقى والرقص الذي كنت أتخيّل حركات الأجسام وإيقاعاتها فتأخذني الشهوة وأبدأ بالرقص مع حالي. أتهيّج جنسيًّا ليس في موضع ذكري الذي كان صغيرًا وقتذاك، إنّما من تحت إبطي ووراء أذني وفي أسفل بطني. كانت الموسيقى لا علاقة لها بما نسمع في الراديو والتلفزيون، موسيقى تشيلني وتحطّني في غابات نديّة فيترطّب جسمي فأقاد إلى حجرات مصابيحها خانسة جدًّا فلا أعرف أين يكمن الضوء. ذاك الغموض الذي يبزغ من حيث لا أدري فأبدو خارجًا وداخلاً معًا وتنبعث في صدري رعدة تبدأ خفيفة ولذيذة ثم تتقوّى فيما بعد فأسمعها تهدر في ضلوعي. أبقى عالقًا هناك ما بين شبّاك غرفة نومنا وبين باب الحوش الخلفي، أقف الأيّام بالحرّ والبرد وقبل بدء الدوام المدرسي وأنا أسجّل الكلمات الجديدة وهي تتناقل بين أفواه السكارى والراقصين الضجرين، أظهر معانيها في القاموس، أكرّر ما أسمع وأحفظ ما أعيد لكنّي لم أحبّ أن أكون مثلهم. أنظر خلسة، تمامًا، لكنّني أنظر بدقّة إلى جميع حركاتهم وأزيائهم وطريقة سيرهم القوية المتّزنة والتي تعرف هدفها، فكنت أشاهد استعلاءهم بلا حدود. أمسك كتبي وبعد منتصف الليل

حين أستيقظ فجأة أحاول تقليد لهجة مستر سكوت التي تبعث على الحسد، فهو يتكلّم بطريقة لم أستوعبها؛ فبدأتُ أخاف اللقاء به حين يقرع الباب، وما إن أفتح حتى أراه يتثاقل وهو يحدّق بي فأفسح له الطريق ليصير أمام الوالد. يبتسم ووجهه يزداد احمرارًا ولسانه يباسًا. فيما بعد، بعد فترة أدركتُ أنّ لغة هذا المستر ليست عريقة ولا يحزنون. كان الرجل من مقاطعة ويلز وهو شبه فلاح. فيونا أفرغتْ أمامي شيئًا من أسرارهم وهي تدرّبني على جسمها وعلى طريقة الإصغاء كما يجب لمخارج الألفاظ ونطق الحروف وإعادة ما أسمع. أكرّر كأنّني أسبح في الفضاء، فأعمل جهدي في قراءة بعض المجلات المصوّرة التي كان يجلبها خصّيصًا من بريطانيا، روايات أرسين لوبين وطرزان وغيرها، فلم أعد أتذكّر. كان يريد إرضاء الجميع وكل حسب مزاجه، الوالد بالدرجة الأولى يهديه شالاً من الصوف الخالص لكي ينجز المطلوب بوقت قياسي، وأنا يجلب لي المجلاّت المصوّرة والكرّاسات الإنكليزيّة ذات السطور المتناسقة والورق الصقيل وهي التي استقرّت طبعًا في جميع مدارسنا الحكوميّة والخاصّة. دفاتر تشتهي الكتابة عليها وتنتظر طويلاً لكي تضع فيها بعض التراجم وشيئًا من النجوى الساذجة وتلخيصات لما كان يحدث عندنا في البيت والمدرسة والشارع ومحلّ أبي الضاجّ بالبشر ومن جميع الأجناس والأشكال، فقد كان بيتنا يتوسّط أهمّ بقعة ثقافيّة وجامعيّة في بغداد كلها، على بعد خطوات كانت تقبع أكاديميّة الفنون الجميلة، وأبعد قليلاً كلّيّات التربية والاقتصاد والعلوم السياسيّة، ومن الممكن الذهاب إلى الجامعة المستنصريّة مشيًا

على الأقدام وملاقاة الفتيات الساحرات اللاتي دخلنها بعدما رفضتهنّ جامعة بغداد، وأبعد بأمتار كنت تدخل شارع العيواضيّة وتطلّ على دجلة وأنت تصل كلّيّة الطبّ والمستشفى الجمهوري. مهنّد بقي ما بين أبي وهذا المستر شيئًا من التحدّي والغلّ وهو يختلس النظر إليه. كان يضيق ذرعًا بغروره فيردّد بعدما يخرج:

«بس لأنّه بريطاني، طزّ..».

كان مهنَّد يعمد إلى تخريب ملابسه ويشوّه قياسات جسمه بطريقة لا يرقى إليها الشكّ، كأن يدع البطانة أضيق من الأصل، وما إن يرتديها أمامنا حتى نسمع صوت تمزّقات الخياطة الداخليّة ولا يدري الوالد بماذا يجيب السيّد الحائر والقلق. يصير وجه أخي قاسي الملامح زيادة في إتقان الدور واستخدام كلمات مقتضبة لا تشفي الغليل، ثم يلمسه ثانية وهو يحاول رفع يده ونزع الجاكيت عنه لكي يرى بوضوح ويسجّل أمام الوالد بعض التفاصيل المغايرة. فلا أبي يفهم ما يحدث ولا المستر يظهر صوته وحنقه. جلب هذا المستر لمحل الوالد إنكليزًا جددًا ، مستر توماس أستاذ الصوتيّات وبصحبته مس جيني مسؤولة الحسابات، حضرتْ بعدما سمعتْ عن المغانم من خياطة الوالد فبدأت تقترح اقتراحات جديدة:

«الماذا لا يكون هناك قسم للنساء؟ أنت خيّاط ماهر وسوف نجلب لك سيّدات السفارة وباقي السفارات. ونزوّدك بالمجلاّت الخاصّة بالأزياء من بريطانيا العظمى».

قالت ذلك بالضبط، كريت بريتش .كانت قواي تخور وتضعف وتقوى وتتبدّل، وأنا أرى وأصغي فأفشل في بعض

الدروس، لكنّي في نهاية الفصل الدراسي كنت أحصل على معدّلات مرتفعة فأقهر ما لديّ من رهاب الفشل.

* * *

راقب مهنّد خطّ سيري ما بين دار ڤيونا والمعهد البريطاني والثانويّة الغربيّة. كان يدوّن ملاحظاته في دفتر صغير، يكتب مثل الأحاجي والألغاز فلا يعود بمقدور أيّ واحد منّا فكّها. ربما، كان هذا أيضًا نوعًا من التحذير للآخر والخشية منه. أخي رجل يستطيع أن يختم عليك بالشمع الأحمر فلا يعود يظهر منك إلاّ دخان ورائحة احتراق وصرخة ترتدّ إلى جوفك فلا يسمعك إلاّ الدمدمة. كانت له قوانين لا يتخلّى عنها قطّ حتى لو وجد نفسه في منتهى الإحراج والفكاهة. كأن يعقد صلات مع أشخاص لا نعرفهم، يخالطهم ليلاً بغير خوف وينتقل من مكان لآخر ملفوفًا بالصمت والريبة. كائنات هو وحده يتصوّرها ويعدّدها ويتذكّر تفاصيلها وهيئاتها. شبّان ورجال وفي كثير من الأحيان نساء وفتيات وبأعمار مختلفة يسكنونه ليل نهار ولا يسيء معاملتهم في البداية، يصطحب الرجال إلى البارات الوسخة والمقاهي القديمة والفنادق الرخيصة وهناك كانت النساء بانتظار أولئك الرجال. فيجمع هؤلاء بأولئك وبالتدريج، وكأنّنا في مسرح.. وشيئًا فشيئًا يعتزم إزهاق أرواح اليافعين أوّلاً وينتهي بالمسنّين. كان يختفي في بعض الأيّام ولا نعود نراه إلاّ مرّة بالأسبوع:

«يمه وين تروح كل يوم بالليل»؟

تسأل الوالدة بصوت جد عطوف؛ لكنّ الأخ يغلق الباب

عليه، يجلس في العتمة ولا يردّ على أحد. أحيانًا كنت أراه طفوليًا أصغر منّي، يناكد أمي ويشاغب على أبي وفي الوقت الباقي كان يحمل على كتفيه شيخوخة مبكرة، فأبصره وكأنّه تفرّغ للعنف والقساوة حين يقول بصوت جافّ جدًّا:

«لا تجعل اسمك رتيبًا، اكسره وقسّمه إلى جزئين وابق شديد الاحتراس ومن الجميع، من نفسك أوّلاً».

يردّد بعض الأفكار كما لو كانت أمامه يقرأها فلا تستطيع عين بشريّة أن ترى ما يراه، فيتحوّل الكثير من الناس الذين لا نعرفهم إلى مجرّد أتباع له. يبتسم وهو يتجوّل في جميع مرافق البيت كأنّه يفتّش عن شيء ما، لا ندري ما هو وربما هو أيضًا لا يعرف ذلك تمامًا، لكنّه كان يجيد التفتيش الدقيق. آه! لو شاهدتموه، لا يرفّ له جفن، غير مشوّش ولا قلق، يزيح الأشياء عن طريقه فنراه يمشي في الهواء وهو يحاول قدر الإمكان أن لا يلاحظه أحد.. فقد كان أكثر حيطة ممّا جرت العادة في العلاقة ما بين أبناء البيت الواحد، فيجلس في غرفته في الطابق العلوي، يطفئ المصابيح، يزيح الستائر جميعًا ويبدأ بالمراقبة والفرجة على بيوت الجيران؛ بناتهم، موظّفيهم، عزّابهم، أراملهم، أسرارهم، عذاباتهم، فضائحهم، موتاهم، صحائف سجلاتهم، أشواقهم الظاهرة والمخفيّة، عدد القبلات التي يتبادلها الطفل وأمه، والرجل وزوجته. به شبه من ڤيونا، يشتهي الاشتهاءات الآتية وغير المتوقّعة ومن جميع الجهات. كان ينتظر إنجاز الشغل ولا ندري، على الأقل في البداية، أنا كنت أدري ماذا ينتظرني منه، وحين

أصل إلى تلك الدرجة من التفكير أدخل في السكوت والتوقّف عن التنفّس فيظهر فجأة أمامي، يطلق ضحكة فاجرة فيها شماتة لا أعرف بمن ولماذا، يواصل الضحك لكن بغتة يسكت وبصوت نفور يقول:

«لا تكن بسيطًا، البساطة معقّدة أكثر من الغموض والوضوح ولذلك تسبّب الإرباك».

كان يُحترم بطريقة ناجزة، هذا في البداية ثم وبالتدريج يتحوّل ذلك الشعور إلى نوع من الفزع. بدأت لغته الإنكليزيّة تتطوّر وأنا أراه يفضّل الاستيلاء على الشرائط المسجّلة وكرّاساتي المبوّبة والمصنّفة بألوان الأخضر والأحمر وكتب الصفوف المتقدّمة. لا يدوّن أو يترجم مثلي، يكتفي بالإصغاء الشفاهي فأذناه قويّتان ومدهشتان في سماع دبيب النمل وتقليب اللسان في الفم لكي يستحضر اللكنة الخاصّة بالإنكليز. شعرتُ أنّه تركني تحت سطوة ڤيونا، لم يمنعني أو يزجرني، لكن في إحدى الليالي صرخ ثم خفض صوته وكأنّه يخاطب روحه:

«بس هي بسنّ أمّك».

لم أشأ الردّ عليه. فالوالدة حين يخترقها الوالد لا تلمع أو تتلألأ. أمّي عصيّة على التأجّج. لكن من يدري إذا ما حالفها الحظّ تصير أكثر اشتهاء من ڤيونا، تنهض رعشتها وتضحك في وجه الوالد فتظهر أسنانها الناصعة البياض. صحيح أمّي في سن ڤيونا لكنّها يا عيني عليها غير مسرورة. هي لا تعرف تقليد المسرورات حتى. قسمات وجهها المدمّر تصير أكثر دمارًا، وهذا

ما كنّا نتثبّت منه يومًا بعد آخر. سرور ڤيونا لا يحتاج إلى نفقات باهظة، تبري أيّامها فترى نفسها ثمرة شهيّة فتستسلم للتشهّيات جميعًا. أمّي، أراها تنتحب أو في طريقها إليه، وڤيونا عيناها ترتهزان كفخذيها، تقهقهان بصوت شاهق وعلى رؤوس الأشهاد، وإذا ما حزنت قليلاً، ولو أنّني لم ألاحظ ذلك طوال عامين في المعهد، كانت تدفع بكل شيء إلى مكان قصي، ربما تسفّره إلى بلدها. من أين لهؤلاء الأجنبيّات هذه الطبيعة الرقراقة الطبيعيّة الفوريّة. ما كنت أظفر بردّ مقنع. كدت أضحك فتتخربط الحالة التي كنّا عليها وهي ترفعني، أنا النحيف الطويل الهزيل وتضعني أوّلاً على السرير. بعد قليل تشيلني وتتركني فوق بطنها الناصع الباض المشوب بلون وردي. قالت وهي لا تنظر إليّ قطّ:

«جميع الأماكن عندك وعندي هي ملك لي بالدرجة الأولى، أنا التي أضعك فوق ما أريد وما عليك إلاّ القبول».

لم تنتظر أيّ ردّ ولم أفهم وأنا في تلك السنّ، كنت غير قادر على تفسير تلك الكلمات التي وجدتها قويّة ومؤثّرة لكنّها بدت لي أنّها ضدّي. ڤيونا هي التي تقودني إلى جسمها وشهواتها فلا أعرف ماذا وراء تلك التفاصيل والمفردات. فالشهوات التي نقوم بتأجيجها هي وأنا ما إن ندخلها حتى لا نعود نعرف متى سنعود منها، لكنّا نعود غير شكل. أنا لم أعد أظهر على حالي الأوّل. فمن غير الممكن العودة إلى ما قبل ڤيونا، فهي تعرف لحمي وخلاصات قوّتي ودرجات حيلي ووصفات إثارتي. هي لا تتذكّر شهوتي لكنّها تحضّرها أمامي وأمامها كالكيميائي. تعرف بطني

الخاسفة وعدد شعر عانتي الذي قالت عنه وهي تغني له:

«غابة وما عليّ إلاّ أن أدخلها بأمان».

تبدأ من سرّتي نزولاً وعلى مدار الدقائق التالية كنت أنا أيضًا أريد أن أصير مثلها فكيف السبيل إلى ذلك؟

أنظر إليها كلّها من أخمص القدمين إلى خصلات شعرها الداكن في شقاره. ڤيونا هي التي درّبتني على الاستمتاع بالنظر وبخاصّة البصر وتوحيد الحاسّتين الشمّ والسمع حتى نصل إلى التمرين على اللّهث والتنفّس العميق في أذن وفم أحدنا للآخر. قبلها ما كنت أبصر، ما كنت أرى وأشاهد. بدأت أرقب أهلي وأصدقائي ومعلّمي الصفوف المتقدّمة في الثانويّة. بدأت ألاحظ أنّنا شعب لا يعرف أن يرى، لا يحبّ أن يرى بصورة دقيقة ومتقنة، لا يقوى على ذلك. بلى نلاحق النسوان والفتيات لكنّنا لا نراهنّ تمامًا، ندعهنّ عاريات ونؤلّف منهنّ جداول وقسائم وبرامج وصرعات وعربات من الدرجة الثانية. ڤيونا كانت تنظر دون أن تقول أيّ شيء. تشاهد جسمي بجميع سكّانه، الأهل، الأساتذة الآباء، البنّائين الأوائل، الأخوة الراحلين:

«نعم يا سرمد أنظر إلى ما يشاء النظر والبصر والمشاهدة. إلى ما تقدر الأعصاب والعواطف والعقل واللّهب والأمواج والأشواق أن تصله، إلى ما تريد الشهيّة والأصابع والإفراط أن يأخذنا ولا يترك منّا إلاّ أنت وأنا... هيّا، هيّا شوف علامات جسمي وما تحته وجسدك وفوقه وجنبه وقفاه. هيّا، بهدوء شديد. الهدوء زمان النظر وهو الذي سيقف بجوارك».

بدأتُ من جهة يدي، من جهة الكلام الذي أردتُ أنا أيضًا أن يدور ما بين يدي وأعضائها، شعرت أنّ ليدي فائض قيمة كما تعلّمتُ، وأنّ ثمّة «علاقة جدليّة ما بين اليد والفكر». يداي كانتا ملحاحتين، لجوجتين مثلي:

«أرجوك يا سرمد تعلّم الهدوء؛ هو أكثر قوّة واشتهاء. جرّب وسوف ترى».

وأنا أحاول أن أدع يدي تتسلّى، مجرّد تسلية، مجرّد مرور لا اشتباك حقيقي وأنا أنزل إلى جرفها العميق الندي، فتفوتني وتتسرّب من بين يدي مثل المنيّ الذي كان يتسرّب ويسيح فيبدو مثل مجرى ضيّق. ذاك القذف والإسراع الفجائي جعلني غير متيقّن ممّا حدث لي في بيت ڤيونا، ممّا تركني مخطوفًا. تصوّرتُ أنّ من سيصادفني وعلى امتداد منطقة المسبح وصولاً إلى القسم الداخلي الكائن في باب المعظم سوف يراني أشبه اللوحة الفنيّة التي فرغ منها الرسّام للتوّ، لكنّه لم يضع عنوانًا لها بعد. رجل في الأوجّ لكنّه لا يعرف ما هي الخطوات القادمة.

* * *

كان هناك بين صفوف طلبة القسم الداخلي الكائن في باب المعظّم شيء كالجني ينبثق من بين السراويل والفانيلات، فلا يتنظرون هبوط الليل ولا يتبادلون إلاّ بضع كلمات غير مفهومة. كنت أريد الوصول إليهم فهناك لديّ بعض الأصحاب، يوسف أوّلهم والباقون الذين جاؤوا من الشمال والجنوب. كنت أريد أن أرى ذَكَري ثانية وأنا وسطهم، أريد أن أكون واقفًا أو جالسًا وسطهم لكي أشاهد ريعه وهو يزهر وينفجر من أجلي أنا بالدرجة الأولى لا من أجل ڤيونا. لكنّي كنت أبدو فارغًا مرتخيًا، وحين يقع بصري على خصى وأعضاء وهّاب وخلف كانا يستعجلان القذف، يتنكّران لشيء لا أدري ما هو، فوق اللذّة وبعد الجنس. وعلى أطراف أصابعي الرقيقة النحيلة الطويلة العجولة كنت أراهما يغزوان نفسيهما. من الجائز كنّا نفكّر بالفتاة ذاتها، محيط البطن وربلة الساق والقميص المفكوك على صدر يرشح عرقًا غزيرًا. كنّا نتعارف في لمح البصر ونتبادل الانقذافات الصامتة أو المدوّية. فالمداعبات لا تتواصل إلاّ ثواني والكلام البذيء الزقاقي يأتي إلى ألسنتنا مثل ظلّ ركب من نداعب، فيمتلئ دماغنا بالدم والشهوة والموت. في ذلك اليوم تركتهم، في المكان العادي

ذاته؛ أسرّة عارية وشراشف وسخة وأجساد تصطك وتنزف روحها. كنت أتوق للبقاء وحدي، في تلك الليلة وما تلاها من ليالٍ توقّفت عن الاستمناء.

* * *

تصوّرت جميع ما يخطر على البال. كأنّ صاحبي فصل نفسه وترفّع عنّي، تخطّى الحاجز الذي يفصل ما بين الصبر والفطنة فتركني لأنّني فظّ كذوب وخائن. بلى، كنت أخونه وخيانتي كانت خطّ سيري وفراري وأريحيّتي. إذا لم تخن سوف تضيع، فأردّد على مسامعه: بقوّة الخيانة سوف أستحوذ عليك، بالشكوك الكبرى كنت أقفز وإيّاه ونحن نبحث عمّا وراء الخيانة فأقول له، هيّا غادر، غادرني واصفق الباب بوجهي. أهرب وارو لي، وفيما بعد، ما سوف تلاقيه. خن لكي تزداد جمالاً وتصل الجمال فأعرف، ولو بصورة مربكة، أنّ كبار الخونة في العالم كانوا يشيّدون نظامًا لا أحد بمقدوره اختراقه واختراقهم.

ترى ماذا يتوجّب على أحدنا وصاحبنا ينمو خارجًا عنه؟ إذا جدّد خطّ هروبه ووجد مسقطًا لمنيه غيرنا؟ أبتسم بوهن وأنا أحاول سحب حروف اسمه ولا أقدر حصره إلاّ بإطلاقه بعيدًا عنّي، كأنّ الالتحاق بذاته هو رجوع إليّ والهروب منّي هو التشبّث بي. فإلى فترة قصيرة كانت عيناي تقعان عليه، فأشعر أنّه بالفعل كسر الجدار وانطلق بدون ندم. فأنا على العموم مرغم على اللاتفكير بأنّ ما حدث لا رجعة فيه. الأمر لا علاقة له

بالجنس فقط، هو أمر له علاقة بالتخلّي. آه، هو أمر يتوافر على نسق غير مبالغ به بالخيانة بالمعنى الدقيق الخارق للمضاجعة، هو الذي ضاجع العشرات والمئات.. لكن في الواقع كنّا، أنا وهو بانتظار شخص واحد لا غير. واحد بعينه وجسمه، بتأوهه وخطره وقنصه. لا صورة ولا شبح ولا شخصيّة روائيّة خياليّة. أجل، هو مجموعات أشخاص في شخص واحد غريب لا يتعلّق بالأخطار التي ستواجهني وأنا معه، لكنّي سأعيش بينه وداخل مجراه وجرفه وخطوط حظّه، أقف في صفّه وأدعه يحتجزني في صفّه، ينبثق ويجتاحني من جديد فأقف أمام المرآة أروي له تحوّلاتي وبالتدريج ولا أحوّل وجهي عنه فيأخذني برمّتي على عاتقه. أناجيه وأطلق في حضرته أرق الألفاظ والنعوت على هذا الشكل:

«لا زلت يافعًا يا صاح، هه».

لا أحد يتنبّأ بعمر ذَكرَه الحقيقي والافتراضي. من الجائز، بدأتُ أردّد على نفسي، أنّه شاهدني أقلّ تخيلاً وخيانة.

فكانت البيضاويّة تقهقه بعدما تجمعه بين يديها وتنفخ في وجهه قائلة: «اليوم الغلّة وفيرة». تمتصّ طاقتي الجنسيّة وتبوسني:

«يا ليتك تضاجع جميع أبناء وبنات هذه الأمّة. تخصّص لهم أيّامًا وشهورًا وأعوامًا وما بقي لك من وقت وطاقة لكي يعود لنا شبابنا وبهجتنا الأولى. ها.. ما رأيك عثرت لك على فضائل جديدة غير الترجمة والبحث. الجنس أرقى الفضائل، وإذا ما مشى الحال فسوف تمزّق جميع ما ترجمت من كتب، وستقدّم

أفضل ما لديك وتدخل في مسابقات ومقارنات. . بس ثق بنفسك أرجوك. . و. . .».

لم أكن أسمع بقيّة ذاك الحوار الذي حالفني الحظّ وتلقّفت به البيضاويّة وأكاد أصدّق حدوساتها وانفعالاتها. فأنا أعمل نهارًا كمترجم وليلاً لم تعد المهيّجات تجدي نفعًا. أعتزلُ يومًا بعد يوم عن نفسي ومحيطي ونسائي وشغلي فأسقط في دوّامة شكوك لا نهاية لها: الشكّ «بألف» وبالدرجة الأولى. أتلذّذ بطريقة ماجنة وأنا أتخيّلهما هي ومهند ملتحمين ويئنّان. نعم كنت أسمع أنينهما ولا أتملّص من تلك الأنفاس التي بقيت تلاحقني وتعاقبني فلا أنفصل عنهما، على العكس، أنشط وأتحفّز واستفز وأتلمّظ كل ما أتصوّره ودون انتظار أن أجني أيّ شيء منهما ولا من تلك المدينة. أجل، هو ذاك المنظر الأكثر طبيعيّة: ما لا يختفي ليس ذكَرًا حقيقيًّا. ما العمل إذا لم تكن تملك إلاّ موهبة واحدة، وكانت هذه الموهبة بصدد الاختفاء. ألن يكون من الأفضل أن تختفي باختفائها؟

فبعدما شعرت أنّه تخلّى عنّي، خمّنت أنّه كان يهيم في البراري والوديان. تلك، ربما، هي طريقة حديثة للنجاة أو هي قاعدة لم نسمع بها من قبل للذهاب واللقاء بأصحابه الآخرين. تصوّرته يمرّ بي وأنا مستلق بانتظاره وصوته هادئ وهو يؤثر أن يكون قائمًا في أمكنة غيري وبجوار أعضاء يطيب لها هي أيضًا أن تبرح أصحابها، تبرح تلك البلاد ولا تتمرّغ بالغبار والويلات، تقذف وحدها وفيما بينها. أعضاء غليظة قصيرة طويلة بها اعوجاج أو مضروبة في وسطها. أعضاء عزيزة صدوقة شغوفة حنونة ذات

جاذبيّة قاتلة تقدر أن تحجب الكواكب والنجوم ويرتفع صوتها وهي تتلوّى وتشتبك، يعلو بعضها فوق بعض وداخل بعض كالأفاعي. تكتظّ ويداعب بعضها بعضًا فيرشف أحدها من فم الآخر ما يكدس اللعاب والمني والعرق والدم وفي الحدود القصوى. فتولول وتتصايح ولا تلجأ للأكاذيب حين تصل هرم التشهّي. تحلّق بعيدًا عن غرف النوم والقوم وفرش الحرائر والعذراوات اللاتي تفخّمت فروجهنّ، الرهيفات المتلألآت والمخدّرات بالوحشة والترك. كفى، كفى، أردّد مع نفسي وأنا أشاهد عضوي طائرًا تتطاير منه زيوت المغرومين اللطيفين وأملاح الغائبين جميعًا. أقفز عاليًا أريد اللحاق به لكنّي لا أقدر. أصاب بذهول وأنا أبصره يختفي بين حشود تلك الأعضاء التي تناثرت في الفضاء السحيق وبأعداد لا حصر لها.. تطير وتلمع، ترتفع ثم تغيب فلا تقدر العين البشريّة على رصدها أو اللّحاق بها. كنت أدوّن غرابة أطوار صاحبي وأنا أردّد: حسنًا، لا بأس إن أدرجت ما يحصل لي وله في سياق التراجم والملاحم. أجل ما فتئت أردّد، أنا البائس، هل يعقل أن تكون هذه نهاية القصّة، قصّته هو وأنا الذي أزفر وحدي لكي أقدر على تدوينها. حاولت بشتّى الطرق لكي أقيه من الغدر والتحاسد والغيرة فأردّد أمامه بصوت به ترقّب:

«لمَ أجّلت عمل اليوم إلى الغد؟».

أعرف على وجه التقريب وزنه، طوله وحجمه. سألتُ الدكتور يوسف في باريس عن هذه التفاصيل، أجاب:

«هذه خدمات ليليّة عليك بدفع أتعابها».

كنّا ثملين نتضاحك ونتمازح، فقال:

«أوقية، كيل. كلا.. قدم، ميل، هكتار. اسمع، لماذا لا تحضر إلى هنا؟ لقد افتُتح منذ فترة مركزٌ راقٍ جدًّا وبمقدورك زيارة موقعه على الإنترنت لغرضين، الحمية على أصولها الغذائيّة والطبّيّة، والثانية سوف تهب عليك رياح التأمّلات ذات القواعد الصارمة والدروس التي تشكّل احتفاء بالقوّة الكامنة فينا كما هي مدوّنة في الكاتالوغ. ياي، هي بعينها روح العالم غير المشخّص وبواسطة اختصاصيين ممتازين. بالطبع الأسعار مرتفعة لكنّني سوف أتدخّل شخصيًّا من أجلك فأنا تلميذ سابق. لكن أرجوك لا تحرجني كعادتك، نسجّل الاسم وموعد المقابلة لكنّك لا تحضر. ها ما رأيك»؟

عاد وألحّ ثانية وهو يواصل حين لاحظ صمتي:

«لا تكن غبيًّا، هيّا اغرب عنّي ولا تعد للاتصال إلاّ إذا قلت إنّك في طريقك إلى هنا...».

«كفى من فضلك».

أجبته، لكنّه عاد واستفاض قائلاً بصوت صبور:

«سمّه ما تشاء. قل إنّه الشرق المرهق الدمويّ الروحاني والعنيف، المذب والمعذّب وأكثر، أكثر وإلى ما تشاء. دروس هذا المركز ترضع من نهدي الهند والصين. مركز له عدّة اختصاصات في أصول التغذية والإغارة على الروح من أجل

عودتها. ثم يا أخي هي طبعًا كارثة لا تحتمل، أجل، هي كذلك لرجل مثلك ملحاح ديّوث ووغد لا يشبع من ملاحقة النساء. كارثة بمعنى من المعاني. لكن أحيانًا الزهد في المضاجعة لذّة هو الآخر. جرّب هذا أيضًا. علينا القيام بكل ما نقدر على تجربته! ألست من هذا الرأي؟»

رميت السمّاعة وبدأت أصفّق له قائلاً بصوت عال:

«إنّني أنحني على ركبتي إجلالاً لك ولصاحبك الموسوم بقلّة البسالة. هيّا، سوف أغرب عنك وعن صوتك وشخصك. دعني لكي أتدبّر أموري هنا أوّلاً».

بدأتُ أتابع برامج المركز وفروعه التي تتضاعف في جميع أنحاء العالم. طوفانات من المعلومات والدعاية وبألوان جد هادئة. عناوين للمراكز التي فتحت حديثًا في الدول الأوروبيّة وأميركا اللاتينيّة، والدول العربيّة. أحدهما في بيروت والآخر في تونس والثالث في البحرين. أسمع وأقرأ وأدوّن وأترجم عشرات الأسئلة التي تنقضّ عليك كالكلاّبة فلا تعرف الفكاك منها:

استهوتني سونيتات شكسبير التي تقول: «بقدر السرعة التي تضمحل بها، ستنمو كذلك في واحد من صلبك، من ذلك الذي أنت مفارقه؛ ذلك الدم الجديد الذي تضعه في شبابك» «ستستعيد فيه صورتك، بعدما تفارق أعوام الشباب». ترجمت هذه واكتشفت أنّني سبق أن ترجمتها من قبل ولكن بصورة مختلفة. كانت موهبتي في التركيز فوق الصفر بقليل، لكنّي كنت عازمًا على الارتباط ولو لفترة من كل صباح بالدخول إلى هذا المركز،

والاقتراب المريح من شخص ما كنت أتصوّره هو الذي يتحمّل مشقّة الإعداد والترتيب وانتظام وتدفّق المعلومات؛ وهذا ما كان يجعلني أبدو شديد التأثّر بأفكار الآخرين. لكنّي واصلت التصفّح والترجمة.

ـ هل فكّرت في أحد الأيّام بالتبرّع بحيواناتك المنويّة لإحدى المؤسّسات العلميّة؟

قفزت من مكاني وأنا أتذكّر ما دوّنته في إحدى السنين بعد قراءة طريق الحبّ عن الحضارة الصينيّة التي ترشد إلى الجنس الصيني كفعل إيروتيكي لا يستنفد ولا ينتهي. أفكار هذا المركز ذات نكهة صينيّة بحتة، وجميع المعتقدات التي توصّلتُ إلى تدوينها كانت ذات إشراقات هنديّة، فالذي يتكلّم على التاو لا يعرف والذي يعرف لا يتكلّم.

وضعتُ كرّاسة خاصّة لهذا المركز وترجمتُ الكثير ووضعته في عناوين فرعيّة:

فنّ الحياة يتطلّب معرفة في «متى» وفي «كيف» نتصرّف ولكن في متى لا نتصرّف. كتبتُ عنوانهم الأقرب إليّ: باريس. بدت الأسئلة عاديّة في أوّل الأمر ثم صارت عدوانيّة، ولكن على شكل ألاعيب: بمعنى استخدام مائة صورة وسؤال لكي لا تبقى ولا صورة ولا سؤال، على غرار، من أنت؟ ألا تعتبر نفسك من أصحاب الحدس؟ أين تعيش؟ كم سنّك؟ ما هي مهنتك؟ هل تحبّ إفشاء الأسرار؟ هل أحرقتْ قلبك المرأة؟ هل أنت عضو في حزب سياسي محظور؟ هل سجنتْ وكم شهرًا أو عامًا إلخ؟

هل أنت من المثليين جنسيًا؟ هل لديك أصدقاء منهم؟ هل سبق وجرّبت هذا الميل في إحدى السنين؟ هل تروق لك التجربة؟ هل سبق واعُتدِيُ عليك حين كنت صبيًا؟ هل تشعر ببعض المتعة وأنت تشاهد إحدى الصور أو الأفلام التي تصوّر هؤلاء؟ هل تمتعض من هذا الفعل وتصدر حكمًا أخلاقيًا مضادًا أم أنّك لا تبالي؟ هل تشعر في بعض الأحيان أنّك تمتلك هذا الميل لكنّك تخشى الإعلان عنه لأسباب دينيّة واجتماعيّة وسياسيّة؟ هل تعتقد أنّ عدم الإعلان عن الميول الحقيقيّة للمرء يدفع بالشخص/ الأشخاص إلى الاستبداد والعنف والجريمة؟ ما هي الهوايات التي تستهويك؟ هل تحب يديك وعملهما «أعمال البستنة مثلاً» أم ذهنك وعادات تفكيرك؟ كيف هي صحّتك العامّة وصحّة أعضائك؟ «إذا أمكن تعداد أمراضك، عدّد العمليّات التي أجريت لك». من أعطاك عنواننا؟ أكتب اسمه، عنوانه، بريده الإلكتروني إن أمكن. هل قمت بزيارة أيّة دولة من دول الشرق الأقصى، الصين الهند نيبال على سبيل المثال؟ في أيّ الأبراج كان يوم ميلادك، وهل تعتقد كثيرًا أو قليلاً بهذا الأمر؟ ماذا يعجبك في نفسك؟ وماذا لا تحبّ فيها؟ هل ترتعب من الاعتراف بأنّك فكّرت في أحد الأيّام بالقتل وما هي الوسائل التي خطرت ببالك مثلاً: السمّ، طلق ناري، ذبح، خنق، إعدام، غرق، صعقة كهربائيّة إلخ ترى هل بمقدورك أن تدلّنا على الشيء اللّطيف الذي تمتلكه؟

صعقتني هذه الفكرة، فكرة القتل التي كنت أراها عمليّة تأديبيّة

ووحيدة تليق ببعض البشر، هناك. هم يدبّرون نماذج لا مثيل لها لكي يتحكّموا في الحيويّة والتي تقود إلى المذابح والمجازر. إنّهم يتسلّون في المجال الحيوي الوحيد الذي بقي أمامهم: الحياة ذاتها، حياة أولئك البشر، فيبدو الموت عامل عدوى، يبدو هدفًا تستند إليه الحياة وعلى الفور فنقول هذا شكل إنسان على وشك الاندثار، وهذا وجه لا يدلّ على أنّه كان إنسانًا. لا نجد مكانًا يلتقي فيه الاثنان إلاّ تلك البلاد.

أربكتني هذه الأسئلة وهي تتناسل ولا أعرف كيف سأردّ على أغلبها. لم يخبرني يوسف عنها وعن أصنافها. قلت له فيما بعد:

«هي استخبارات نفسيّة وفي رأيي هي أفظع من الاستخبارات السياسيّة». أجبت باستفاضة على بعض الأسئلة كما عن الأبراج وقلت لهم، إنّ الفلك عالم يثير المخيّلة ويزوّدني بتجارب لم أكن أتصوّر أنّني قادر على خوضها أخبرتهم بهذا الذي يسمّى بالطالع، تجنّبتُ ما نسمّيه بحسن أو نحس الطالع، لكنّني أضفتُ، أنّ هناك سحرًا ما موجودًا في الكون من حولي يثير دماغي وفي كثير من الأحيان لا يتوافق مع سوداويّة نظرتي ومزاجيّة طبعي المتقلّب. لكنّ البرج يذكّرني دائمًا ببرج بابل، يوحي لي بأنّ الأشياء لا تفسّر جميعًا وفق ما نشتهي ونريد، وأنّ التأويل الذي نضعه لأنفسنا وبالدرجة الأولى، ربما هو لحمايتنا ولو مؤقّتًا. شعرت أنّ الأسئلة التي لم تسأل هي الأكثر أهمّيّة وهي التي سوف أنتظرها حين أغادر إلى هناك، وأنّ الأشخاص «من النساء» على الأغلب هنّ اللاتي أنجذب إليهنّ بعلمي أو بدونه.

أتصفّح أكثر وتبدأ الصفحات تأخذ شكلاً رائقًا ومغايرًا. بدأت تظهر أمامي أعضاء الجسم البشري: الصدر والفقرات، الأكتاف، عظام القصّ، الذيل الحنجري، الضلع الثامن. وهنا أطلقت ضحكة قويّة وأنا أريد أحدًا بجواري لكي يقول لي هل هذا هو الضلع الأنثوي؟ عظم الترقوة، الأضلاع الكاذبة، ياه كم لدينا منها في أجسامنا هي هكذا سائبة ولا تهوى أحدًا بجوارها. العمود الفقري وأوضاع الخصيتين، كدمات الخصيتين، جفافهما ومعجزتهما إلخ.

كنت أنظر، أدوّن وأترجم حالاً، وأنا أضحك وأهتف بصوت مسموع: ها هي أمامي أعضاء الجسم البشري للمرأة والرجل، حصلت عليها وصارت في حوزتي. أينما ألتفتُ تواجهني كما هي الكرة الأرضيّة بجميع التضاريس والشهوات والأشواق والعواطف. يا إلهي، صعقتُ وأنا أترجم شؤون الغدّة النخاميّة فهي التي تدير وتنظم الأعمال في الجهاز الهرموني «الغدد الصمّاء» وجميع الأعمال الحياتيّة الهامّة داخل الجسم وهي ما يسمّى بالأعمال البيولوجيّة كالسير الطبيعي، مقدّمات الشيخوخة وعمل الجهاز الهضمي. عمليّة النمو في مرحلتي الطفولة والصبا والنضوج الجنسي والتبدّلات الدوريّة في الأعضاء الجنسيّة. جاءك العوت يا تارك الصلاة. صرختُ، إذن هنا ضربت رغباتي وعواطفي وتمّت السخرية منّي. أبتسم وأردّد: من الجائز أن يكون الجنس هو الذي يعرّضنا للتضليل وبالتالي للتهكّم فتبدو حياتنا معقّدة جدًّا، فهو فعل مملّ رتيب ويسبّب الاكتئاب. لكن

بعد قليل أناقض نفسي وأنا أتشهّى لسان البيضاويّة أو أنفاس كيتا. كنّ يغنين لي كلٌّ بلغتها؛ الألمانيّة والأمازيغيّة فلا أفهم أيّ شيء إلاّ هذا الترداد والنواح الذي يبدو كأنّ أحدنا انتصر. هكذا كانت المضاجعة، لحظة عابرة تلتهم الاثنين، وحنجرة تريد أن تدخلك النعيم ونساء ينشدن ولوحدهنّ، وأنا أتلاشى أمامهنّ وأهتف: صاحبي عزلني لأنّني كنت أغفل عن حبّهنّ كما يقتضي التوازن لا الإتيان بإنجاز مدوّ. أتبدّد وأتبعثر وأدري أنّ إحداهنّ ترجمني، لازالت إلى اليوم، «ألف»، التي تصوّرتني رجلاً مقدامًا لكنّني خيّبت آمالها بالدرجة الأولى وهذه كانت طبيعتي؛ تخييب الآمال، آمال نفسي ومن نواح عدّة ولا أفضل أن يبرّئني أحد، على الخصوص «ألف» أو مهنّد وتلك المدينة التي لم أكن متأكّدًا من سرعة تفكيكها وبهذه السرعة المذهلة.

أثارتني واستفزّتني هذه الغابات المتشابكة من الأعضاء البشريّة وألوان تتغيّر أمامي ما بين الأخضر والبرتقالي، إشراق وعتمة وبحسب قوّة وضغط وحجم العضو إيّاه. نعم، رددت ذلك بصوت واضح عادي: نعم حصل الفشل، لا بسبب فوبيا الرشاقة والامتناع عن الأكل. كان التوقّف عن الطعام ذا توقيت خاطئ، قال يوسف:

«دائمًا هو خاطئ لك، أليس كذلك».

لم أعره اهتمامًا ولم أردّ عليه. قال: «مؤكّد في أثناء الفظاعات لا تطرح مثل هذه الإمكانات». تمامًا، هو شيء مغلوط وأنا على الضدّ من التوقّف عن الطعام، لديّ فوبيا الإفراط

في الالتهام، وإلى من أراه وأقابله أردّد، نعم، هذه قصّة لطيفة لا تجعلوا منها دراما ومأساة عظيمة. كلا، لا تتقذوني أرجوكم فأنا لم أسع إلى الإتيان بأعمال عظيمة ولا كان وجودي مهمًّا لتأمّل زناخة حياة الإنسان، وبالمعنى الإنساني معظم أصدقائي كانوا يركّزون على الثمن الذي سوف أدفعه لقاء تلك الأطعمة والملذّات والمشهّيات. في الواقع كنت أعيش تحت ضغط ذلك الجوع، رجل يعيش بما يسمّى مؤامرة الجوع. أطلقتُ ضحكة جعلت كرشي يهتزّ كما القربة المطاطيّة المحشوّة بالمثلّجات والمكّعبات. لا يعنيني ما كانت توصم به البدانة من أوصاف بشعة ومرّات شائنة. لم أفعل عكس ما توقّعته منّي؛ «ألف» مثلاً، تصوّرتُ أنّني سوف أتوقّف عن الأكل طالما أنّني أتذكّرها وأولادها، أتذكّر البلد ولن أردّد واأسفاه؛ ترى! من سوف يطبق أجفانه ويغلق منخريه لكي لا يشمّ رائحة تفسّخ الجثث في المفارق والميادين العامّة. الرائحة رهيبة وأنا رجل ضعيف متردّد، وربما لديّ شيء من الخجل المستكين ولكنّي مفتون بجسمي الممتلئ المرصّص. توقّفْ عن النظر إلى نفسك يا سرمد أفندي فكم تزن اليوم؟ مائة مائتين؟ كأنّ السمين لا يصلح أن يكون بطلاً مغوارًا؟ هكذا صرّحتُ في أحد الأيّام «ألف»، وكنّا لا نزال في الصفّ الثالث من كلِّيَّة الآداب:

«كلا، السمنة ليست مرضًا فقط، إنّها جهل وقلّة ثقافة».

يومها كنّا نتحدّث عن أستاذ تاريخ النقد الأدبي، كان أقلّ منّي بما لا يقاس، منذ ذلك الوقت بدأ مفهوم النحول وتداخله بمفهوم

اختلاط الثقافات، بالطبع الأجنبيّة. بعد فترة طويلة بدأتُ أرصد وأحلّل السمنة وهي تجاور الحبّ، أو منطق الحبّ والبدانة وما ألحق به من تبعات الارتكاس والهزائم. استبعدتُ قيس المريض المستوحش النحيل من جرّاء السير بالصحراء والتوقّف عن الزاد. قلت كل ذاك هراء ولا معنى له فوضعتُ حدًّا له ولم أهتم بآراء طبيبي الباكستاني ولا بالطبيب النفسي يوسف ولا بطبيبتي «ألف». اشتغلتُ على تراجم الأطعمة والمأكولات والوصفات من الشرق والغرب بهمّة تفوق الوصف وذاع صيتي وأنا أستعمل أحد أسماء أخي الحركيّة ـ هلال العراقي ـ وهذه هي المرّة الأولى التي أفصح فيها عن اسمي الذي اختبأت وراءه كل تلك السنين، وأنا أصدر كتابًا بعد كتاب من تلك الكتب التي ترى في المطبخ والطبخ قوّة مغناطيسيّة تنتج في أغلب الأحيان تنويمًا واستيقاظًا لا عهد لنا بهما من قبل، بكل ما يتصوّره اللسان البشري من لذّة ومعارف وخبرات ثقافيّة لتلك الأجناس والأقوام البشريّة التي تولّيت ترجمة أشهى مأكولات مطبخها العريق. وكانت المعادلة لطيفة جدًّا: كلّما يزداد وزني أستعد لحبّ «ألف» أكثر. كنت أبتسم وأنا أتصوّر؛ لو أنّ مفكّرًا وصل سطح القمر فما كان عليه إلاّ القيام بالبحث عن أيّة مادّة توافق النظام الغذائي. أجل هذه هي الحقيقة، فجميع برامج الصحّة والرشاقة كانت تستفزّني بصورة لا مثيل لها وأنا أرى على الشاشات العالميّة أبناء وأطفال تلك البلاد، بلدي، وهم يتمتّعون بفائض العافية، أصحّاء جدًّا ويسيرون على قواعد التغذية الأصوليّة وقوانين الرشاقة بالمعدّلات الكونيّة. أترجم كل هذا وأسلّمه إلى أبي العزّ، والتهم ما لا

يترجم وأبناء تلك البلاد يدخلون أحلام الغسق وموت التفرّج على الطعام فحسب. . قلت ليوسف في أحد الأيّام:

«لا يجوز أن يحبّ المرء ويضع مفاهيم في الصحّة والمرض. ولهذا السبب شككت بجميع المفاهيم المتعلّقة بالحبّ والنحافة».

لا أحد من أصدقائي توقّع، مثلاً، لو توقّفت ولو عن ربع وجبة سوف تتزعزع سمعتي الوطنيّة وينشرون عنّي التقارير السيّئة وتتقوّض مكانتي العاطفيّة. بالطبع صوّروني مهووسًا بكل شيء وهذا صحيح جدًّا وأنا من جانبي أحبّ ترديده، كلا، هذه مؤامرة، وهذا فعل تآمر. أجل أضحك وأردّد؛ يوسف يتآمر عليّ، وكذلك الدكتور حكيم. ففي ثوانٍ يتمّ الشجار العنيف فيما بيننا، وسرعان ما نعود مرحين لطيفين. لم يثقوا أنّني فقدت ثقتي بكل شيء إلاّ الأكل، هو الفسحة الوحيدة التي تُركت لي ولو على أضيق الحدود لكي أتأمل قليلاً حياتي ووجودي، لكي أحتمل فشلي. أترجم ما أشاهده أمامي وأحفظ عن ظهر قلب أسماء بعض الأعضاء الفكاهيّة كالعظم الحمصي والعظم الهلالي، ربما، أخذ من اسمي الحركي، هلال. لكنّي استبعدت الأمر وواصلت الفرجة. تتغنّج العضلات وتتلاطف السلاميّات كما في العظم الزورقي لمفصل الرسغ، فتصوّرت نفسي أشتبك مع نفسي وأنا أنظر إلى هيكل مشط يدي. أضحك وأترجم أسماء تلك العظام التي تشكّل الذراع والأكتاف. آه، كم أحبّ الإيماءات التي توفّرها كل هذه التفاصيل والوجوه فتهتاج حواسي كلّها، وأشعر أنّ هناك بشرًا داخلي ينهشون ويعضّون رغباتي

كلّها، بشرًا من جميع الأجناس والألوان، بشرًا يحاولون إثارتي بكل ما يمتلكون من طاقة. أراهم يجلسون وراء هذه الشاشة، يقولون هيّا هيّا نحن بانتظارك. جميع هذه الإشارات بدأت ألاحظها فيّ. لديهم سحر وجاذبيّة أولئك القوم في ذلك المركز، فتنة بالفطرة وأشياء خارقة تؤكّد نفسها كل لحظة أمامي. فبدأت التنقّل ما بين آسيا وأوروبا وأنا لا زلت في لندن. لم أخاطب يوسف. حجزت بطاقتي من طريق الإنترنت وغادرت إلى محطّة واترلو، ركبت قطار الاوروستار وكانت محطّتي الأخيرة: Gare Du Nord.

تركتُ ليوسف أن يتصوّر أنّني أصغيت إلى نصائحه وها أنا ألبّي النداء. أرسلتُ مكتوبًا مقتضبًا إلى حكيمي الباكستاني واضعًا في عهدته ما أنا مقدم عليه، فقد أصاب بأزمة قلبيّة أو سكتة دماغيّة أو أو.. إنّه طبيبي الأصولي وملقّي الخاصّ بجميع أوجاعي وأمراضي بين يديه. وأنا أحبّه مهما تجاهلني.

بلّغتُ من كنت أطلق عليهنّ حماماتي الرقيقات العذبات بمغامرتي، فجوعهنّ للمضاجعة جعلهنّ كالمتسوّلات. أظنّ أنّ هذا هو الذي استهواني فيهنّ من قبل، أمّا اليوم فأنا أحبّ حركة أصابعهنّ وأيديهنّ وهنّ يخترن تلك العادة اللطيفة طالما صاحبي كان خانسًا وخنوعًا، فأصفّق لهنّ وأطرب حين يصلن إلى الانتشاء. يغمضن عيونهنّ ويصمتن مرّة واحدة ولا يلتفتن إلى الجهة المقابلة من السرير. غيرتي منهنّ تشعرني بخسارة مزدوجة ومضاعفة؛ مرّة لأنّني لا أقدر على جذبهنّ إليه كالسابق، وثانية

لأنّهنّ يقدرن الاستغراق على أرواحهنّ وهنّ بقربي وبدوني وتحت أنظاري. ردّدتُ ذلك مع نفسي لكي أسهّل الأمر عليّ. قلتُ، ربما بسبب الكسل اختفى صاحبي فلم أعد أقوى على أيّ شيء بعد الذي شاهدته في التلفزيون. قرّرتُ أن أبعث لإحداهنّ، كيتا على الأغلب، للحضور إلى باريس، فهي من المغرمات بها؛ وحين سألتها في أحد الأيّام: «لماذا»؟

أجابت:

«من الجائز، لأنّها المدينة التي استسلمت لنا في إحدى السنين وقبل ولادتي. في بعض مراحل الحياة، يصير الاستسلام حقًّا مقدّسًا».

* * *

نيسان أخرى الشهور، يشيلني بالرافعة ويضعني في حدبة السنين فأنا لست عدد الصبغات، الأمشاج، الكروموزومات التي تحتويها الخليّة العاديّة في الجسم، إنّني بالإجمال فيالق ومعسكرات وآلات سيّئة التشحيم ومشاذّات بالفؤوس وهتافات كالمذابح وخراء مركّز ومن جميع الجهات، وصلابة أعضائنا، هي إنتاج أنزيمات البغض والمواظبة على تخصيب مواهب الغدر والكراهية. أزحت الغبار عن تلك الحقيبة البنيّة ذات الجلد الفاخر والأرقام السرّيّة؛ أوقفتها أمامي كأنّها مخلوق أثري، كائن مسخ بدا لي:

«سآخذها معي».

حين رفعتها إلى أعلى بدت أخف ممّا توقّعت. لماذا كنت أشعر أنّها ثقيلة جدًّا فلن أقوى على رفعها. هل الابتذال والضعة يزدادان تدنّيًا وخفّة بالتقادم وبأثر رجعي؟ هذه حقيبة المؤونة المفتخرة لجميع ما خبّأته فيها من رسائل وشرائط ووثائق وإضبارات وأفلام إلخ. أزحتها جانبًا وأحضرت حقيبتي التي أستخدمها في عموم رحلاتي، ذات الشيفرة التي سرعان ما أنساها فأضطر إلى كسرها، فأشتري أختها وأكتب أرقامها في

مفكّرتي كما فعلت مع أرقام بطاقات الائتمان. وضعتُ ثيابًا، كنّا في بغداد نطلق عليها ـ بهاريّة ـ. قدّرتُ أنّها لفظة آتية من البهارات وابتسمت. في الربيع تنضج تلك البذور وتقطف وتزهر بألوان صفراء ورمّانيّة. ربما بهار هو اسم مدينة بين سلسلة جبال ما بين أفغانستان وباكستان. شعرتُ بوطأة سحب حقيبتين كل واحدة بيد وعلى كتفي علّقتُ حقيبتي المحشوّة بأوراقي الخاصّة، جواز سفري والفلوس إلخ. وها أنا أزداد ضيقًا وانزعاجًا وأنا في طريقي إلى تلك المدينة، باريس التي أحتفظ لها في داخلي بأفكار وصور مكرّرة عن غيري من المترجمين والرسّامين والشعراء والباحثين العرب والأجانب، ففي البداية والختام؛ باريس تشهٌّ مستديم.

قرّرتُ، هكذا كنوع من اللّعب وبدون هدف تسليم نفسي برمّتها إلى يوسف. أمسكني من ذراعي وبدأ باحتضاني فشعرتُ أنّه كالسمكة إذا ما عصرته أكثر فسوف يطلق نوافير من المياه العكرة والعذبة. دائمًا كنتُ أراه هكذا، ذاهبًا إلى الماء آتيًا منه أو غارقًا فيه. قلتُ له في أحد الأيّام:

«دائمًا أتصوّرك مخلوقًا مائيًّا. تشبه سرطان البحر، أرجوك لا تزعل. إذا ما فكّرت يومًا بكتابة رواية فسوف أكتبها عنك. عن رعبك من النساء، وخوفك من الجنس، عن تعلّمك للغات الأجنبيّة بسبب فتاة لبنانيّة دمّرت شخصيّتك وأذلّتك بسبب لهجتك الريفيّة. أليس هذا ما أخبرتني به»؟

«لكن ما دخل الماء بكل هذا»؟

«أنا الذي تريدني أن أفسّر ذلك لك؟ أنت الطبيب النفسي المعروف»؟

«تمامًا، أنا أريدك أن تخبرني رأيك أنت بكل هذا الذي ذكرته قبل قليل».

«ليس اليوم يا صديقي. سوف نتبادل ذلك في أحد الأيّام. هل تشكّ بذلك»؟

«ولماذا لا أشكّ»؟

لم نتحادث منذ تلك المحادثة وحتى اليوم ولم أردّ عليه فأنا لا أعرف مثلاً هل هو من أحد الأبراج المائيّة؟ فأنا في بعض الأحيان أشبّه البشر بالطيور والأشجار والحيوانات والأزهار والجبال والأحجار والأعشاب إلخ.

انطلق يوسف بعربته البيجو الرماديّة ذات البابين حتى وصلنا إلى فندق المريديان. كانت لديّ غرفة خاصّة في مجموعة الفنادق العالميّة حيثما أحلّ وأرتحل وفي عموم بقاع العالم تنتظرني تلك الغرفة الباذخة والفسيحة. وجّهني أبو مكسيم إلى هذه المنفعة الوحيدة التي أصابتني منه. اشتراك شهري معقول وتصلني استمارات أملأها وأعيدها حتى توصّلت إلى هويّة خاصّة عليها صورتي المضحكة. وحين أفتح حافظة نقودي أرى هويّات متعدّدة، للترجمة وللجامعة، للباحثين العرب، هويّة كلّيّة الآداب العراقيّة الممحوّة حروفها وصورتها، لكنّي جلّدتها بطبقة من النايلون السميك لكي أحفظها من الاختفاء. ما بقي لي إلاّ بضع

هويّات كلّها لا تنفع ولا أحتاجها أصلاً. وقفت قليلاً وقلت له:

«هل أستطيع أن أدع هذه الحقيبة لديك؟ لا تقلق ليس بها ممنوعات. لا أسلحة محرّمة دوليًا ولا مخدّرات ولا نقود تحتاج إلى شطف. ها.. ما هي إلاّ كومة أوراق ودفاتر وشرائط فيديو وكاسيتات ومكاتيب إلخ. والله لا أذكر تمامًا ما بها. إذا ما متّ هنا فالأمر يعود لك إذا شئت أحرقها، ارمها للزبالة، افعل بها ما تشاء. ربما سأحدّثك عنها في أحد الأيّام، لا أقدر أن أعدك حتى، ربما لا أقدر أبدًا، سامحني يا يوسف».

لدى يوسف جبن مستتر، وشعور بالاضطهاد، وخوف يجهل كيف يشقّ طريقه إلى قسمات وجهه وحركات يديه، لكنّه قادر على إخفائه. يقول عنه:

«لا، هو حرص وتقدير للعواقب. أنا لا أفضّل حماسك الطائش وشططك الجنوني الذين لا تعرف أنت الآخر طريقة لإخفائهما».

في هذا النهار الذي وصلت فيه باريس كانت الظهيرة بلون العاج. الشمس ساطعة والسماوات كلّها في تلك اللحظات بدت لي رزينة. والحرب، كانت بدأت وصرت لا أعرف وأنا أغمض عيني وأفتحهما، أنّ ما يعوزني حقًا، هو العثور على سرّ العجز الحاصل في اللغة، اللغات، في إيراد النعوت والصفات فيما لا نقدر على التعبير عنه، خصوصًا، أنّنا، أنا ويوسف، اللغوي الألمعي حقًا، وأنا بالكاد، نحاول امتلاك العناية بالدقّة وإتقان وضع المفردة هذه بجوار ذلك الفعل، لكن، ما كان حاصلاً معنا

ونحن في هذه السنّ، أنّ المتروك من اللغة واللغات جميعًا كان يدخلنا في الذعر التامّ ويدرّبنا بصورة حرفيّة؛ أنّ ما يتصاعد منّا فعلاً، هو دخان ما احترق من جميع المعتقدات، وها نحن نصمت وتبدو لنا الكلمة الصائبة جدًّا، هي زوال كل شيء، وبالكامل. التظاهرات والتصاريح الإعلاميّة التي بدأت بلندن وها أنا أكملها بباريس، كأنّها كانت تقع في الخارج، خارج داخلي المحبوس بنوع الحياة التي انعدمت وتعذّرت تمامًا، وما وجودي في هذه العاصمة حقًّا إلاّ لتثبيت اللاشيء الذي سوف يتعزّز هنا غرزة بعد أخرى، حيث بدا ليوسف، أنّ المتاح لسرمد سوف يعيده، على الأقلّ لما سوف يتبقّى، أو بقي منه. أمّا سرمد، فقد كان يعي تمامًا، أنّه لم يبق منه أيّ شيء، وهذا لم يروّعني، وإنّما جعلني أحضر لهذا المركز لكي أتسلّى وأنا أشاهد تفسّخي أمام عيني لكي أعتاد عليه ساعة بعد أخرى ويومًا بعد يوم.

كنّا نستحضر أنا ويوسف صداقات شهيرة ما بين الشعراء والمفكّرين والكتّاب والرسّامين العالميين ونفتقد لهذا النوع من التراجم في حياتنا الفكريّة. فكان يرسل إليّ أثرًا بعد آخر ممّا كان يستهويه للآثار التي تُركت لنا لكي نتعرّف على الحياة الحميميّة للشاعر بلانشو الذي كان جيل دولوز وهو أحد المفكّرين النادرين الذين «أخذوا بنظر الاعتبار معنى كلمة صديق في الفلسفة وأعادوا النظر في مسألة شروط الفكر كما هي، بحيث يصبح الأصدقاء منذورين لكوارث وعلاقات حيّة جديرة، والصداقة محلاً لانبجاس الأسئلة الجوهريّة التي لا يكون بدون دهشتها

والاضطلاع بحكمها فكر وكتابة، يصرخ يوسف في إحدى الليالي وكأنّه يعني نفسه:

«سرمد، كل واحد منّا لديه قدرة لتدمير الآخر. كنت، ربما سأوافق، لو اكتفيت بتخريب الذات كجزء من الأشواق للتعرّف عليها، أخيرًا. سرمد، أنت بلا أصدقاء هناك وأنا أيضًا. أرسلت إليك بالبريد العادي ما ترجمته من آثار بعض الصداقات هنا في فرنسا. كانت هناك إمكانات وجود صداقات بين هؤلاء البشر، أعني ما بين المفكّرين والشعراء. ترى، هل فكّرت مثلاً، لماذا لا وجود لهذا النوع من العلاقات والكتابات والاشتباكات والانشغالات في حياتنا الثقافيّة العربيّة»؟

كان يورد أسماء هذا الشاعر أو ذاك المفكّر ويتسكّع، كما يقول بين كتبهم ويتمهّل أمام ذواتهم ويردّد:

«أريد التعرّف على حيواتهم ومن الداخل. على ما اعتراهم من أحزان وفشل وأخطاء، أتصوّرهم وهم يكتبون نصوصهم يريدون الظهور بعضلات منتفخة كأنّهم يرفعون الأثقال. سرمد، إنّني منشغل هذه الأيّام بترجمة بعض تلك الحيوات والاشتياقات التي مرّت كالبرق العاصف في صميم الحياة الثقافيّة الأوروبيّة. ربما، هذا يخفّف ما ألاقيه من خواء فيما حولي».

ظهرت أعراض كل هذا عليّ وأنا أقابل صديقي يوسف، الطبيب النفسي بباريس. ظهرت تلك العلاقة أمامي وهو يقف مواجهتي في المحطّة. ينحني ليقبّلني فكنت أرى آثار سرور حقيقي، ذاك الذي يمتلكه بالفعل. اعتدنا على القول إنّنا

أصدقاء، اعتدنا أن نبني العلاقة ولو بأقلّ التكاليف من سوء التفاهم. اعتدنا أن نقول: آه، منذ أيّام الجامعة نحن كذا وكيت. تلك الأيّام التي كانت ومرّت وذهبت، هكذا، ذاك هو نظام صداقات طلبة الجامعة وعثرات الحرّيّة الأولى والينبوع الذي لا ينضب، من هوس ما مرّ وفات من أفكار وتداعيات لن تعود وليست لدينا أيّة فكرة عنها في الوقت الحاضر، إلاّ أنّها خدعتنا في إحدى السنين لكنّنا لم ننتظر التتمّة، وها نحن آلان نراها بأمّ أعيننا، أليس هذا ما يقوله البلغاء في اللغة العربيّة والنحو التطبيقي وفبركة الأفعال وزيف الأسماء والصفات إلخ. ها نحن ثانية، يوسف المهذّب، ما زال، ربما بسبب تحلّل أخي وجبروته. وهذا المزاج السوداوي جدًّا الذي يريد أن يقول لك، أجل، أنا هكذا شخص حزين، نعم مأساوي، وهذا صحيح أيضًا. لا أستنتج أيّ شيء ونحن معًا. لقد استطاع هزيمة مهنّد بعزيمة المكوث في الداخل؛ داخله فصنع من نفسه اسمًا لامعًا وصيتًا باهرًا وصديقًا ضروريًّا وأنا أريد أن أهرج قليلاً. كلا، هو الافتتان بشيء لا يقال. سمّه طاقة التوقّد الذهني والحساسية العالية وذاك الأتون الذي كنّا ندخله من خلال شعاع السياسة، هو لم يحترق بها وأنا دبغت عمري. كنت أعرف جميع المكابدات التي تعرّض لها من ملاحقات مهنّد ثم الفتك به والتواري من أمامنا أيّامًا طويلة وكيف تمرّد على الصداقات كلّها وفرّ إلى جامعة الموصل. ذاك هو الانتقال في تلك الساعات العصيبة ما بين إصدار الحكم الصارم والقاسي أو إيثار التجنّب، تجنّب كل شيء؛ الكلمات والصحبة، الوقت والمدينة والاستعطاف إلخ. ربما، هذا وغيره الكثير الذي

صنع لي يوسف، الصديق الوحيد في مسيرة حياتي.

رتّبنا الأشياء والثياب على مهل في الدولاب والحمّام وخرجنا. كنّا نمشي بين جادات حي المونبارناس العريضة والحاشدة بالبشر. يتمهّل كثيرًا ويقف طويلاً لكي نتواصل. يسبقني قليلاً ثم يتراجع فقد كنت أمشي أبطأ من البطء. يوسف يشبه أحد راقصي الباليه، لم يتغيّر منذ جاء من دير الزور وإلى اليوم. زاد وزنه بالطبع لكن بقي ضمن الوزن المثالي. مشيته بها نوع من انضباط عسكري، فجزؤه السفلي كان يتحرّك بالاتفاق مع الجزء العلوي. يمشي ويقفز بحذاء رياضي لونه أبيض وسروال من الكتّان الخفيف وسترة من لون مختلف قليلاً عن لون السروال العسلي الفاهي. كنت أرقبه وهو يفارقني قليلاً ويعاود. لا يزال يمتلك وسامة ولياقة بدنيّة بالرّغم من اعتدال قامته. رأسه معتدل وحاجباه دقيقان تحوّل نصفهما إلى الأبيض. أنف كبير وشفتان رفيعتان ناشفتان، يتمهّل ويريد أن يقول في جميع الخطوات إنّه محبّ ودود و.. لكنّه رجل متعِب جدًّا، وصديق سبّب لي متاعب جمّة وبالطبع أنا أيضًا سبّبت له الشيء نفسه، ولا أعرف حتى الساعة لماذا بقينا صديقين حتى اليوم، وهل نحن فعلاً صديقان؟ لديه شيء سرّي هو يظنّ أنّني لا أعرفه وسوف لا أدعه يدرك ذلك أيضًا. شيء، أحيانًا أشعر أنّه يريد البوح به لكنّه يحجم عن ذلك. الإقدام والإحجام في شخصيّته كانا بالقوّة ذاتها. وها نحن اليوم سويّة بباريس فلعلّه يتفوّه بشيء ما. الهاتف وعلى الأغلب البريد الإلكتروني أنقذا وبعثرا لومنا وعتابنا بين الأسلاك والرياح.

ـ يوسف ـ

مفتون بقضيبه سرمد برهان الدين. أشجع منّي، كلّهم هكذا شجعان في إدارة العمليّات الجنسيّة كما لو كانت هي الحرب، خاضوها وتكيّفوا مع النساء الوعرات والفتيات المجهّزات تجهيزًا جنسيًا مكشوفًا لكنّه منظّم بصورة جيّدة.

أبو مكسيم ومهنّد وها هو سرمد يشبهون كتائب خصّصت للقتال من أجل الجنس، والله عال. يوميًا أقول عال وأردّد مع نفسي؛ هؤلاء تمركزوا في أعضائهم. يمكن هم أحسن منّي، لهم مريدون وأنصار كما في حالتيْ أبي مكسيم ومهنّد، أمّا سرمد فقد قرّرت أن أخوض معه حرب تضامن وتعاطف، هكذا لوجه العضو الغائب، لوجه الغياب التام ولوجه تلك البلاد التي أكلت تمرها وشربت لبنها الرائب في كل مكان داسته قدماي. سرمد مختلف بما لا يقاس عن أخيه الذي تحرّش بي جنسيًا حين كان يزورنا بالقسم الداخلي أو يذهب معنا إلى حمّام السوق بالبتاوين. كان يترصّدني بما يمتلكه من قوّة عضلات وتصرّفات خفيّة ودافئة لا تعلن عمّا يريد فيبدو حييًا وفاجرًا، يترفّع ويتفحّش في وقت واحد فأرتعب في بادئ الأمر، أعرف بالطبع ماذا كان يريد منّي، أو ما هو العمل المطلوب منّي لكنّني أتغابى. بعض الناس كانوا

يصدّقون غبائي وسذاجتي فيعتذرون، لكن مهنّد كان يمتلك صفاقة لا مثيل لها فيجعلني أكثر الأحيان أنا الذي أعتذر حين أتمتم وهو يحاول اعتصاري قائلاً:

«أنت نحيل جدًّا. رقيق وناعم وكأنّ جسمك توقّف عن النموّ في سنّ المراهقة وهذا حلو».

ألتصق بجدار الحمّام العمومي الذي كنّا نذهب إليه بضعة مرّات بالشهر وكان مهنّد يترصّدنا. آه، لست وحدي الذي كان يفعل به كذا وكذا، كلّما أراه كنت أقول إنّ لديه مفهومًا باللذائذ لا يرتبط باللذّة أو الجاذبيّة الجسديّة. كل شيء يفعله بالظلام، لا يصرخ ولا يقرف ولا يلقي عليّ أيّة كلمة. كأنّه ينام من أجل شخص آخر، ليس هو على كل حال. كان يتركني أنزف كما في المرّة الأولى حتى يمتلئ لباسي الخام بالدم الذي بقيت صورته تطاردني حتى هذه اللحظة. أوّل ما قرأت المركب النشوان أصابتني قشعريرة فتصوّرت رامبو تحت مهنّد وهو يعتصره فيكتب مقطعًا بعد آخر والدم ينزف منّي ومنه. إنّنا مدمّيان يضربنا الغبار والمني والأذيّة والألم والخمرة وأشياء لم أعد أتذكّرها أرقتني وأغضبتني فلم أعد أنا ولا عدت كالسابق أبدًا. دماء احتفظت بها في داخلي وبين أسناني، ساعدتني هي والفقر وجهلي بكل شيء؛ جسمي وشهوتي وعضوي الذي صار أكثر تواضعًا وبلا مزايا كثيرة. احتفظتُ لذاك الرجل باحتقار نادر الوجود، يتقوّى على مرّ الشهور والسنين ومهنّد يزداد سوقيّة وعجرفة. فانتقلتُ إلى جامعة الموصل في السنين الأخيرة هربًا منه. بقي سرمد لطيفًا ومختلفًا

لكنّه غير محبوب كثيرًا وشكّاك بصورة مرضيّة، هو الذي يقول عني هذا بالضبط. هذا في البداية، فخلال السنة الثالثة من دراستي للطبّ عرّفني على فارس الكردي، والده عسكري متقاعد وأمّه مدرّسة لغة إنكليزيّة، فكان يدعونا إلى بيته الكائن بشارع نجيب باشا القريب من بيت سرمد الكائن بالوزيريّة، القريب من الحيّ الجامعي ومن القسم الداخلي ومن الكلّيّات العلميّة والأدبيّة وأكاديميّة الفنون الجميلة. يصعّدنا بسيّارة والدته الأوبل الزرقاء ذات الرقم الصغير جدًّا فندور بها من زقاق إلى آخر. سرمد يجلس بجواره وأنا في الخلف. أقرّب جسمي منهما وأضع ساعدي على المقعد وأكاد ألمس رقبتيهما وياقتي قميصهما النظيفين أكثر من قميصي. يتحدّثان بصوت خفيض وفجأة يمدّ فارس يده إلى صندوق سيّارته ويطلّع كرّاسًا صغيرًا عتيقًا اهترأت أوراقه من اللمس والشدّ والقراءة:

«هذا بيان الحزب الشيوعي».

يلمسه سرمد ويخاف عليه من تساقط الأوراق ثم يقدّمه إليّ. كنت لا أثق ثقة عمياء بجميع ما أقرأ. فأشعر أحيانًا «أنّ الإيديولوجيا ضرورة نفسيّة. وكان فارس يفنّد الرأي الذي يؤيّد التعريف الماركسي للإيديولوجيا على اعتباره وعيًا زائفًا أو مغلوطًا». فكنت أردّد أمامهما: أنّ الإيديولوجيا، تتمثّل في بعض الأحيان كالستر على الذات واستلابها تجاه العالم الخارجي «يقوّي لديّ الشعور بالفعاليّة والإرادة ويزوّدني بالتالي بمزيد من الثقة بالذات».

كان فارس يسألني بغتة:

«هل هذا هو دور التحليل النفسي للإيديولوجيا»؟

«يعني إلى حدّ ما. فهو يتمثّل في كونه يكشف للذات عن هذه الهوّة السحيقة القائمة في حقيقتها المتخيّلة ومعرفتها بنفسها».

كنت أجيبهما قائلاً:

«من المهم التشديد على ضرورة الأوهام ضرورة الحياة ذاتها».

آه كم لديَّ من الأوهام، «فبيان الحزب الشيوعي كان مكتوبًا بلغة بيانيّة تعبويّة فاتنة، وبحمية دينيّة دنيويّة لافتة»، لكنّها لم تكن واضحة جدًّا. لم أثق بسرمد ولا بفارس الذي كان يسرق هذه السيّارة وما عليه إلاّ أن يعيدها قبل أن تستيقظ أمّه من قيلولة الظهيرة. في بيت فارس نوقّف السيّارة بالكراج العريض وندخل صالونًا فسيحًا باردًا ذا أثاث جميل وأنيق ومرتّب بصورة لم أرها من قبل. أرجوحة في ركن وعليها وسائد بألوان زاهية لا تنسى وكانت تتأرجح فوقها في تلك الساعة، روناك أخته. ما كنت أملك أيّة وصفة سحريّة لكي أصف بها هذه الفتاة. تدوّخ وتجعل القلب يتحرّك من مكانه وباقي الأعضاء تبشّر بها، إنّها آتية، وها هي أمامك يا يوسف فابتهل إلى الله أنّك عشت إلى تلك الظهيرة. لكنّ البنيّة تفزّ قائمة واقفة بطولها وهي ترتدي شورتًا قصيرًا وسيقانها منحوتة ولونها أكثر بياضًا من الثلج وهي تمزح مع سرمد ولا تلتفت إليّ قطّ. هناك ازداد ارتباكي أوّلاً من الفتاة وثانيًا من البيان والشيوعيّة. كنت لا أعرف أين أوظّف حماسي، لها أو

للبيان أو لشيء مقارب له، لفرع من فروعه أو لخلطة منها ومن باقي نساء ضيعتنا القليلة السكّان. تلك الخلطة التي لم أفهمها وفارس يردّد اسم روسيا، أن يجعلني أحبّها هي فقط، أي اسم الاتحاد السوفيتي ولماذا روسيا يا إلهي. في ڤيلا فارس الجميلة كنّا ندخل غرفته فأشمّ في الممرّات رائحة روناك كلّها؛ بودرة وفواكه وثمار عراقيّة لا أعرف جميع أسمائها.

أحببت فارس أكثر من سرمد، فقد كان أقلّ مكرًا منه وهو يقطع مسافات طويلة لكي يأخذنا إلى أحياء بغداد القديمة والمسبح ومناطق جديدة تبنى للضبّاط والجنرالات. ثم يعيدنا إلى كورنيش الأعظميّة، نتنزّه ونبتكر أغاني أجنبيّة كرديّة وعربيّة، سوريّة ومصريّة وبلهجات غريبة ما كنّا نتصوّر أنّنا نعرفها بهذه الصورة الصحيحة واللطيفة. كنّا نحفظها ونعيدها ثم ننساها ونبتكر غيرها حال نلتقي. بعد سنين طويلة قال لي سرمد وكنّا نتمشّى في الهايد بارك. ميّزت في صوته غصّة وغضبًا قديمين وهو يقول:

«المترجم يا يوسف هو بقايا من ثمار الآخرين وخوفهم. هل تذكر فارس وتلك الأيّام ونحن في الصفّ الثالث من الجامعة حين صرّح لنا أنّه شيوعي وقال هاك خذ، هيا هذا بيان لنا وعنّا. خفت. كنت أريد أن أعود إلى ذاك البيان الشيوعي الأوّل الذي كتبه ماركس وإنجلز. ذاك الذي كان لا يحتمل في ذلك الوقت من قبل الآخرين وأوّلهم مهنّد. هل تذكر يا يوسف»؟

«آه طبعًا حين صرخت بصوت عال، وهذا كان أمرًا مستغربًا

منك. وبدأت تردّد: هيه، اسمع يوسف، لو ترجم البيان الشيوعي ترجمة سليمة وأمينة وجميلة لتحوّلت شعوب هذه المنطقة إلى الشيوعيّة».

«تمامًا، هذا ما ذكرته لكيتا أيضًا. قلت لها، إنّ الترجمة قتلت الشيوعيّة قبل التطبيقات العاهرة. قتلتها في بلادنا على الأقلّ قبل بلادكم. المترجم كان يستسهل وضع هذا النعت والمفردة بدلاً من تلك. الطبقة، الأممي، الثورة، البنادق، العبوديّة السخرة.. إلخ. هل تدري؟ فكّرتُ لو أعدنا ترجمته من جديد. هو كان على ما أظنّ، يشبه القصيدة، لكنّ الجميع تحاشى التحدّث عن الترجمة. تلك هي العزلة، هي تمامًا، العزلة التي تمركزت في جبلنا وحوّلتنا إلى فيالق وربما عصابات. من الجائز، دائمًا أردّد ذلك مع نفسي، «أنّ البلاغة اللاتينيّة قد اعتبرت الترجمة خيانة»؟ أما كان علينا التلاعب قليلاً، أجل اللعب بالترجمة، المرونة الاحتمالات العديدة، لا الصرامة والموضوعيّة الفجّة؟ الخيانة في الترجمة أفضل وأعظم من الخيانة في الفكر».

حين أشرت عليه بالحضور إلى باريس كنت أمينًا معه. أريده أن يعود إلى نفسه لا إليّ؛ فأنا أعدتُ طلاء علاقتي به وشبح مهنّد لا يزال بيننا. لا أقدر على الجزم بأنّه لا يعرف، وربما هو يعرف ويحرّف الأمور إلى جانب آخر، لا أدري. «ألف» تعرف. هي لمّحت لي بذلك، حين قالت:

«يجب أن تخفي نفسك عن أخيه، مهنّد. هو يلاحقنا جميعًا

وعلى امتداد الأيّام والساعات، ولكن لا تدع سرمد يعرف كل التفاصيل لأنّني أخاف عليه من بطش مهنّد».

ندري أنّ «ألف» وسرمد مغروممان. كنّا لا نتساءل إلى أين وكيف؟ كانا في المكان الوحيد الغلط، بغداد، التي تعيق المحبّين عن القيام بأعمالهم، لا تمنحهم البركة ولا ترسل في أثرهم إلاّ المخبرين وها هو سرمد اليوم معي بباريس. أريد احتماله من جديد، فهو رجل مدمّر، وأنا تحاشيت الحديث عمّا جرى لي وهو تحاشى الكلام عمّا يحصل لبلده. أغلقتُ الأبواب عليّ وقطعتُ صوتي عنه ولفترات طويلة لكنّ الحرب أعادتنا لبعض من جديد. غريب، في الكوارث والحروب تتضاعف شهواتنا للطعام والمضاجعة والنميمة والأكاذيب والتجسّس والخيانة والخبث وأشياء كثيرة تحصل لنا ولغيرنا، هذه مجرّد دفاعات لكي تدع العاطفة تجترح معجزة التواصل ثانية مع الأصحاب والأصدقاء الذين يشكّلون نقاط الارتكاز التي تساعدنا على تنظيم مشاعرنا وعلاقتنا وأفعالنا ثانية. سرمد أفضل منّي، هو الذي بحث عنّي وكتب إليّ مكاتيب عدّة ولم أردّ عليه. شعرتُ أنّه يكتب لنفسه، يشتكي بصوت كالعواء مردّدًا: «فقدتُ بلدي إلى الأبد دون أن أكسب بلدًا آخر». كان يقول ويكرّر: «لا يمكن التفاوض على بلدك، لا أعرف كيف أصوغ لك ما ترجمته في إحدى السنين، والذي صيغ على هذا الشكل ومنذ القرن الثاني عشر «إنّ الإنسان الذي يجد وطنه حلوًا ليس غير مبتدئ رخو، وذلك الذي يعتبر كل أرض بالنسبة

إليه كأرضه هو قوي بالفعل، لكنّ الكامل وحده هو الذي يكون العالم كلّه بالنسبة إليه بلدًا غريبًا». كان يتّصل ولا أجيبه. كنت قد تزوّجت روزالين التي تكبرني بخمسة عشر عامًا لكنّي كنت أعيش بمفردي. أضاجع بصورة مزرية وأصبح أكثر صعوبة إذا ما حاولت المضاجعة ثانية أبدو مجهولاً، ليس من النساء فحسب، وإنّما من نفسي بالدرجة الأولى.

* * *

«هل تعرف يا يوسف أنّني لم أحبّ أيّة مدينة عشت فيها حبًا حقيقيًا، بمعنى، أن لا أسعى لتركها. تبدو لي المدن المستحيلة على العيش بها أو المغادرة منها أيضًا هي التي تستهويني وتنقضّ عليّ فأتجه بالغريزة إليها. أتخيّلها وأقوم بترميمها وإعادة بنائها كما يفعل البنّاؤون والمعماريّون والروائيّون. آه، يا ليتني كنت روائيًا لكي أعيد بناء تلك المدينة، كلا، ذلك الحيّ وحده، الوزيريّة. اسمه ا ل و ز ي ر ي ه؛ كمشة من سفراء ووزراء يترافعون عنّا ومن داخل انطباعاتنا بما نشتهي من مغامرات وما كانت توفّره الجامعات والمعاهد، المطابع وأسواق الكتب والممثّلين والممثّلات. إنّني أتحدّث معك وأدري أنّك تتشهّى مثلي تلك البقعة التي عشنا بها والتي لا أفتأ أتخيّلها. لا تقل لي إنّها دمّرت اليوم وإلى الأبد، أنا أظنّ أنّها على العكس. إنّ الأمكنة التي لم ينجز بناؤها بعد، هكذا، هي التي تستقرّ الغيرة فيّ منها وعليها. أي، أقسم لك؛ يوميًا أقول إنّها خارج مجال التحقّق لأنّها تحضر كما تشاء وتغيب وقتما تشاء وتقذفنا بأحجارها وتمضي عنّا. تصوّر يوسف، المدن هي التي تهرب منّا لا نحن، هي التي تأخذنا إلى حتفنا فنشاهد ما يضايقنا ويهلكنا

وبسببها، تبقى لكي تتابع دوننا وها نحن نموت بعيدًا عنها».

لم يردّ ونحن نصل الساحة الكبيرة. نمرّ بجوار محطّة القطار الضاجّة وعلى الجهة الثانية كانت رائحة الشواء تتطاير في الهواء، تصل خياشيمي فأفتحها إلى آخرها. نبتعد ونقترب يوسف وأنا ثم نعود ونلتقي، هي هي ذات الحشود المطواعة وسط تلك الجادات والاكتظاظ على أشدّه في ساحة الكوفن كاردن بلندن. أسير وراء يوسف وذاك الشغف الكاسح بتلك البلاد ينحل في أعضائي ويجدّد لي ما أراه من الوجوه والجادّات والبنايات الشاهقة. قلت لنفسي، ذاك المركز الطبّي هو الذي سأختبئ فيه وأجرّب كما يقال في المسلسلات، التتمّة غدًا أو بعده. لم أقل ذلك ليوسف ولا لإحدى عشيقاتي. غالبًا ما كنت أفكّر، من الجائز أنا الذي يختفي وبالتدريج وليس صاحبي، وقد يكون اختفاء ذكَري مجرّد خدعة، لكي أتعلّم الانعتاق منه، وها هو؛ «الشيطان حيث ينقضّ على السابلة في وضح النهار، أولئك الموتى الذين عاشوا على ظهر الأرض دون أن يعلق بهم إطراء أو مذمّة، ولم يؤتوا قوّة الإرادة في الشهوة ليفعلوا الخير أو الشرّ، ولذا كان مصيرهم أن يظلّوا جوّابين إلى الأبد في حركة محمومة لا جدوى منها». عبرنا إلى حيث الروائح التي شعرت وأنا أسير وسطها، أنّها مجهولة ويتعذّر عليّ ترديد كلمة، نعم، نعم أريد أن آكل. أنا سرمد برهان الدين سوف أحاول فقط أن لا ألوذ بالفرار من أمام تلك الروائح. صرنا أمام شارع D'ODESSA دخلناه. الرصيف ضيّق ويوسف يمشي أمامي. مصبغة ملابس، مطاعم هنديّة، فنادق بنجمتين، وحلاّقون

للجنسين. في مدخل أحد المحلات، كانت، ستارة خفيفة من الموسلين تهتزّ بخفّة إلى أمام فيبدو الداخل شديد العتمة وتظهر تفاصيل لجسدي امرأة ورجل كأنّهما سوف يتلاكمان بعد قليل، أظنّ، أنّ الخلاعة لها إتيكيت أيضًا. توقّف يوسف أمام البناية رقم ١١. الباب الخارجي من الحديد ذي اللون الأسود وبه فراغات صغيرة وبجواره لوحة معدنيّة تحمل الحروف اللاتينيّة وبضعة أرقام. كبس على بعضها ففتح الباب عن فسحة مربّعة في وسطها حديقة صغيرة مليئة بالغصص ذات الشجيرات القصيرة السيقان والنباتات المتسلّقة بألوان خضراء داكنة ومرتّبة بعض الشيء. رفع رأسه إلى أعلى وقال بصوت به شيء من فرح لم يقو على إخفائه:

«طابقان من هذه البناية خاصّان بالمركز. أنظر إلى الدور الأوّل والثاني. هيّا بنا..».

بناية لونها حليبي وزجاج شبابيكها عريض ونظيف جدًا. واصل يوسف بشيء من عتب لأنّني لا أردّ عليه:

«هي بانتظارنا. سامحني، أخبرتها بالتفاصيل التي تهمّ طرق العلاج والتغذية. ظروف غربتك ويأسك. لا، طبعًا لم أتفوّه بشيء عن أمورك الحميمة، ليس من حقّي. في ظنّي أنّ الأمر الوحيد الذي سوف يضايقها أنّك تعيش بلندن وهذا ما لم أذكره لها صراحة فقد تقطع العلاج في أيّة لحظة. لا أدري، هل بمقدورك أن تفعل ذلك يا سرمد.. ها؟»

لوحة من المعدن الصقيل كتب عليها بخطّ واضح وباللونين

الأسود والأصفر الكامد وباللغتين الفرنسيّة والإنكليزيّة: المركز الخاصّ للتأمّلات الروحيّة والحمية الغذائيّة. وبسهم صغير كتب بخطّ أصفر وأدقّ: خبراء في اليوغا والركِي ذات الأصول الهنديّة والصينيّة.

لم أردّ عليه، تركته يتصوّر أنّه المتعهّد بغدي وأنّ اليوم التالي سوف يكون أقلّ وحشة من اليوم الذي نحن فيه، وربما، سوف أنجو، لا أدري ممّا؟ فالتدهور الذي وصلته حالتي هو الأمر الوحيد الذي يمكن تصديقه وما حضوري إلى هنا إلاّ تسجيل يوميّاته لا تطويقه ولا التحرّر منه. أريد المؤالفة معه فأنا لا أعرف حتى هذه اللحظة أين يمكن أن يسكن صاحبي. أزعم، ربما سوف يدقّ عليّ، سيزورني وسوف نتعارف من جديد.

يوسف حدّد الأمر على هذه الصورة: إنّ الموافقة على العلاج كانت من أجله، ولم لا، فليكن، فبمجرّد تصوّر هذا الشعور ومن تلقاء الصداقة، هو تكريم وانشغال بها. صداقتنا التي كانت حاشدة بالأغلاط لكنّها كانت تزوّدنا بشيء من السرور بأنّنا موجودان في الدنيا بعضنا من أجل البعض الآخر. لكن، هذه الصداقة ذاتها تطلّبت اللارد على الهاتف والبريد العادي والإلكتروني، الانقطاعات الطويلة والصمت الأكثر قوّة من جميع ما ردّدناه طوال سنوات الصداقة. كنّا نتشاجر على الأشياء السخيفة، أمّا الأحداث الكبيرة فكانت تنفذ داخلنا ولا نجد، على الأقلّ أنا، إلاّ إطلاق عفطة ذات رنّة قويّة حين تكون الأمور غير محتملة وهذا ما فعلته قبل قليل أيضًا. ـ العفطة ـ، الآن

أخذت معنى آخر، فجأة، كان يوسف ينتظرها منّي ويعود الأمر ببساطة إلى ما أحمل من شحوم ولحوم وليس ممّا يعتريني من يأس. التفت إليّ مستغربًا وضاحكًا بصوت مسموع:

«طبعًا أنت كافر بجميع هذه الفعاليات يا عزيزي، عفطتك خير ردّ. اسمع، لقد حضرتْ بإرادتك. أظنّ هو الشيء الوحيد الذي تركته صالحًا لصديقك يوسف يعمل بها ما أشاء. اسمع، إذا كنت تريد التراجع فالوقت أمامك. أنا شخصيًّا توقّفت عن الإلحاح. هذا المركز ليس شركًا وليس مصفاة لخيباتك أيضًا. فلنقل كما يقول أهل السينما، هو أحد أدوارك الذي كنت تجهل وجوده بفعل الدنيا ذاتها. انفصلت عنه أو حضر دون إذنك، قد لا يكون الدور الأحبّ إلى قلبك لكن لا أظنّ أنّه سيكون الأسوأ. ها، ما رأيك هل نصعد أم..».

لم ينقطع الكلام مع نفسي قطّ، وكان بمقدوري التحدّث إلى أكثر من واحد والترجمة في الوقت ذاته، حينها كان مجاز نيتشه عن الإنسان المتفرّق وتحوّلاته، بدءًا بأنّه «الروح التي تتحوّل جملاً، ثانيًا يصير الجمل أسدًا حين يصير هو ذاته، أمّا حين يعود الأسد طفلاً، هذا هو العود الأبدي والخلود السرمدي». أطلقتُ عفطة لم أتوقّع أن تكون فجاجتي قد وصلت هذا الحدّ وأنا أردّد أمام نفسي: «فلنشاهد الجمال. النوق. فكلّنا سنتحوّل إليها».

يقف المصعد أمام الطابق الأوّل. يرنّ الجرس فيفتح الباب حالاً. كانت هناك كاميرا ومرآة كبيرة عاكسة فبدت وجوهنا مكبّرة وذات سحنات غريبة تثير الضحك والفزع.

ندخل ممرًا طويلاً ضيّقًا بعض الشيء ذا عتمة مريحة ورائحة طيّبة. رائحة أجساد طالعة من حوض الاستحمام. روائح لا تعود للماء والبخار والعرق والبخور والصابون والمياه الحارّة والدافئة والباردة. رائحة كانت تكتسح شهوتي وتقول من فضلك يا أستاذ أدخل. سأحبس هنا وبإرادتي. كنت على وشك البكاء، باستطاعتي أن أقسم أنّ الرائحة تُرى وأقدر أن أبيّتها معي في سرير ولحاف واحد فأبدو منهكًا من النظر والشمّ الكثير. هنا، في هذا المكان محلّ للتسوّق من الروائح، فهذه الحاسّة الموجودة في أكثر من الأنف حُفظت لنا وعلى التوالي وليس كما اتفق تاريخ الآفات والمجاعات، المرارات والمسرّات. الرائحة، هي الامتناع أن تكون وحيدًا قطّ.

تقدّمني يوسف كأنّه صاحب البيت أو المكان فأتبعه بخطوات وهنت جدًا. بالطبع كان يتراجع قليلاً بوثباته الحيوانيّة فأراه يشعر بسرور؛ فهو يستمتع بجرّي وراءه كالخروف أو الجمل. ونجد أنفسنا أمام غرفة فتحت إلى آخرها فندخل حالاً، كان يعرف ما بداخلها وصوته كالطوفان:

«لقد حضرنا».

عاد ثانية إلى أوّل الباب وأمسك بيدي. كان يقبض عليّ. عندما وطئت قدمي باب الغرفة وأوّل ما شاهدتها حضرت «ألف» أمامي. ولكن، كفى يا سرمد.. يكفي إلى هنا. هما لا تتشابهان في الأبّهة واللون والحركات. بعيدتان كثيرًا، لكن أستطيع أن أجلِس واحدة مقابل الثانية على مائدة وأدعهما تبتسمان في وجهي

إحداهما للأخرى بدلال، ولا أقدر أن أمنع نفسي من الغيرة من غنجهما وأنا أشاهد هذه السيّدة أمامي، أقدر أن آخذها من يدها لكي أخمِد حرائق «ألف». آخذ ماءها وأصبه فوق تلك فأترطّب أنا.

حاولتُ إسكات ضحكة كادت تطفر من بين أسناني لكنّني أسكتُّ نفسي. بوسعك يا سرمد أن تقول، إنّك حين تشاهد بعض المخلوقات، هذه و«ألف» على الخصوص، تردّد: إنّها حالة لا تختارها ولا تستطيع الفرار منها، لكنّك تستطيع أن تختار ما تفعل بها: الرفض أو القبول، ضدّها أو معها. في تلك اللحظات تختفي أشياء كثيرة إلاّ ذلك الشيء الذي يبدو مدوّيًا ورهيبًا ولا أحد يعلم ما هو لا أنا ولا هما. وفي الحقيقة لا جواب لديّ ولا أعرف أيّ ردّ. نعم، إنّني لا أجرؤ أن أعرف ماذا بين هاتين المرأتين؟

أقترب كثيرًا، كلا، أعود من التشهّي بهما وبغير إتقان. أشتهي، بدءًا من الإبهام الذي كان يتحرّك أمامي ويمسك الملفّ الخاصّ بي إلى آخر خصلة شعر في رأس الاثنتين. «ألف» هناك وهذه هنا. بعد أقلّ من بضع دقائق وهي تدلّ بيدها بحركة رشيقة للجلوس قائلة:

«شاندي، اسمي شاندي».

قالت ذلك وهي ترفع رأسها بهدوء عن الأوراق. رقيقة كانت، نحيلة وصغيرة. كلا، هي تبدو طويلة، لكنّ بها شيئًا صغيرًا، طلابيًّا من تأثيرات التلاميذ بالتلاميذ. تبتسم بشفاه اتخذت شكلاً

نهائيًا: إنّها تقاوم أمرًا أو شيئًا ما، ذكرى أو رائحة لا تُرى. فتبدو أمامي، أنّها لا زالت تبحث عنها في وجوهنا. يتخذان موضعهما، «ألف» وشاندي، أمامي، بشكلهما الجنّيين، فتظهر أسنان شاندي في غاية التناسق والبياض، وعندما ابتسمت، تصوّرتها فتاة إعلان من الطراز الراقي.

يا سيّدتي شاندي، أنا لا أحبّ جاذبيّتك الملائكيّة فالملاك أشدّ تعقيدًا من الشيطان. قلت ذلك وأنا أمنع نفسي من الضحك أو الصراخ بوجهها. لا أستلطف هذا النوع من النساء اللواتي فيما لو بحثنا في حقائبهنّ لاكتشفنا أنّها ملأى بعبق اللذّة التي لا ترى بالعين المجرّدة. وهذا أمر لا أقوى عليه. لا أقدر في النهاية أن أرتوي. وإذن، لا نجاة أمام شاندي كما حدث بالضبط مع «ألف». لكن لو شطّ دماغي وبدأت مثل جميع الرجال، لقتلت شاندي بالمجرن والتهتّك كبديل عن الحمية لجميع أنواع اللحوم. كنت أتحرّق وأنا أنوي إفراغ الكثير من أصولي وأكاذيبي وبذاءتي المدوّنة في أسفل الشدفة النخاعيّة Segment، فأنبطح خلفها وأصيبها من قفاها وأجعلها تبدو ملكًا لي. وحين لا توافق على الإيلاج عميقًا أتشاوف عليها، أشير على حركاتي السوقيّة إيّاها واضعًا يدي بين فخذيها واصلاً إلى ما لا يمكن تفاديه ثانية وثالثة، أن أدعها تتقهقر فأصاب بحالة من حكاك عاجل، وأطلب منها وضع بعض المراهم في جميع الفتحات التي تشكو من بعض الإصابات. الصور تتبلور في رأسي وأنا أمامهما، يوسف وشاندي. أبتسمُ تحت تأثير صمتي وإرباكي. يوسف لا يتوقّف

عن الكلام، هو ليس ثرثارًا، على العكس، لكنّه يفعل ذلك من أجلي وأنا لا أفهم ولا أسمع ولا أصغي جيّدًا. لا يبدو أنّهما تقلّبا على سرير واحد. من الجائز، بينهما كما يبدو روابط لطيفة، فقد أخبرني أنّه أرسل بعض مرضاه إلى هذا المركز:

«مستر برهان، هل تفضّل أن نناديك بهذا الاسم أم باسمك الأوّل مستر سرمد»؟

كدت أختنق حين وصل لساني وتعثّر بين أسناني وأنا أرفع رأسي وأتأمّلها. كانت تشبه كشّاف الضوء وحولها هالات:

«أيّهما أسهل على التلفظ والنطق»؟

ذكرتُ الاسمين بلكنة محبّبة فأضافت:

«في أحد الأيّام سنتحدّث عن المعنى الداخلي لاسمك، للأسماء جميعًا كما نفعل مع المريدين الجدد، فالاسم يتضمن قائمة بالأسرار وفي داخله نعثر على الكثير من الواجبات والوظائف والمزايا أو عكسها. هل أنت من هذا الرأي يا مستر سرمد»؟

استرحتُ لاختيار اسمي الأوّل. ابتسمتُ، ومهنّد شقيقي كان يتلذّذ بحروف اسمي قائلاً:

«سرّ، مد»

كان يهذي ويضع حروف الاسم خلف حجاب ويقول ما عليك إلاّ أن تزيل من اسمك العفن والنتانة. ليس من اسم طاهر راسخ

ومجرّد من داخله. إنّنا نحاول انتزاع الأمراض عن الأسماء لكي لا يُصاب المرء أو مريده بالصدمة، الغضب والألم. قال: تدبير الألم Management of Pain

قال ذلك باللغتين وواصل:

«دع ذَكَرك في خدمتك وليس العكس وأطلق عليه كلّ ما يخطر على البال من ألقاب وعناوين عامّة وخاصّة فهو أعظم وأهمّ من رئيس مجلس قيادة الثورة والحكومات المتعاقبة، قل له يا أمين سرّ البلد، وأجمل من جميع الأيديولوجيّات. آه يا سرمد، لو تسمع ماذا يقال لنا في تلك المديريّة: من منتصف البطن، من بداية خطّ شعر العانة هو ملك لنا وما دون ذلك ملك لكم. مركز اللذات المشبوبة. لكن هذا غير صحيح، غير صحيح أبدًا. أعضاؤنا تبغي التسكّع خارج السياجات والمديريّات وظلام الخنادق والسجون والثكنات والقصور والفنادق إلخ وأنت توجّه بصرك نحوه، صاحبك الكريم، صاحب السنّ الذهبيّة».

استهواني ما وصلت إليه وأنا أرفع رأسي وأبصر؛ ترى كم سنّ هذه الآنسة اليافعة شاندي؟ لم تصل الثلاثين بعد. ربّما، و«ألف» أصغر منّي بعامين وأنا دخلت عامي الخمسين. لم أدعُ أحدًا إلى الحفل، بالطبع ولا حماماتي الأليفات. بطني لم أرها بذاك الحجم الهائل مثل أيّ يوم مضى. توقّفتُ أمامها سريعًا، وأردتُ أن أشكّها بمسمار زجاجي لكي تنفجر. عام «ألف»ين وثلاثة يتكلّم وأنا لا أستوعب لكنّني أنود برأسي وأردّد، نعم، نعم، البيضاويّة كانت ألذّ النساء في حياتي، تشبه الحوريّة لكنّها لم تنفذ

أيّ بند من بنود الوصول إلى النعيم. وحين شاهدتْ صاحبها بتلك الوضعيّة العبقريّة قالت قولتها التي لا أعرف كيف أفسّرها وأين أضعها:

«اسمع يا سي سرمد، التشهّي في هذه المرحلة يحتاج إلى شيء من الإرادة المهولة، يمكن، عاد سامحني من فضلك، يحتاج إلى شيء لا أعرف تسميته ولا أدري إذا كان من الضروري أن نعرف صفات الأمور التي تقترب من المستحيل. إنّني أفهم صاحبك أكثر منك. سرمد، مدينتك تدكّ دكًّا وأنت غير قادر أن تدكّني بوردة. غير كنقول الله غالب. يا حبيبي». بعد أيّام وجدت مظروفًا رقيقًا به رائحة لطيفة لم أتبيّنها تمامًا في صندوق بريدي، وحين فتحت المظروف كانت الكلمات من البيضاويّة:

«آه يا سي سرمد. آه لو تعرف كم كنت أريد أن أكون شيئًا مهمًّا في حياتك، أوافق ألاّ أكون الأهمّ. أنت لم تذكر ذلك قطّ ولا قلت هذا مهمّ وذاك أكثر أهمّيّة ولا قلت في الأصل، أحبّك. ربما، لم تقبّلني كما أنا ولا عزمت أن أتغيّر مائة بالمائة، فأنت مهذّب ولطيف، على العكس ممّا تدّعي وتناكدني: كأن تردّد، آه تغيّري قليلاً. أعني لا تتغيّري إلاّ بالقدر الذي يعجبك أنت. ولكن، بقيت تردّد على مسامعي: «دعيني أرى كتفيك وهما يهتزان شوقًا وأنا أبومك ولا أكتفي بذلك، وإنّما أدع فخذيك يبتسمان بوجهي وتسعى عيناي لفحص جسمك كالطبّاخ الماهر». فأنظر إلى كل سنتم في ذلك اللحم المملوك لأشياء لا أعرف مِمّا تتكوّن فأترجم لك تلك اللطائف قائلاً: «إنّني أعرف الذي أعطيتك إيّاه ولكن الذي وصلك منّي أجهله»، فأصيح آه ثم آه،

من قال ذلك؟ لست أنا ولا أنت أيضًا ولا هي «ألف». . ها، أرجوك، ألاّ تقول لي، لكنّك تصمت فأبوسك أكثر وأكثر، أبعدك قليلاً عنّي وأنظر في وجهك كلّه: تعرف يا سي سرمد، حين أشمّك أتصوّر أنّني داخل بقعة جميلة في مكناس مدينة أمّي. المدينة تلك تحيطها بساتين وأشجار النخيل. الحبّ أيضًا موهبة ليس لدى الجميع قدرة على تحمّله، هو يحتاج إلى تدريب. آه، مثل ما نقول، كيف الرياضيّون يتدرّبون يوميًّا في النادي، يبدأون من الرقبة والأكتاف والسيقان والقدمين، هذا في الظاهر لكنّنا لا نشاهدهم وهم يصنعون الأعجوبة، ذلك النصر الذي لا يمتلكه أيّ أحد. شيء كالقيامة، يقوم فيك، يمتلكك. شيء ما يصير من نصيبك، وله وجود صلب وشاقّ ورقيق، فتصير أنت الوردة والطبيعة، تصير المرأة والرجل، تصير اليوم والأمس، وما يبقى يبقى على الدوام وأنا لا أعرفه يا سي سرمد. أي، كنحبّك. لا تقل أيّ شيء لكن دعني أتنفّس فيك. كنحبّ بلدك بالزاف، هذه الكلمة المغربيّة التي تشغف بها وأنا أردّدها أمامك ووراءك، أي والله. أجمل ما تردّده عليّ وأنا بين ذراعيك حين تقول: ها عيني. كنت أريد ألاّ تقول شيئًا وراءها فأضع يدي على فمك وتبقى تكرّر وتكرّر: أي عيني، ها عيني. يا بعد عيوني، وأنا أردّد وراءك، أنّي بعدك وبعدك. يا ربّ العالمين. ما هذه اللّغة التي تكون أنت ماءها وعينها؟ كيف توجد في الأعلى، أعلى الرأس، في روح الوجه والعينين؟ كنت أتمنّى أن أكتب إليك شيئًا بقدر الحبّ وبقدر البلد بلدك. . لكنّي لا أجرؤ، ربّما، لا أقدر وهذا المرجّح».

* * *

شاندي و«ألف» لا تتشابهان لكنّهما تلتقيان. أنا أشكّ بالعذراوات كثيرًا، ولا أفضلهنّ، شاندي على سبيل المثال جعلتني أرى الذَّكَر كالسيخ يعذّب بعض الفروج غير المحتملة كفرج «ألف»، أمّا هي شاندي فمركز ثقلها: العذوبة، فتبدو مضبوطة كالدعابة.

هيّا يا سرمد أصمت، اخرس نهائيًّا، فأنت لا تعرف جنسيّة شاندي. هي لا تتحاشى سكينة الصين ولا تقطع صلاتها مع فيتنام ولا بعيدة عن طاعة اليابانيّات وتجعلني لست متأكّدًا من أنّها سلكت طريقًا فرعيًّا من الهند في طريقها إلى هنا. فتقول لنا: هيّا، هيّا، أسرع إليها لكي تراها فتعرف أنّها تحتوي على جميع ألغاز الشرق. من يقدر على اتّباع خطى هذه الآنسة وهل هي كذلك؟

شعرتُ أنّني كالخادم في حضرتها. محتشمة هي، ليس بمعنى الشرف، وإنّما المواربة. فتعرض جسمها، هكذا كنوع من الغفليّة. ما معنى شاندي؟ ربما هو الارتباك، أو البكارة الحقيقيّة غير المسموح لها الفضّ. كنت أحاول قياس حيّز شاندي في رأسي وهي تتحدّث مع يوسف. شعرتُ أنّ فرجها مالح دمّاع

عاصٍ ومضطرب عكس حيّز «ألف» الجشع الظامئ المختلّ المنحوس واللئيم. شطفه مهنّد في أحد الأيّام فظهر على حقيقته. «ألف»، آنستي، بخطوة جهنميّة، تلك الأشدّها أذيّة وسفالة تحوّلت إلى امرأة، تغلي كل ليلة تحت أخي مهنّد، كل الليالي في حالة من التلاشي فتطلق صراخًا ذئبيًّا عاليًا تسجّله بالكاسيت وتبعثه إلى مقرّ إقامتي، إليّ حيثما أكون:

«سرمد، اسمع أريد الحفاظ على فظاظة وجودي من أجل حياتك أنت».

فيلم مريض وفجّ وأنا لا أطيق الفرجة عليه، قلت. «ألف» غير المحترزة، ومهنّد الجزع عليّ وأنا أدرس وأحضّر الماجستير، وهو يخاطبني على مدار الساعة:

«لا تعد عيني. «ألف» وأسفاه حالة لا شفاء منها. البُنَيّة، يا عيني تقريبًا جُنّت».

باغتني وقال:

«هاك، خذ قسيمة اسمك الألمعي، صاحب المعدّلات الممتازة والمصاب بـ «ألف». في المنام واليقظة. هسه، أمسك حروف اسمك الجديد، سرمد، أطبق جفنيك عليه. دبّر أمرك بحيث تكون موجودًا على الدوام خارج البلد. لا تهتمّ بالمصاريف. سننفق كما تشاء وأكثر ممّا تشاء. أريد أن أقول لك وأنت تعرف ذلك جيّدًا لكن لا بأس من التكرار، لن ينقذك لو عدت حتى الموت. إنّنا لا نمزّق الأجسام إربًا إربًا، إنّنا نجعل منهم مماسح من الدم».

يومها ترجمت مقاطع مختارة لإميلي ديكنسون: «يحدث بعد الألم الكبير خدر الشعور، فترقد الأعصاب كالقبور. ويسأل القلب، هل كان هو من تحمّل»؟

حكاية مسلّية وبلا أخطاء جسيمة. «ألف» تقبّلت ذلك بوقاحة وجعلت مهنّد تحت التعذيب، استمتعت بمهاراتها التي لم تكن تدري أنّها موجودة تحت تصرّفها، ومهنّد، لم يتحدّث قطّ عن خيانة ما. لم تكن هناك منافسة فيما بيننا ولا أيّ نوع من الفخر أيضًا.

بداتني أحبّها ولا أريد التفريط بها، فهي بدانة «ألف» التي وجّهتني إلى الأطعمة والأغذية فنسيتُ جميع ما تعلّمته من دروس خصوصيّة سبق ودرّبتني عليها ڤيونا وتلك الدورات التاوية اليابانيّة التي دخلتها في لندن. نسيتُ، تناسيتُ أنّ «المني هو أغلى ما يملكه الرّجل وينبغي أن تعوّض كلّ عمليّة قذف من خلال اكتساب كمّيّة متكافئة من «نسغ» «الين» الأنثويّ. نسيت صبر التاوية تمامًا وبالغتُ، بالغتُ في الانتصاب والإيلاج والقذف السريع، أسرع من سنة ضوئيّة:

«لا تتضايق مستر سرمد من أحاديثنا. صديقك الدكتور يوسف ينظّم لك مواعيد العلاج، حصّة التأمّل والحمية والفحوصات لأغلب الأعضاء.. إلخ. تركناك لوحدك لكن من أجلك. كأنّك تبدو شكّاكًا يا مستر سرمد، الشكّ أمر لطيف يسمح لك أن تزيح أيدي الجميع عنك لكي يكون ذلك حائلاً دون الهروب من أمامهم».

كيف حدستْ شاندي بذلك؟ فأنا في الأصل لا أملك إلاّ الشكّ. عادت وبصوت رقيق:

«سوف تشاهد السي دي. ترى أيّ الأوقات مناسبة لك؟ بعد الظهر أفضل من الصباح أم العكس؟ يا حبّذا لو تذكره لنا لكي نضعه بجوار اسمك؟»

«هل هناك صفوف ما بين الرابعة والسادسة مساء؟ ترى هل هذا وقت مناسب يا آنسة شاندي للتأمّل والحمية؟ أم أنّ الصباح أفضل»؟

قلتُ آنسة وتلعثمت، لكنّي واصلتُ:

«هل الصباح أفضل من المساء؟ هل الغسق سلبي أم الظهيرة إيجابيّة؟ هل هذا الذي أتفوّه به الآن صحيح أم لا؟ إنّني لا أعرف من يؤثّر على من؟ وهل سنبدأ منذ اليوم أم ماذا؟»

«إذا كنت على استعداد فلم لا . .».

«ما هو الاستعداد من فضلك»؟

«ستجد جوابه لديك. سيصفو عقلك قليلاً ليفهم. إنّنا لن نبحث عن حلّ للغز هذا الوجود. إنّنا نحاول الذهاب إلى مكان أقلّ إرباكًا واضطرابًا من ذلك. ليست القضايا الكبرى هي التي تبحث عن أعلى درجات الفهم. إنّ «جوهر النفس فينا ليس هو الجسم ولا هو العقل ولا هو الذات الفريدة، ولكنّه الوجود العميق الصامت الذي لا صورة له، الكامن في دخيلة أنفسنا». «إذا كنت على استعداد أن نبدأ اليوم فلم لا».

شاندي تصمت أكثر ممّا تتنفّس وهذا كان يشكّل جميع الحركات والتصرّفات. تجلس وراء طاولة مستطيلة صقيلة أمامها ملفّات عديدة مصفوفة بعناية في الجانب الأيسر ومن حولها شبه غابة من الأشجار المستقيمة والملتوية ذات الأوراق العريضة النظيفة واللمّاعة جدًّا، فبدت تلك الأغصان مترعة بالماء، روت عطشها، فظهرت حبيبات من ندى على مساحات تويجاتها وعروقها. في الطرف الآخر نباتات متسلّقة.. ترى، هل جلبت من هناك، من الشرق، من الصين أو الهند؟ قبل نهاية العام ١٩٦٢ في ذلك الوقت الذي بدأتْ فيه العداوات بينهما في منطقة الحدود التبتية، وقبل أن تستمرّ الجيوش الصينيّة في تقدّمها السريع وتنزل في سهول الهند وتحتلّ مدنًا رئيسة هناك. ذاك عمر مضى وسنون ولّت. وهذا ليس حدسًا فهو أقلّ الحواسّ تطورًا لدى الغربيين، وأنا أرى استخدامه أمرًا ضروريًا في بعض الحالات والأمكنة. شاندي من هناك، حضرتْ، وعاشتْ بانتظارنا؛ فبدت الطمأنينة على وجهها وحركاتها ممّا أضفى معنى باردًا فيه شيء من الرتابة على الموجودات القليلة من الأثاث. كراسٍ عجيبة وُضعت في أقصى الطرف الجنوبي من المكان. كراس صغيرة كما تلك التي نراها في عيادات الأطبّاء ورياض الأطفال ذات مساند رقيقة وبألوان برّاقة، ما بين الوردي الخفيف والبنفسجي العزهر.. وشاندي تشعرنا أنّها تعيش في سكن خاصّ بها لكنّه سكن طارئ، مؤقّت يصيح بي؛ أنا السمين الكثير القليل؛ هيّا لا تلمسني ولا تجلس على مقاعدي ولا تقترب منّي. اتركني، غادرني. أيّة قطعة من الأثاث هنا كأنّها لم تمسّ من قبل، ليست

جديدة لكنّ بها شيئًا من الاحتيال. شاندي تصوّرتها هكذا، هي أيضًا لم تمسّ لكنّها معذّبة، ربما لهذا السبب. ترى، لمن وضعت تلك المقاعد الطفليّة؟ لا شيء مؤكّد هنا، لا هما ولا أنا. عندما شاهدتني أحدّق بصورة مضحكة بتلك المقاعد ابتسمت ورفعتْ رأسها تمامًا إلينا:

«من الجائز في مناسبة نادرة لا نعلم ما هي ستجلس على إحداها، ربما هي ثقة مبالغ بها، لكنّني وبدون تأفّف لا أستطيع تحاشي هذه الثقة».

التفتت إلى الدكتور يوسف:

«ألا تثق بصديقك يا دكتور؟»

«أكيد بالطبع، المهمّ هو. هه..».

عدت للنظر إلى تلك المقاعد وكدت أقوم وبدون أيّ اعتذار أغادر ولا أعود. شعرت أنّهما يريدان سحقي والضحك عليَّ. كيف خطر لهما ذلك؟ وهل يتسنّى لي هذا في يوم من الأيّام؟ شاهدتُ يوسف يقوم وينزلق على أحدها كأنّه لعبة من المطاط. صار كريهًا، أنتج كراهية فوريّة فأخذت معنى اللعنة. بلى، هو نحيف، بل هو هزيل بطريقة سحريّة. أوّل مرّة قلتُ له:

«أنت نحيف».

ردّ مباشرة:

«كلا، أنا ضئيل».

فكّرتُ أنّه سوف يزعل حين نتراشق بهذه الكلمات، ما بين

سمنتي وهزاله لكنّه لم يفعل ذلك قط. تلك الأمور لا تعنيه، يوسف لحمه مشدود، وأظنّ ليس لديه أيّة فراغات في بدنه، شيء ما لا أدري ما هو يحميه، ربما هي الإرادة التي تتحوّل في بعض الأحيان إلى معضلة. كل شيء فيه معتدل كأنّه اتخذ قرارًا أن يكون الاعتدال سيّد حياته، في الطعام والخمرة والنساء وتلك قصّة مؤلمة ولائحة لا يرغب أن يعدّدها أمامي. قلت له في أحد الأيّام:

«اسمع يا يوسف، مرّات أفكّر أنّك تقضي أغلب أوقاتك في التواليت، فكل ما تأكله تخسره وبسرعة عجيبة. لا شيء يبقى في جوفك وأنت أكول وشره أكثر منّي. لا أدري هل هذا غلط أم لا، ها.. لا تغضب منّي أرجوك أنا لا أحسدك أو أغبطك ولا أحبّ هزالك، فربما أنت مريض أيضًا ومن الجائز مرضك أخطر».

يا عيني على يوسف. فكّر ودبّر، اتصل وتناقش وطلبني مرارًا إلى لندن قائلاً:

«يا سرمد برهان الدين نريد أن نبرهن أنّنا نحبّك وسوف نحوّل لحمك إلى تمثال نسجّل به براءة اختراع لذريّة، ذريّتك. ونعزو كل ذلك إلى ما لديك من إفراط بالإرادة. تعال يا أخي هذه كمان حرب، حربك».

ضحك وأضاف:

«بعد الحرب على بلدك».

بريدان ترويضي شاندي ويوسف. هي، أول ما شاهدتها قلت:

«إنّها ممّن يشقّقون الشعرة ويتلوون تلوّي ثعابين الماء».

وإذن، سوف أمنحهما ما بقي منّي. حسنًا، ربما تفشل قواعد الحمية الغذائيّة وتفوز ضروب التأمّلات من يدري؟ وقفتْ شاندي وسارتْ بهدوء. كانت تحرّك كل عضو فيها كما لو كان لا نظير له، كأنّها بلا عظام، هي لا تملك إلاّ غضاريف ولحمًا وماء ودمًا وزلالاً وسوائل عذبة وها هي في محيط الضوء الخانس والظلال الهادئة في حلق النور، وهناك هالة ما، نعم هالات نهضتْ معها وهي تتحرّك وتصل إلى حيث أجلس فوقفتْ. أشرتُ بيدي إلى وسطي وابتسمتُ:

«إنّها الرابطة التي تربطني باللاإرادة وبالوجود نفسه. معذرة سوف أصغي إليكِ وأنا واقف أو مسترخ؛ أمّا الجلوس فهو شاقّ عليّ جدًا جدًا. هل تعتقدين أنّ الجلوس مرحلة متقدّمة من حضارة البشريّة؟»

قلتُ ذلك وضحكتُ. ارتفع صوتي قليلاً فنظر إليّ يوسف بشيء من الفرح الرقيق. كنتُ أتمشّى في الصالة، واصلتُ وأنا أسير:

«مراحل الوجود في ظنّي هي ما بين النوم والنوم، أو النوم وتصنّع النوم. من أين جاء القيام والقعود، الانحناء والركوع؟»

سألتُ بصوت ارتفع قليلاً:

«هل التصوير هنا ممنوع؟»

سألتُ بصورة غير متوقّعة. رفعتْ سبابتها إلى أعلى وهي تدور فيما بيننا:

«أجل يا مستر سرمد التصوير ممنوع».

تراءى لي أنّني شاهدتُ تصاويرها تملأ جدران المركز حين دخلنا في الممرّات وها هي أمامنا. صور للآنسات الشفّافات المشغولات على مهل وكأنّهنّ مخيّطات بالدانتيل والتول والحرير. صور لنساء ملغّزات غامضات يغطّين أكتافهنّ ورقابهنّ ورؤوسهنّ بخمارات برتقاليّة زيتونيّة وحمراء. نساء وآنسات، بدون آنسات أكثر من كونهنّ سيّدات. لا أدري كيف لاحظتُ ذلك ولماذا تصوّرتهنّ هكذا؟ لا أعرف شرح هذا الفرق بين الاثنتين. من أين جئن وإلى أين يذهبن؟ هل هنّ أحياء هناك في ذاك الزمان الأوّل، في الطبيعة في عنصري المصادفة والحدس فيما يسمّى بجشع الجمال. جميع الصور أحدّق بها وأردّد:

أجل يا مولاتي كلّكنّ مولاتي وتاج ذَكَرَي الخاتل ولديكنّ ما ينبغي الإقبال عليه حتى لو نفرتن منّي ومنه فسوف أعاود وأعاود:

«هل هذه صورك يا آنسة شاندي التي تملأ الجدران؟»

بطريقة بريئة أجابت:

«هذه صور خيالاتنا يا عزيزي».

لم يعجبني ردّها، لم تعجبني شاندي ولا أريد مضاجعتها، غلبتني بجمعها، هي هكذا بدت جمعًا مجموعًا وليست فردًا واحدًا. قبل أيّام صرت في الخمسين و«ألف» في الثامنة والأربعين ولديها ولد وبنت وأنا عجوز سفيه قندرة. مددتُ يدي إلى عضوي بحركة مباغتة، أمسكتُ ما كان، وبدأتُ بفتح

الأزرار. أجل، كنتُ أنوي شيئًا ما لا أعرف ما هو، أردتُ ذلك لا بقوّة ولا بإلحاح، أردتُ ذلك كتعاقب الليل والنهار، فحضر أبو مكسيم حالاً إلى رأسي فشاهدتُ يوسف واقفًا مواجهني، أمسك بيدي ورفعها إلى أعلى كأنّنا على وشك الرقص. كانت لدينا وسيلة للتعبير، هي هذه الطريقة المضحكة لكي يخبر بعضنا بعضًا عمّا بنا من خواء ويأس. سعى إلى عناقي واحتضاني. سعى على ذلك النحو لاحتضان ما بقي من صاحبي وصديقي وعضوي. بغتة، تعانقنا بقوّة، أخذني يوسف بين ذراعيه وأنا أختضّ من الرأس إلى أخمص القدمين، ممرور مضروب في كل جزء من بدني. آثر يوسف الصمت، أراد الاحتفاظ بي هكذا وأنا أرتفع وأنخفض مثل حوت في حوض سباحة ضاق به وشاندي اختفتْ. الشعر في مسامي بدأ بالقشعريرة وصوتي لا هو بالعويل ولا بالصراخ يضرب الوجه والأذن، الخدّين والذقن والثياب. كنت أدمدم كحيوان أبكم. كنت أريد البكاء لكي أشعر بشيء من اللذّة والتّلذّذ. أشتهي إيجاز نفسي وسط الدموع الخفيّة وفوق ذلك ألاّ أقول لأحد؛ صرتُ كريهًا، إنّ وعاء الكراهية قد امتلأ وإنّ هناك العديد من النعوت تريد الانضمام إلى تلك التي تسمّى التعاسة، فكان يحدث في بعض الأحيان «أنّني أجد أنّ التعاسة كبيرة جدًّا إلى الحدّ الذي أخاف أن أحتاج إليها».

* * *

جعلتُ يوسف يتصوّر بأنّني وافقتُ على الحضور من أجل وزني. سوف لا آبه ولو مؤقّتًا بالشراب والطعام، ألذّ اللذائذ. نعم أنا بدين نهم شره تجذبني اللحوم الغالية والأسماك العزيزة والبط اللذيذ والدجاج الصديق والبقر المبارك والعجل الأعزّ. تضحكني الحكمة التي تقول: غايتي أن أعيش سعيدًا، غايتي الأكل، هو الذي يهديني سواء السبيل أمّا ذاك الجنس الذي كنت أتصوّر أنّني أخبّئه للشدائد الآتية، وللنساء اللطيفات فلا أعرف كيف أثمّنه وأنا أشاهد النساء لا يكتفين بالمضاجعة مثلي. كنت أتصوّر أنّني أعرفهنّ بصورة حسنة، لكن كيتا دائمًا تردُّ عليّ: كلا يا سرمدي الحنون، فأنت تحتاج إلى سنين وأوقات طويلة جدًّا لذلك. وأظنّ أنّ ما نقوم به وطوال وجودنا هو كيف نحاول الاقتراب من بعضنا بعضًا. البيضاويّة كان لها رأي آخر من شدّة خضوعها لي لم أتوقّف عنده طويلاً. فمن حين لآخر كنت أمزح مع نفسي وأردّد: إنّ الجنس ما هو إلاّ مزحة حتى لو احتمل أن يكون قوّة مدمّرة، فبعد دقائق من الانغمار فيه يختفي كل شيء فنبدو لا شيء. يحصل أن أخدع نفسي، أحذّرها مرارًا وتكرارًا وأردّد أمامها: حسنًا، كل شيء انتهى ولم يعد لديك ما يكفي من

الماء لشطف فروج صاحباتك الغنّوجات. هنّ لا يدركن أنّ صاحبي سوف يختفي في أحد الأيّام، يختفي مثل كثير من الأشياء والموجودات والمدن والأماكن. هنّ لا يعرفن تمامًا كيف كانت حياتك من قبل وكيف هي الآن؟ الخمسون والبدانة تجمّعتْ في الأماكن الخطأ، جميع الأماكن في هذا السنّ غلط. أشاهدُ نفسي في المرآة فأتصوّر أنّني أرى دليلاً سياحيًّا وما هذا المركز إلاّ رحلة مدرسيّة سوف أصادف فيها أمكنة لم تطأها قدماي من قبل، في أرض نفسي مناطق من الألم الجذري ورضوض الرأس واضطراب الذاكرة، خاصّة للوقائع قبل وبعد الرضّ المروّع الذي أصاب أراضي المهجورة، تلك. يوسف لم يحسدني على بعض نجاحاتي مع النساء لكنّي أنا الذي كنت أراقب خيباته معهنّ فكان يتجنّب الحديث أو يرمي المحادثات بعيدًا عنهنّ. كيف يا يوسف؟ يصمت ولا يردّ فيبدو عندما نلتقي في لندن أو باريس أنّه دائمًا في فترة نقاهة من الذي كان يسمّيه المرض، الذي لا اسم له ولا شفاء منه. شيء لا يجيب عليه بالنفي ولا بالإيجاب لكنّه يستطيع تسجيل تسعة اختباءات من التورّط بما يسمّى بالعلاقة المعذّبة الفاشلة والمهدّدة بالمرأة. هي، تلك المخلوقة التي لم يحسب كم من الأزمان تمضي ومضت دون أن يخطو نحوها. كلا، لم يكن منيعًا أو معزولاً، هو فقط لم يفعل أيّ شيء من أجلها. صحيح تزوّج فرنسيّة تكبره كثيرًا لكنّ الأمر يتعلّق برجل حدث أن أخفى نفسه عن زوجته، حدث أن شاهد نفسه أنّه ليس في محلّه. قلت له في أحد الأيّام:

«هل صرت طبيبًا نفسيا من أجل نفسك بالدرجة الأولى؟»

«لا أحتمل سخريتك يا سرمد. إنّني أراقب النساء كما هو تعاقب المدّ والجزر فأكتفي بذلك ولا أعود أريد شيئًا منهنّ بعد ذلك. تمامًا أحترق وأصير رمادًا وأعرف أنّ المرأة بعيدة ومتعذّرة. كلا، ليست مستحيلة، لكنّني لا أستطيع أن أعرفها. روزالين كما ڤيونا هي التشهّي الوحشي والمدمّر كلّما نتضاجع لا يظهر لي صوت فأتصوّرها ترصّني بيدها وذراعيها وسائر أعضائها كما يفعل البنّاء بترتيب الحصى والإسمنت والجير والطابوق. تنظّمني في جميع أقسام جسمي مستخدمة الموادّ المتوافرة محلّيًّا لديها، أنا بالدرجة الأولى؛ منزل جميل، سيّارة تتجدّد كل عامين، نجاح مهني وابتعاد عن الأضواء إعلاميًّا واجتماعيًّا. عمليًّا أنا أقضي وقتي ما بين العيادة والتأمّل فكانت تتصوّرني معتوهًا وأنا أسجّل نفسي في المركز الخاصّ باليوغا البوذيّة».

في أحد الأيّام وصلني ظرف سميك وكبير وفي داخله بطاقة مقصوصة بطريقة غريبة جدًّا من الكارتون الأسمر، وحين تأمّلته جيّدًا، بدا لي أنّه يشبه أعضاء الذكر والأنثى ممتزجين بطريقة تنمّ عن قدرة تشكيليّة كبيرة، ولكن بتصوير بشع للمرأة أيضًا ومكتوب فوقها بالفحم: هنّ وليس غيرهنّ لهنّ روائح مقرفة، حليب فاسد وطبيخ بايت وبراز يابس. سرمد، سوف أضع عضوي في صندوق زجاجي وأسلّمه إلى متحف العصور الغابرة. روزالين لا تمهلني ولا يوم بدون نكاح. هي لا تؤدّي وظائف الجمهوريّة الفرنسيّة على ما يرام إذا لم.. هل تعلم، كنّا نعرف فلانة من سحنتها

المكفهرة وعصابيتها ونكدها وقلّة صبرها على المراجعين في دائرة الهجرة والمساعدة الاجتماعيّة...

كان يتصل فيجدني في سريري وحيدًا وهو أيضًا في أغلب الأحيان. كنّا وحيدين، الجنس لا ينقذ وهو مجرّد فراغ، يدع اليد فارغة والجسد خاويًا. فيجيب يوسف:

«كلا، هذا يدعوك للرثاء حين لا تفصح عن نواياك تمامًا وتتظاهر أنّ الأمر ممتاز».

لا أعرف كيف يموّه يوسف على وحدته، أمّا أنا فقد كنت أطلق أصواتًا وأعمل ضجيجًا فأشعر بأنّني أزداد تفاهة. من المؤكّد أنّ ثمّة أفرادًا على شاكلتي لكنّي لا أدري أين سيتمّ اللقاء بهم، فالبرد الإنكليزي القاتل والرطوبة التي تسري في مفاصلي تعلم المرء في سنّي أنّ اللذّة ذاتها يداخلها شيء من النفور والتعب، حين ينخر البرد بعزيمة لا تلين مناطق لطافتي فيبدأ صاحبي بالانكماش وتفوح منه رائحة فشل مضاعف. يزداد اختفاء ولا يجيد تقليب الأمور على أوجه مختلفة واختيار أقلّ الحلول كلفة، وأنا أراه يتجمّع كاللحمة الباتة المتغضّنة التي يميل لونها إلى سواد يثقله البني القوي داخل لباسي الصوفي الطويل قبل أن أدفئه بالكيس البلاستيكي المبطن هو الآخر بلباس صوفي، أملأه بالماء الساخن جدًّا وأضعه بين ساقيّ وأصعّده بالتدريج ما بين فخذيّ وأنا محشوّ بالجوارب الصوفيّة الطويلة السميكة. التدفئة المركزيّة ليست على ما يرام دائمًا وأصحاب البناية هم الذين يتحكّمون بدرجات الدفء. فكنت أفزّ وأرفس اللحاف والبطّانيّة

عنّي لكي أتفرّج على ما حلّ بي فأوشك أن أطلق صوتي بالصراخ لدعوة جميع من أعرف للفرجة عليّ. كنت أشبه رجال الفضاء، هكذا أردّد على نفسي قائلاً؛ هيّا ابتعدوا من طريقي لكي أمرّ. دعوني فلم يعد أيّ شيء في متناول يدي. ملفوف معصّب بالأبيض إلى رقبتي ورأسي مغطّى هو الآخر بقبّعة صوفيّة من اللّون الرصاصي الفاتح ونظّاراتي بإطارها الأسود السميك وشاربي صبغته البيضاويّة باللون الرمادي فظهر كأنّه يعجّ بالبعوض والذباب. قلت بعراقيّتي البغداديّة التي تفهمها تمامًا، لكنّي كنت أخاطب نفسي بالدرجة الأولى، إنّ جميع التعاريف عنّي ناقصة وما عليّ إلاّ إعلانها على هذا الشكل:

«والله ما بي حيل لنزع أيّة قطعة من ثيابي لا من أجلك ولا من أجله ولا من أجل تلك البلاد حتى».

لكن كيتا كانت تنظر إلى شاربي فيما بعد، أحسب أنّها تعرف باقي عشيقاتي لكنّها تأخذ مني ما تشتهي:

«شاربك يبدو طبيعيًا، ها، إنّ الكذب جزء من الحقيقة».

لا أعود أعرف من هو هذا الذي أراه أمامي في المرايا. أصفق يدًا بيد وأنا أنظر إلى صاحبي:

«يجب ألاّ تموت بسبب الهواء والبرد والثلوج والرطوبة والحماقة. إذا كان عليك أن تموت فما عليك إلاّ الوقوف بوجهي أنا أوّلاً.. ثمّ بوجوههم جميعًا. قف أوّلاً بالباب الخارجي من جسمي وابدأ بالوقوف حين يكون القمر بدرًا. هيّا كشّر عن سنّك

الذهبي وأطلق هتافك للنساء. تصوّر أنّك ستموت كل ليلة من أجلهنّ. هو الموت الذي يعاود ولا يمكن تفاديه بالدموع بالهوان بالفرار.. أو أو..».

قلت لكيتا في أحد الأيّام:

«أريد أن أموت فوق امرأة أو تحتها أو ما بين امرأتين، أو أنّ امرأة أو مجموعة نساء يبتلعنني فأطمر داخلهنّ فلا أعود أنا».

آه منهنّ، كنّ يتناوبن عليّ ما بين أوروبا وأفريقيا والشرق الأقصى، يشبهن الأمواج المتلاطمة يصعدن فوقي وأزيحهن من تحتي فلا أشاهد إلاّ عزلتي، لا أخافهنّ تمامًا كيوسف، أشتهيهنّ وأفزع منهنّ قليلاً ولا أطيقهنّ طويلاً. الماليزيّة الرقيقة الصغيرة جدًّا، تقول عن روحها، هي تشبه البطاقة البريديّة. كانت حنونة ودافئة جدًّا. غيّرتُ اسمها من راما إلى راضية ووافقتْ حالاً. ظلّتْ تدمدم:

«أقسم إنّك تشبه طفلي. ألبسه الحفاضات ثم اللباس المبطّن هو الآخر، فالجوارب الطويلة ثم بنطلون البيجاما وحين أحاول شطفه أقوم بحركة واحدة، أعرّيه وأنزّل جميع تلك الأشياء إلى أسفل فتظهر حمامته وبيضاته ملوّثتين فأبدأ بالشطف واللعب وهو يضحك على العكس منك. فها أنت تبدو عبوسًا وأنا أعرّيك فأراك من تحت عيني الصغيرتين؛ لا تأمل بأيّ شيء، لا منه ولا منّي ولا من نفسك. لا تزعل مستر سرمد، حين أحملق في ذلك الذي غيّرتَ اسمه إلى اسم عربي صعب النطق به، وطلبت منّي أن أعيده على مسامعك، أضحك بصوت خفيض وأشعر أنّك شبه

مرتاح ممّا وصلت إليه، أقسم بذلك، أنك أوصلت إليّ رسالة بها جميع تلك المشاعر. كنت تتباهى، ربما، أنّني لا أعرف ماذا يقال بالإنكليزيّة تمامًا، لكن هذا هو الذي وصلني منك يا سيّدي، ولذلك صرت تطلب القيام بتدفئته، سألتني تغطيته ولمسه بأيدٍ دافئة ومناغاته وإلاّ خسرت عملي. أمّا أنا فقد كنتُ أبحثُ عنه وأحاول العثور عليه. لكن، قلتُ لنفسي، وربما، ما سوف أقوله ليس دقيقًا تمامًا فسامحني يا مستر سرمد من فضلك؛ أنّ استمرار البحث عنه يقرّر قوّة وجوده. كأنّ الاختفاء من صميم طبعه، فأقطع أنفاسي وأردّد بيني وبين نفسي لكي لا تسمعني يا مستر سرمد: لم أشأ القول إنّه يحتضر لكي لا يقطع رزقي، لكن هذا الأمر هو الآخر غير دقيق. كيف أقول لك وللدقّة، عليك بتنظيم نفسك ثانية وتعيد تربية نفسك أنت يا سيّدي. سامحني فقد جاءتني هذه الفكرة للتو».

بدّلتُ اسم الماليزيّة إلى راضية فوافقتْ ولم تفهم معنى اسمها الجديد. حين شرحته لها وافقتْ وابتسمتْ وهزّتْ رأسها:

«من يرضى الآن يا مستر سرمد إلاّ أقلّنا رغبة بالرضا وأنا لا أهتم إن كان اسمي رافضة حتى».

لم تكن تنظر إليّ، في عيني. شاندي هي أيضًا فعلتْ هذا، لم أر عينيها تحدّقان في عيني، في البؤبؤ. العين تؤدّي إلى قتل النفس ونعيم المعاصي بأسرها وعينا شاندي العسليّتان اللتان لا تتحدّثان إلاّ بصوت الفتنة الخفيّة، تبقى تحاول لكنّ الجفنين يبقيان شبه مغلقين. أنا عيناي قرّحهما السهاد والاستمناء السابق.

لم أنبس بكلام لا لزوم له. تركتهما، يوسف وشاندي، يقومان بترتيبات أوضاعي كلّها. ليسا عاشقين ولا صديقين حميمين. هما طبيبان، بمعنى من المعاني. قالا بصوت خفيض:

«أجل هو مريض...».

وأنا أضفت، مريض وبائس. وطوال الوقت الذي استغرق حديثهما، حوالى الساعتين خاضا في أنواع وأوقات وأشكال التدريبات اللازمة والفحوصات الواجب إجراؤها التي كانت تنتظرني.

بدت شاندي وكأنّها تؤدّي دورًا مغناجًا في مسرحيّة تسبح في الفضاء أو قادمة من هناك، ما إن أنظر إليها وخلسة حتى يرتدّ بصرها إلى نفسه فتعود لتراني، هكذا، تراءى لي، رجلاً صاحب مشكلة ولن تحدث له أيّة معجزة لحلّها. سمين ويعول باكيًا إلى الداخل ودموعه تخرّب رغباته فيحاول الابتزاز من يوسف أوّلاً، وها هي تدخل الشرك أيضًا، فماذا تريدين أن تعرفي عنّي؟ تنظر في بقعة لا أراها تمامًا كما لا أرى «ألف» للتو لكنّي أراها. في المركز الذي صوّره لي يوسف، أنّه سيعيد لي حقوقي الجنسيّة، هو لم يذكر هذا قطّ، لكنّي امتلكتُ الصفاقة أن قوّلته هذا عن نفسه. لم يكذّبني حتى. حادثته ولوحدي ودون أن يسمعني:

«من أجل «ألف» فقط وهي بين أنقاض الروث والبلد. من أجلها هي حضرتُ. «ألف» الوحيدة، على الخصوص هي لا أنتْ، ولا..».

أشارتْ شاندي بيدها فوقف يوسف. شاهدتُ ساقيه وأنا لازلت أنظر إلى أسفل. سارتْ أمامنا فمشيتُ وراءهما. الممرّات خالية طويلة ورطبة فملأني المشي البطيء شيئًا من الراحة. حركة أقدامي أثقل من حركة فيل في مصنع للصمغ، لكنّي أقسم وأغلظ الأيمان، أنّني لست ساخطًا على بدانتي فقد قرّرت سؤال شاندي إن كان جسمي الفيزيائي يزعجها وهو يمشي بكل هذا الثقل، فلا أنا قادر على الجلوس الطويل ولا رفع الذراع أو الساق والفخذ. أزعجتُ كيتا وراضية، إلاّ البيضاوية، ظلّت تردّد بصوت قوي:

«أحبّ جسمك الآن ومن قبل. أحبّ هذه التغيّرات كلّها. لم أرك نحيفًا بالطبع ولا بين بين، لكن وزنك زائد، إيه، غير كنقول غليظ غير شويّة، ثم...».

هل يعقل أن أقيس نفسي وذاتي وجوهري بمقدار وزني ولحومي. هل هذا عدل؟ لماذا لا يتمّ قياسي بوزن آلامي؟ أكثر ما أشتهيه وأنا أمشي خلفهما قدح فودكا مثلّجًا فوقه بضع قطرات من عصير الليمون. الغرف التي كنّا نجتازها كانت مغلقة بإحكام كما لو أنّنا نصوّر شريطًا بوليسيًّا أو نفسيًّا من الطراز القديم. هذه القدرة على الإغلاق الناجز تخيفني كأنّ هناك محبوسين ليس بمقدورهم الخروج. لا أحد يبدو وراء تلك الأبواب، لكن ذلك بالطبع غير صحيح ولا دقيق. المريدون والطلاّب الجدد كانوا في منتهى الطاعة. لم أر أحدًا بعينه، بمعنى، لم أر مخلوقًا مثلي ومثلهما، يوسف وشاندي. كنّا نشاهد أشباحًا بعيدة، أطيافًا غامضة تمشي كأنّها في حلم، تطير ولها أجنحة. أقسمتُ ليوسف بذلك فقال:

«أنت تبالغ. أنت سيّد المبالغات».

نعم، أنا في الغالب هكذا، بالمبالغة أسترجع قليلاً من رتبة القنصل الفخري، صاحبي. شرح لي يوسف قائلاً:

«ثياب بعض العاملين والمعلّمين نسيجها من الموسلين والقطن الثمين، وربما الحرير، وهم فعلاً يشبهون الفراشات في الخفّة والرشاقة. فالملابس طويلة وتنزل إلى منتصف الكاحل وهي هفهافة تسمح للضوء والهواء أن يشقّا طريقهما إلى صدورهم فيبدون كالطيور، أو والله أنت جعلتني أتحدّث عنهم ولأوّل مرّة وكأنّهم أشباح».

لكنّهم فعلاً يتمايلون. أظنّ أنّهم يصلون ويرتّلون تراتيل بوذيّة أو تعاويذ أو قصائد. قال يوسف:

«هناك أشياء من هذا القبيل لكنّك تتلفّظ كل هذا مع روحك. لن تسمعك إلاّ نفسك وما عليك إلاّ اختيار صلواتك ولوحدك».

ارتحت حين سمعتُ ذلك فأنا حافظ السيّاب والنوّاس وسوف أضع أناشيدهم تحت لساني وألهثُ بها وأنا تحت رحمة شاندي. لا أحد انتبه لبدانتي، لا أحد توقّف وتفرّج عليّ كمخلوق غير سويّ تعجّ منه الفوضى والعيوب والأمراض وتتصاعد منه، من أيّ مكان، في الإبط أو بين طيّات البطن روائح تتدفّق من بقع سحيقة في تاريخ الأغذية الشرقيّة، فالسمنة جعلتني رهن ذلك الاحتلال الذي لم أقدر على تفاديه ولا عاد سرًّا ويمكن الاحتفاظ بوصفاته المميّزة. السمنة تسيّجني فلا يظهر فحشي وخجلي. يا إلهي، لم

أحضر إلى هنا طالبًا النجدة، كنتُ أتوق أن آتي باريس وأسدّد شحومي ولحومي، توابلي وإفرازاتي في فرجها المتبّل المعطّر مودّعًا لندن مقرّ قيادة العالم الجنسي القديم. بداتني لم تكن أمرًا مقزّزًا كما أشيع وردّد بعضه ما بين عموم أحياء لندن وضواحيها العامرة بهم. ثمّة ما هو هذا وذاك في جميع أجساد البشر. من المؤكد، انتبهتُ إليه شاندي وربما يوسف «في هذا الجسد النتن المتحلّل، الذي يتألّف من عظم وجلد وعضل ونخاع ولحم ومني ودم ومخاط ودموع ورشح أنفي، وبراز وبول وفساء وصفراء وبلغم» وما كان يجري داخل الأحشاء والأعضاء والعضلات والغدد واللعاب وكروموزوم الجنس المذكر يتلألأ وسطها برّاقًا، لكن إذا ما رصدنا جزيئات D. N. A. بأنوية خلايا الجسم كلها صار طولها مجتمعة أكثر من المسافة بين الشمس والأرض التي تبلغ ٩٣ مليون ميل.

كل شيء هادئ في هذا المركز. عيني فارغة ومعدتي خالية وهذه الممرّات أيضًا كأنّنا نستعدّ لخلط أشياء منّي ومنهم، بهم وبي لكي أغوي أحدًا بالظهور أمامي وها أنا أحضّر المواد والحركات، الاصطكاك والهذيان، للمزيد من اللهو واللعب والتشهّي الذي صار لا طائل من ورائه. صوّرتُ عنق رحم شاندي ضيّقًا وصغيرًا، وهو مزوّد بغدد كثيرة تفرز مادّة هلاميّة مخاطيّة تسدّ مجرى العنق وتعتبر سدًّا كيميائيًّا يوصل بين الأعضاء التناسليّة الخارجيّة والداخليّة، وهو بحالة من تفاعل كيميائي يبيد الجراثيم الضارّة إذا ما حاولت اقتحامه للوصول إلى الداخل،

وتفاعله قلوي وهو بذلك لا يلائم الدود في نطفة الذَكر، أيّ ذكَر إلاّ ذَكَري. توقّفتْ شاندي أمام إحدى الغرف وأنا توقّفتُ أمام حوضها وفرجها. قالت:

«هنا غرفة تغيير الملابس».

استعددت لكي أخلعها ثيابها وأنا أختضّ. بمقدوري التشهّي في أيّ مكان أكون فيه؛ الشهوة تتشقّق من جلدي وترشح عرقي وتهزّ شعر رأسي. هنا مكان تغيير الثياب؛ كرّرتْ شاندي كأنّها تريد أن تجعلني أصحو من خيالاتي. دخلنا وراءها إلى ذلك المكان الرطب المعتم قليلاً. الأرضيّة من الطابوق العراقي، أقسمتُ ليوسف بذلك فيما بعد لكنّه قهقه قائلاً:

«عال. إنّه من هناك أسعد يا قلبي، هو آخر آجر خصوصي استقدم من المغرب، من مدينة مراكش بالضبط. فقد سألتها أنا أيضًا، فأنت لم تذهب بعيدًا».

المكان نظيف جدًّا. المرايا رقراقة ومتعدّدة. الدواليب التي سنضع فيها المناشف والثياب والحاجيات الخاصّة بنا كانت طويلة جدًّا ورفيعة جدًّا، أنحف وأرقّ من أحد فخذيّ. المفتاح صغير أشبه ببصمة إصبع:

«أين أضعه؟»

من الجائز سوف أفقده بين طيّات ثيابي وشحومي. ضحكتْ وهي تسلّمني المفتاح، رأسه أسود ومعدنه فضّي وفي وسطه خيط سميك:

ربّما، تصوّرتُ سوف أعلّقه برقبتي لكي لا أنساه.

«أظنّ أنّ ما تفكّر به صحيح. بعضهم فعل ذلك، وضعه بسلسلة، إمّا في جيب سرواله أو شدّه في يده. تفكّر في وضعه في الرقبة ولم لا؟» صمت وسكتت. ألتفتُ وأنا أخاف النظر في عينيها. الأحواض من حولنا كانت بلون أبيض والبخار يتصاعد بطيئًا من فتحاتها الجوّانيّة، وسطوح المرايا بها شيء من الندى فمسحتها براحة يدي وشاهدتُ وجهي ويوسف ورائي:

«هذه المرايا تجعلك تجيء مبكرًا ولا تتأخر.. هيّا سنتركك قليلاً، غيّر ثيابك والحق بنا».

شاهدت وجهي أمامي وفزعتُ. كان عليّ أن أزيّف الواقع قليلاً، أترجمه إلى لغة أرقى قليلاً منه. أبصر «ألف» بوجهي، أشاهدها في صوتها وأنا أسمعه:

في تلك الشرائط حيث كتبتُ لها: في صوتك، موت متعدّد لم تتنازلي عنه. ألا تصدّقين ذلك، إذن اسمعي صوتك ثانية وثالثة وإلى ما لانهاية.

بدوتُ أمام نفسي شخصًا غير مرغوب به. لا أفضل ولا أخرى. لكنّي لازلتُ أحمله على كاهلي. ماذا أفعل هنا؟ ماذا بوسعي أن أفعل هنا؟ أكوّم حالي وحيلي ونفسي وأرى يوسف يبتسم بوجهي من وراء الباب الموارب: أنا عريس الغفلة. قلّة لياقتي لم تضايق شاندي، بل على العكس استهوتها، لكنّني لم أهتم بذلك. عرفتُ طرق الغرف، الحمّامات المتوارية بين الممرّات، وصالات التمارين. قال يوسف:

«هناك تمارين لكلّ عضو في الجسم البشري».

سررتُ وخفتُ. خاطبتُ صاحبي:

«ستجد من يجدّد ذاكرتك ويخربط وعيك».

تعلّمتُ كيفيّة الوصول إلى غرف التأمّل، فالممرّات طويلة وأحيانًا تصيبني بشيء من الخوف أن أتيه ولا يعثر عليّ أحد، إذا ما أصابني شيء ما، دوخة، دوار، إغماء؛ فلاحظتُ كاميرات بحجم الكفّ وأجراس الإنذار في الحمامات. لثانية من الزمن شعرتُ أنّني أسمع في داخلي أصوات جيش من الرعاع. أسمعهم وأخشى أن يصل أسماع شاندي وباقي المريدين. خوفي هو الآخر يخرج أصواتًا من الجوع الشديد، يقرقر بصوت غير لطيف ومنخفض. أمشي وراء شاندي فلديها إشارات تدلّ عليها حتى لو كانت لا تتكلّم، فالهواء الصادر من رئتيها والعرق الذي ينزّ من مسامها هو دليلنا عليها. لماذا لا تتحدّث؟ وبالرغم من ذلك كنت أسمع صوتها. تلفت الأنظار بسبب جميع ما تملك، تقول لك؛ اتبعني دون أن تشير بيدها. بدنها يعثر على سبله المفقودة. على السهم الموصول إلى باقي الغرف والصالات. آه، يا سرمد أفندي، بدانتي تتكفّل بوحشة الليالي والنهارات، أمّا الألم الصاغ السليم فها أنا أتظاهر باللامبالاة إزاءه. لست سيّد نفسي، لا أحد سيّد نفسه؛ وبسبب هذا تتوسّطني «ألف» وتفرش جلدها الذهبي عليّ. رجل تتجاهله جميع النساء، يقطعن سبل الحديث والسكوت فأغرم بـ «ألف» أكثر، أصمد وهي لابدة فيّ وأنا تحتها، فأسرد لها قصة كرشي اللطيف المخيف.. أنا كما هو:

نتجدّد ونتحلّى بدرجة كافية من الحرّيّة. عندما فحصني يوسف بعد أيّام من وصولي باريس، قال، هكذا كنوع من الرياضة أو إملاء وقت الفراغ ما بعد الظهر. وقف فوق رأسي كأنّه يترأس اجتماعًا حزبيًّا، وقال:

«إذا شئت انزع سروالك. اسمع سرمد! أنا لست متأكّدًا ماذا تعني حالتك. لا أعرف تمامًا ولا أقدّر الأمر إذا كان غاية في السوء؟ هل حصل احتباس في البول وعلى دفعات، والبراز كيف هو؟ هل غاب التعرّق ولو مؤقّتًا؟ هذه مظاهر أوّليّة لما جرى ويجري لك».

لم يشبه طبيبي الباكستاني أبدًا فهو في الأصل طبيب نفسي، نال دبلومًا معمّقًا إضافيًّا بما يمكن ترجمته: الرخاوة العضليّة. كان يتحدّث ببطء وكأنّه يسحب أشياء من داخل أحشائي فتتكوّم بين يديه ويرميها بعيدًا على الكرسي كما كوم سروالي، فشعرتُ أنّني أشبه منطادًا سوف ينفجر بعد قليل بين يديه. حين لمس أخمص القدم ازداد ارتباك الساق، بحيث لم أنتبه وهو يحاول أن يرى هل لازلت أمتلك منعكسات وتريّة للرضغة والعقب، وهل سينتبه القضيب حتى لو كانت انتباهة ذات سخرية قارصة. كنت مسترخيًا لا أفكّر به ولا بأيّ شيء محدّد:

«الألم الذي لا يكفي».

قال يوسف ذلك بصوت خفيض ولم أعرف هل كان وجهي يخفي كل هذا، إذ إنّني أصدر ألمًا لا يرى بالعين المجرّدة، يراه يوسف ويقدر على حسابه وتعداده. هل ألمي كالحصى، كان

يقدر أن يرصف به شوارع مدينة ما، ربما، مدينتي إيّاها.

«اسمع سرمد! في اضطرابات الوظيفة الجنسيّة كل شيء ليس على ما يرام مثل إصابة النخاع الجزئيّة، وأنت أخبرتني أنّك سليم بمعنى ما. في هذا الجانب، تصوّر يمكن حدوث انتعاظ في معظم المرضى الذين تكون إصابتهم أسفل ـ الشُدفة Segment، لكنّ القذف والنشوة الجنسيّة يحدثان في أقلّ من عشرين بالمائة منه. أمّا إصابة النخاع التامّة فقد يحدث الانتعاظ عقب دغدغة موضعيّة وليس بسبب ذهني أو نفسي، ولكن لا يحدث قذفٌ كما أحاول الآن يا سرمد. خطرت لي هذه الفكرة ونحن في المركز وأنت تحاول فتح أزرار سروالك وإخراج صاحبك المموّه أمامنا، على الخصوص شاندي. لا أدري لم تصوّرتُ وأنا أفحصك، أنّ الاختفاء ميزة الإنسان ألا ترى الأمر كذلك؟ ماذا أقول لك، ذَكَرك له أثر واحد فقط: تخصّصه للبول. هذا كل ما في الأمر».

تراءى لي أنّ يوسف داعب صاحبي أكثر ممّا يجب. كانت يده وأصابعه تحمل شارات كثيرة حمّلتها أنا من جانبي احتمالات شتّى من الجاذبيّة والقوّة. هل كان يوسف مثليًّا وطوال تلك السنين وأنا لا أعلم؟ كالمولّد الكهربائي كانت يده تريد أن تحيي الميت، لا.. أنا، لم تزعجني حركاته ولا شعرت أنّها غير أليفة على بدني. حاولت طرد هذه الأفكار واستدعاء غيرها منذ بدئها في بغداد وهو يعيش في القسم الداخلي الكائن في باب المعظم. قمت بتوبيخ حالي وأنا أشطّ بأفكاري. أي، وماذا في الأمر؟ ماذا لو شطّ جسمي وجسم يوسف؟ «فهذا الجسد الذي تملأه

الشهوة والغضب والجشع والوهم والخوف واليأس والحسد، والنفور ممّا ينبغي الرغبة فيه، والإقبال على ما يجب النفور منه. الجوع والظمأ والعقم والموت والمرض والحزن وما إليها» في أكثر الإجراءات عبقريّة، تلك التي شاهدتها لبدين ومعتل في الأوّل والآخر: صانع الألم لك ولمن حولك يا سرمد. «ألف» ويوسف وكيتا والبيضاويّة وأبو العزّ.

* * *

أوّل تلميح، أو فلنقل أوّل تمرين، أوّل غزل للحمي ولحم شاندي ظهر. أوّل كلام ما بين الصدر والظهر. لم أعد أدري بأمانة من هو القائد هنا، ظهري أم صدر شاندي؟ عندما اقتربت منّي في أحد الأيّام وكان قد مضى على وجودي ثلاثة أسابيع. دنت كثيرًا وانحنت أمام أذني اليسرى وهمست:

«بالطبع هذه ليست التمارين الأولى لك لكنّك لا تقوم بما يتطلّب منك يا مستر سرمد. ربما تتصنّع ذلك لكنّك لا تصغي إلينا كما ينبغي. ربما تذهب إلى مكان آخر لا نعرف وجهته، لكن أرجوك، التعليمات هنا صارمة، هيّا، لا بأس. الماضي لا يعود والحاضر يتغيّر والمستقبل يتدفّق بهدوء أمامنا. هيّا من فضلك سوف نعاود ونكرّر ثانية وثالثة. صعبة، هه، طبعًا من المؤكّد أنّها شديدة عليك. الصعوبة موهبة أتمنّى أن نتلذّذ بها. السهولة موهبة هي الثانية لا أرجو التحلّي بها. أرجوك لا تفكّر أنّ وضعيّتك من التفاهة بحيث لا تستحقّ بعض العناء منك. أرجوك يا مستر سرمد».

كانت تبتسم برقّة متناهية وتستمرّ بصوتها الخفيض تتحدّث عن الذّات العاديّة لا الفريدة عن الذوات التي لا تشيخ ولا تذبل. قالت:

«من الجائز أن نتحوّل إلى تلك الذات في أحد الأيّام. لا ندري حقًّا ولا ندرك ذلك تمامًا. ماذا يحصل لأرواحنا بعد التمارين العميقة والصامتة التي أجريناها على أنفسنا. ستلاحظ ذلك في أحد الأيّام يا مستر سرمد وأنت تقرّب نفسك منّا. هيّا، أنت قادر على الولادة من جديد. لا تطلق السخرية أرجوك وكأنّ هذه موجّهة إلينا. ربما، لا تثق بنا بصورة كبيرة فالجميع كان مثلك في البداية، متردّدًا مضطربًا وقلقًا جدًّا. هيّا فلنعد إلى هذا التمرين الصعب. اقطع نفسك وادفعه إلى مكان داخلك، إلى جزء بعيد منه لكن لا تستنفده كله، كلا، لا تتوقّع أيّ خطر. أرجوك، جذعك إلى أعلى أعلى. كلا، يا مستر سرمد، ليس بقوّة، القوّة تخرّب الصفاء الداخلي وهي غير نافعة هنا. بهدوء رجاء. الهدوء يتطلّب إرادة أقوى من العنف وتأثيره أعمق هنا في هذا المكان وربما في أمكنة أخرى. هيّا أكثر، أكثر هدوءًا من فضلك».

حين أمسكتُ ڤيونا صاحبي ورفعته إلى أعلى كرّرتُ ذلك في عزلة الشهوة وأسرار التشهّي كما شاندي وهي تردّد؛ هدوءًا، أكثر هدوءًا. لم أنظر في عينيها كما لم أنظر في عيني ڤيونا. هنّ كلّهنّ يأخذنني إليهنّ، يخترقنني وينغمسن في مصيري. لم أنظر في عيني شاندي كما فعلتُ هي هذه المرّة. كانت نظراتها خاطفة لكنّها صاعقة:

«لا أتقدّم منذ أسبوع، هه. لكنّي أحاول. ألا تشفقين على حالي قليلاً»؟

قلتُ لها هذا بصوت بعيد. تحضر ڤيونا في هذا المركز، هي

التي درّبتني على الهدوء المميت. ما زال طعم هدوئها تحت إبطي وحالبيّ، وكيتا التي قالت اتبعني إلى برلين فبقينا نمشي وأنا أسألها: أين شقّتك! فلا تجيب. ثم عدنا ثانية في الطريق ذاته والثلوج تغطّي جميع الأشياء من حولنا، فقالت:

«ربما أضعت بنايتنا».

أغرمت بـ تنا ـ ذلك الجمع الذاهب إلى المرجعيّة الشيوعيّة، لكنّها قالت ذلك كأنّها تقول: أنت يساريّتك ذات مذاق إيروسي، وصولاً للبيضاويّة التي كانت ذات فحيح جنسي أكثر ويؤثّر على شهواتي الفمّيّة والشرجيّة سويًّا. فبعد التي واللتيا نزل وزني ثلاثة عشر كيلو غرامًا. حاولتُ إطلاق عفطة عبقريّة لكنّي لم أقو. أوّل مرّة أشاهد الميزان وهو يتناقص.

عادت شاندي ونَفَسي يكاد ينقطع:

«كلا، ليس دقيقًا ما تقوله. ليس هناك من لا يتقدّم».

ابتسمتْ وعادتْ ثانية. صارتْ ورائي وأنا جالس على حوضي فوق أرضيّة قاسية وهي تمسك بساقيّ، تسندهما قليلاً إلى جذعها في أصعب حركة جرّبتها في حياتي، وتبدأ بتحريكهما إلى أسفل وأعلى:

«للنَفَس فوائد كبيرة علينا أن نقطع منه بضع ثوانٍ كل يوم. كأن نخبّئه أو نسرقه ونعيده إلينا. نعم، نقتنصه من حالنا وندعه يسري في اتجاه آخر. لا شيء يتمّ من دون تحضير طويل. ابدأ به، من سحر النَفَس الأوّل البسيط الصريح يمكن المنتحل من غيرك.

ترى، كم سيكون بمقدورك اجتياز مرحلة التكوين الأولى هذه؟ النَفَس عضو مزدوج لأنّه قابل للمزج والاختلاط وهو لا يعود للقوّة، قوّتك، وإنّما إلى شيء آخر سوف تجده بنفسك، ومن الجائز أن تعلنه أمامنا هنا في هذه الصالة».

كنّا ستّة من المريدين ومن جنسيّات مختلفة، كل واحد كان يليق بمواطن من بلده إلاّ أنا. شعرتُ أنّني مطرود إلى لامكان وأنّ بهائي يزداد طالما أنا هكذا. لا أحد يشيّعني إلى مثواي الأخير ولا أحد يعرض عليّ إلاّ الاستئناس بموتي.

من غير المتعذّر حبّها. هكذا صرختُ وأنا أتلوّى من الألم وشاندي تريد أن تكلّل جهودها بالنجاح فتدعني أبدو أقلّ شأنًا من حالتي الحقيقيّة. أنا المترجم والباحث والمخدوع وعدد آخر من الألقاب لم أعد أتذكّرها ولا أظفر إلاّ بأسوأ منها. وافقتُ بيني وبين نفسي وشاندي تجري عليّ الإصلاحات وأنا أشاهد من زاوية أخرى الآنسة «ألف»، التي كانت هكذا حين كنّا في المدينة، وفي الصف الأوّل من كلّيَّة الآداب قسم اللغة الإنكليزيّة. كدتُ أتوقّفُ عن الكلام والتنفّس كما أنا اليوم وأنا أراها أمامي. هل عرفت «ألف» خواص اسمها فهزّت كتفيها استهتارًا، أم استخفّت به لكي لا يتهدّدها أحد به؟ كان النهار طويلاً ومن فرط طوله أستطيع أن أقول أحبّك على حين غرّة وأبقى أرتعش من صوتي وصمتها. أحبّها ولا أحادثها بالعربيّة ولا بالإنكليزيّة ولا بالآراميّة ولا أكلّمها باستقامة قامتي أو ثيابي العاديّة، السروال والقميص بأكمامه القصيرة ولباسي الخام

والفانيلا المضلّعة والتجاهل في عبارات المجاملات أو النسيان. فأضرب رأسي بالحيطان الأربعة وأحاول الوصول إلى السقف الشاهق للصفّ الأوّل من كلّيّة الآداب وهنّ نساء كثيرات، فتيات مغسولات بالصابون ومجفّفات بالمناشف الناصعة البياض وجميعهنّ لهنّ أسماء في غاية اللطافة والحيويّة: نبال، غيداء، مايا، طرب، هديل، و«ألف» أراها بالمقلوب. أجرؤ على رؤيتها كما لو أنّني أعرضها على شاشة كبيرة جدًّا، وأضع تحتها جميع الآنسات والسيّدات والطلبة والأساتذة وقواعد اللغة العالميّة وهتافات المواطنين ولا نتبادل ولا قبلة، وجوقات تمرّ أمامنا وتعزف لنا على آلات لم أسمع بها من قبل ولم أرها أيضًا. كنّا وحدنا في الموكب. «ألف» أمامي دائمًا وأنا وراءها دائمًا. لا أدري لم، وهذا ليس حلمًا ولا حدّثت عنه يوسف. هذا موكب ورجفة في القلب ووجه أحمر مغبرّ وبوق يصيح بي أن ألحق بها قبل أن تذهب لغيري وآثار أقدام وبلد كان يسمّى... به كآبة طبيعيّة وجمال جنائزي ورصاص بعدد النجوم و«ألف»، عنفوان في قضيبي وهلالي وكنزتي الصوفيّة التي كنت أرتديها على لحمي فأحكّ جسمي وأنا وراءها فتلتفت ناحيتي وتنظر في عيني كأنّها تقول:

«هل تريد أن أحكّ لك بدلاً عنك»؟

«ألف» مجرّة واتجاه وانحراف وترنّح، وعلى بعد خطوتين من إمضاء الإبهام وأنت تضعه على الأوراق الرسميّة، لا خائف ولا مرتعب، تفعل ذلك وتعرف أنّ أصابعك تتحدّث عنها وهي تقضي

وقتًا طويلاً تريد لمسها وهي أمامي في الصفّ محطّ إعجاب الله بالدرجة الأولى، فتندفع إلى الصفوف وأجلس خلفها كما هي شاندي ورائي بالضبط، لكنّي أفكّر «بألف» في هذه الساعة، أجري بعض الإصلاحات على حالتي أنا أيضًا وأوافق أن أكون هكذا بين الاثنتين، «ألف» من أمام وشاندي من الخلف. قفا «ألف» كان ملكي ومليكي والأمام كان يهلكني فكتبتُ في الكرّاسة في اليوم الأوّل من الدوام الرسمي في جامعة بغداد الكائنة بالوزيريّة، وأنا أصف تلك ال«ألف»؛ هي أفضل اختصاص علمي يتخصّص به المرء، الطالب وعميد الجامعة ونائب رئيس الجمهوريّة، الجندي والفقيه وابن البلد. لم أكتشف لغز اسمها، هل هو فعلاً هكذا، حقيقي وخرافي؟ مادّة ممتزجة من النار والنزق والعذوبة. أوّل الحروف الأبجديّة، وإذا شئتم أوّل الرجاء. ما معنى ذلك؟ ما معنى «أنّك إن عرفت معنى هذه اللغة»: . . ما معنى الأبجديّة؟ من له الجرأة على الوثوق أنّ هناك أبجديّة فعلاً تشبه الحقنة الأوستيّة. بها لذّة الالتباس واختلاط الجنسين والأجناس. يشبّهون عليك ويردّدون، أنّك لست جنسًا ولوحدك، وإنّما أنت أفضل الأجناس، لكنّك معلّق على حواف المراحيض. «ألف» اسم لفتاة وهذا الحرف، هل له خواص لا أعرفها من السحر والسباب والصياح وتناسخ الأرواح وما يشقى به اللسان من هفوات وزلاّت؟ هل هو التلذّذ بالقواعد والدعاء وربما الهداية، أقصد ذلك النوع من التديّن والورع. اسم لا يقف حاجزًا بين الرقّة والدعابة وفرط الايروس حتى لو كان لا يُرى بالعين المجرّدة. قلت، إذن، هو الحرف الأوّل من القدر، قدري

ويسهل لفظه. لكنّي لا أحبّ الهمزة، أنساها وأهملها في الكتابات والتراجم. لم أجزم أيّ شيء. من هي؟ من تكون، فلتكن كما تشاء من جنس ما تشاء، من خارج الأجناس، من ثمالة الرقص ونهايات العمر. ضحكت حين فكّرت أن يكون لها أخوات وأخوة وتكون أسماؤهم كالتالي؛ ياء، راء، حاء، هاء وضاد. من الجائز، أنّ اسم «ألف» هو نوع من الترانيم السومريّة والأناشيد. أنا شئت ونفذت ما أشاء في مخاطبتها هكذا، أن تكون كذلك، فاحتشدت عيناي بدموع ما كانت ترى بالعين، لكن بمقدور بعض البشر مشاهدتها والإمساك بها وتعداد قطراتها ومسحها بمنديل حريري نظيف. بقيت دموعي معلّقة حدر الجفن لا تنزل ولا تبقى في المآقي. لا أحد يكنسها ولا أحد يوافق على إنزالها. هي دموع التخلّي والشبهة والنشرة الناقصة، لم أكن توصّلت إلى تواريخ للحروف بحسب الدرجة الوطنيّة، فعضوي هو الآخر أحسبه وطنًا ووطنيًّا ولم لا. من هي «ألف» يا ترى التي أوقعتني صريعًا في فراشي دون أن تبدو عليّ أيّة أعراض مرضيّة؟ فيونا انتهى عقدها وأنا كنت أتحوّل ما بين الاثنتين إلى نوع من الشراهة والتلذّذ. فحين تلتفت ناحيتي لم تنظر إليّ بالضبط كما تفعل شاندي، تبصرني ولا تراني، وقتذاك عرفت قهر الإغراء في عزّ أوقاته. كنت على حدود التاسعة عشرة و«ألف» على أبعد تقدير ذات شأن أعلى من شأني وشأن عائلتي. كانت مشيتها تؤلمني، متثاقلة، بطيئة الحركة كما أنا الآن. وأنا كنت كالنمر أقفز وأتحرّك ولا أحد يتنبّأ إلى أين سوف تقود خطوتي القادمة. «ألف» تبدو امرأة فسيحة مصانة من الفناء وأنثى نزيلة الأحلام

والخيالات. جسمها مدثر بعذريّة الملكات اللائي يُحرم عليهنّ الوصال الجنسي إلاّ بمن تشاء هي بسبب عدم قدرة أيّ ذَكَر على الإتيان بالفعل الصحيح التام والكامل وغير المنقوص. أنا خيّبت آمال «ألف»، وها أنا أخيّب آمال شاندي. سوف تمضي وتعود يا سرمد أفندي، تروح وتجيء، لا تنير للصالح مصباحًا ولا تغلق للشرور أبوابًا. لن ينفعك أن تتقمّص روح شخص أو حيوان. أنت سرمد برهان الدين، بلا مرتبة ولا منصب، لا مختلف أو خارق أو غير مألوف. أنت لا شيء. لا عدد ولا حرف، لا رقم ولا كسر الرقم ولا معدّل وراثيًا ولا جاهز لصناعة شيء آخر. والدك خيّاط القوّاد الجنرالات والضبّاط الأشاوس. يجهز على الدوام النجوم والأقمشة والأزرار والبكرات، الثنيات والطيّات. تنزلق يده على الدوام على الأكتاف والصدور، يعدل ويشبك النجوم والنسور والأنواط. فتمتلئ خزائنه بكل هذه الأنواع. كانا ـ والدي ومهنّد ـ يستميتان بتلميع كل شيء حتى تتورّم أيديهما وتتصلّب أكتافهما وتنشف ألسنتهما، كانا قادرين وعلى التوالي على الصمود في وجه جميع الظروف والمتغيّرات. لا يعقل أن تكون «ألف» على يميني وشاندي على شمالي، ورائي بالضبط. تخوض في لحمي وأعضائي ببساطة خرقاء، هما الاثنتان تمتلكان جميع عناصر الطبيعة، تلك التي ذكرت وكتبت في علوم الأوّلين وإشراقات الأنبياء والآباء الأوائل والفلاسفة المختارين. بالطبع، ليس من دون تفريق، لكن كنقش في الأعضاء، في الروح، كعطيّة، كحجر كريم. لا أرى شاندي ورائي تمامًا. هي، كما أنا حين كنت خلف «ألف» في الصفّ الأوّل من كلّيّة الآداب، حين

وقفتُ وقدّمتُ نفسي أمام الأستاذ الدكتور عبد الوهاب مرتضى الذي كان كرشه يشبه كرشي في الوقت الحاضر، لكنّه لم يكن مباليًا البتّة، يتحرّك بخفّة ونتذوّق مرحه وفطنته وفكاهاته فلا نتلعثم. «ألف» أمامه ليست مثلي، فهي لا ترطن، لغتها الإنكليزيّة لا تشكو من الفاقة والعوز. لهجتها ترشد على شيء ممّا يسمّى بالطبقة الاجتماعيّة العالية ذات التأثيرات بالموسيقى الكلاسيكيّة وتصريف الأفعال دون الإضرار بالأسماء والنعوت وأسماء الإشارة إلخ. لسانها متعدّد الطوابق، وشكلها! نعم، جميعًا لدينا عينان وأنف وشفتان وبشرة وذقن ورقبة وشعر، هذه هي الأسس العامّة لجميع المخلوقات البشريّة، لكن «ألف» كشخص حيّ تتطلّب تعبيرات ليست فوريّة وليس لها علاقة بقواعد اللغات العربيّة أو الأجنبيّة، هو أمر أيضًا لا علاقة له بالنعت وتقسيمات الجمال التي تتشكّل لدى أحدنا، وتتطلّب أن يكون للمرء وفرة من أوصاف كاسحة في كيت وكذا فلا نستطيع ترجمتها إلى اللغة الأمّ أو إلى لغة الشارع والعامّة. يا إلهي، كنت أحاول تطوير لغتي لكي أزداد حنكة وبساطة للتماس بسطوتها وقوّتها وسوابقها. كلّما ألتقيها أشعر أنّ لها سوابق، حيوات، ذوات، أنوات، شخصيّات لغات أعمارًا حدوسًا وأرواحًا. لغة «ألف» مشغولة بصورة ممتازة في جميع أطوار اللغة، طُبخت في مطبخ إنكليزي أصولي، ربما، في مدرسة داخليّة من الطراز العسكري كما هذا المركز الصارم. شربت الحساء الساخن وليس اللذيذ دائمًا، وغمست بسكويت أبو الشكولاتة في فنجان شاي الساعة الفلانيّة. من المؤكّد، قلتُ، لديها مربّية واسمها ڤيونا على سبيل المثال، تلك التي درّبتني على

فنون وأصول وطرق وأعاصير ومتع الجنس الأوّل الذي لا يقلّد فيه أحد. «ألف»، تصوّرتها لا تجيد الأعمال المنزليّة، لذلك ظلّ قفاها لا يشبه قفاي بالطبع، فتسلّمته كلّه برهبة وخوف. العنق معتدل الطول، الشعر مضفور ضفيرة واحدة سوداء غليظة تنزل إلى أول كتفها، ما يتعلّق بي، أنفاسي أحبطتني هناك في جامعة بغداد وهنا أطلقت صفيرًا حادًّا في الشهيق والزفير في مركز التأمّلات بباريس. صوتي حين جاء دوري في تقديم نفسي أمام الصفّ الأوّل في الكلّيّة كان مليئًا بالثلمات والنواقص رغم دراستي المتواصلة بالمعهد البريطاني. كان لديّ ولدى معظم العراقيين وفي أثناء المحادثات أمر يتعذّر إخفاؤه، شيء يقرقر بين اللسان والأسنان والحجاب الحاجز فيجعل في نتاج اللغة، اللغات الأجنبيّة فجوة ما من النادر ردمها وتكاد تميّزنا على الدوام. كيتا تقول عنها إنّها محبّبة جدًّا وتضيف:

«لا جدوى أن تكون كالإنكليزي أو الألماني. في رأيي هذا لا يكتمل قطّ إلاّ في أثناء الطفولة الأولى.. ثم إنّ اللّكنة أمر حيوي للاختلاف والتعدّد».

حين جاء دوري في تقديم نفسي أمام حشود طلبة الصفّ الأوّل في الكلّيّة جاء صوتي مخنوقًا في بادئ الأمر، وبالرغم من أنّ الأستاذ حادثني وناقشني دون بقيّة الطلبة، فقد ابتدعت طرقًا في الحوار والجدل الشفاهي غاية في الطرافة. شعرت وأنا ألقي بعضًا من سونيتات شكسبير وبصوت جدّ منغّم بدأ يقوى ويتموّج ما بين العلوّ والانخفاض، ثم أصمت ولا أهدر من وقت

السامعين من الطلبة والأستاذ ثانية واحدة. أتحوّل إلى ممثل قدير أقف على مسرح ولا أرى من حولي إلاّ إيّاها. كنت أضع الكلام والصوت والشعر وأنا ألقي «فلندع أولئك الذين لم تتّخذهم الطبيعة زادًا لها. أولئك القساة، ذوو الوجوه البغيضة، الأجلاف، دعهم يموتون بعقمهم وانظر إلى من أغدقت عليه هباتها، تراها أعطته المزيد؛ هذه المنحة السخيّة عليك أن تعزّز بقاءها بالسخاء».

كنت فصيحًا وأنا أتخيّل شاندي هي الثانية ورائي في تدريب الحبال الصوتيّة والتوقّف، بلع الريق والمواصلة ثم السكوت، فانفجر الصفّ بالتصفيق والإعجاب على غير المعتاد أبدًا. قلت، ربما من أجل شكسبير وليس من أجلي قطّ، فاسم الشاعر الطليق الشاهق هو الذي سرّع بي ودفعني أن أثب وأقفز أمام الجميع بأقصى سرعة، ولا أحد حاول الوصول إليّ فاقترب الأستاذ منّي كثيرًا، صار قبالتي لكنّه لم ينظر إليّ ولا أبصرني تمامًا. كان أحول فلم أتصوّر أنّه ينظر إليّ فحاولت الابتسام في بادئ الأمر، ثم الضحك وبالتالي القهقهة، لكنّي استحيت. كنت أستحي. لم أر أحدًا، كنت أبصر في بقعة واحدة أمامي لا غير؛ ظهر وعنق وقميص «ألف» الناصع البياض. هذه هي الطريقة المثلى لإتقان إلقاء السونيتات. النظر وبتركيز على ما تشاء، على ما تريد أن ترى وهو خليق «بألف» وحدها. سمعت التصفيق، سمعت ملاحظات متفرّقة. همهمة بعضها عابر، ومرّات ساخر، لكن «ألف» التفتت ونظرت، هذه المرّة تقابلت نظراتنا تمامًا فقالت: «Great».

وللحال عادت إلى وضعيّتها السابقة وأنا عدت للجلوس. ريقي ناشف وبلعومي يابس، يداي نديّتان وساقاي مخضوضتان، وسروالي، شعرت أنّه سينزلق من على خاصرتي ويسقط أرضًا. كنت نحيلاً، بل كنت مريضًا بهزالي، وها أنا أصغي إلى صوت شاندي وهي تدفعني بهدوء شديد وتنزلني إلى الأرض فوق إسفنج قاس. تنظر إليّ من فوق وأنا ممدّد أمامها وهي تقول: «Great» ثم تضيف بصوت به سرور لا يخفى:

«يا مستر سرمد، اجتزت اختبار التمرين الصعب، ربما، هو الأصعب في حالتك، برافو».

ابتسمت ابتسامة يتدفّق منها سحر مراوغ فأشاهد أسنانها وأسمع صوتها الداخلي الذي كان يريد أن يقول، لن تسمع محاضرة التحذير من كيت وكذا. أسنانها كانت مستقلّة ببياضها وتناسقها كأنّها لم تأكل بها من قبل، أو أنّها أكلتْ وشربت الماء فقط. حين رأيت ابتسامتها، أعني، بقيت شاندي تبتسم كأنّها أنجزت عملاً خارقًا لا مثيل له فبدت مكتفية بحالها كالذهب. كنت أتابعها وكانت تبدو أمامي مثل الجبال، لكن صوتها بوزن الدانتيل. لم تناد ولا قالت اسمع، هيّا، تعال.. ولا أمسكني الخوف منها ولا يهمّني ما لا أعرفه عنها. إنّ الذي نعرفه عن الذين نعرفهم لا يجعلهم أصحّاء ومحترمين أكثر من ذاك الذي لا نعرفه. بقيت أعضاؤها جميعًا أمامي وهي لا زالت واقفة فوق رأسي. هذا الذي جعلني أشعر بشيء من الرضا. يعود صوت شاندي الخفيض:

«اهدأ الآن يا مستر سرمد. تنفّس كما تشاء واملأ صدرك بالأوكسجين. حاول الاسترخاء، وإذا أمكنك أن تغفو قليلاً، أظنّ أنّ أحلامك هذه المرّة سوف تختلف بعد هذه التمارين. إذا راق لك أن تحدّثنا عنها فسوف نصغي بانتباه. هيّا، ألا تودّ الإصغاء إلى هذه المقطوعات الموسيقيّة الهادئة؟ ألا تسمع رذاذ المحيطات؟ إنّ الرذاذ يحمل بعض الأسرار، والأمواج تنادي على بعض البشر: أن عودوا؛ والأملاح تقول لنا، علينا بالاستمرار من أجل بعض المسرّات القليلة. سنذهب إلى الجهة الثانية منك، جميعًا لدينا جهات عدّة، بعضنا يحاول إخفاءها بشتّى الأساليب والبعض يظهرها بشيء من الخفر. وبصفة عامّة نحن جميعًا نستحقّ ما نخفي لا ما نعلن فقط».

كان صوتها يصل صيوان أذني الداخليّة، اغتسل، تنقّى وتصفّى، هي تهمس بقدر من الحرّيّة التي بدت، حرّيّة حسنة التنظيم، لا تُشرح لكنّها تعاش. جميع من عاشرتُ من النساء كنّ أكثر حرّيّة منّي. إنّني لا أعلم أيّ الأوقات تكون «ألف» فيها حرّة أو حرّة سوبر؟ والبيضاويّة، وكيتا وراضية الماليزيّة الحديثة العهد معي، وشاندي و...

أغلق جفنيّ وأفتحهما، أحاول ألاّ أخيف نفسي، لا بشاندي ولا بكل النساء ولا بما سوف ألاقيه هنا من منغّصات وصعوبات. أبدو كالمنوّم، فألاحظ عن سهو أو قصد، أنّ شاندي كانت تخطو الخطوة الأولى إليّ. شعرت بذلك كأنّني أشمّ خدودها ومنابت شعرها وعرقها وأعاجيبها وهي تنحني أكثر

فأشاهد مسامّها العميقة. تمامًا، رأيتُ فتحاتها وبمقدوري أن أجذف في ذلك العرق الذي ينزّ منها. عرق رقيق لطيف، ماء صافٍ رقراق ينزل من دخيلة نفسها فأراه يتّحد بمائي وينطبق على أجزاء كثيرة منه. شاندي تتولّى تدريبي شخصيًّا؛ وهذا الأمر، يقول يوسف، به تكريم لي فوق العادة. يدها وأصابعها كانت لها مكانة شديدة الأهمِّيَّة في علاقتها بالآخرين. تتجلّى بصورة قويّة أمامي وحولي ومن خلفي. تحرّكها وتديرها على فتحات جسمي، ترصّ وتمشي، تداوي تحكّ تروض تنهك وتتعب، تصيد وتهيمن على ظهري ولحمي وكتفي وحوضي فتبلغ أعلى درجات الفهم والتفاهم، فيجوز لي أن أمسّها قليلاً دون قصد أو وعي وأكثر الأحيان عن قصد ووعي. لم تهتمّ في بادئ الأمر، أعني، كانت تفوّت الأمر بحسب هواها ومزاجها وقوانين المركز. فتبدو يدها عضوًا مفردًا شاخصًا وفريدًا، يعمل بصورة شبه وحشيّة. أجل، قلت لنفسي هذا النعت وواصلت عمل تلك الحركات التي تقرّب القدم إلى حدود أنفها، وهي طويلة. فكيف ستقيم المباراة ما بين عضلاتي التي تتصل علويًّا بعظم العانة والورك بنقاط ارتكاز منفصلة لكل عضلة، فتساعدني على العثور على نعمة يدها لا على فظاظة ضلوعي وأعضائي. تواصل:

«ما قمنا به اليوم كان مهمًّا جدًّا: أن تضع يديك تحت رأسك وأقوم أنا بثني العمود الفقري إلى أمام وخلف، والضغط الخفيف الرقيق على عظم القص أثناء الثني مع سحبك من الإبطين في آن واحد، أمر لم أتصوّر سيتمّ بهذه السرعة القياسيّة والإتقان الجيّد.

آه، لو كنت تدري كم كانت حاجتي إلى مساعدة أحدهم، على الخصوص بالقيام بهذا التمرين، فاتصلت بالدكتور يوسف لكي يحضر ويرفعك معي لكنّي لم أعثر عليه. هذه تمارين كأنّها تبحث عن طاقتك وقوّتك المبعثرة في مكان ما وها نحن نحاول العثور عليها لكي تعينك على مرونة الحركة، السير والانحناء وبالتالي الجلوس. من الضروري، وهذا ما سوف تلاحظه قريبًا تقلّص كرشك. أجل لا تنظر إليّ هكذا باستغراب يا مستر سرمد. كلا، لن أخبرك عن محيط خصرك ولا تهتم بالأرقام من فضلك».

حالما تصمت تعود يدها إلى جسمها وسلطتها فتتوقّف عن الحركة فأشعر أنّني رأيت شاندي ويدها من قبل، كأنّها تنتظر دورها لتقترب من مفاصلي ولحمي فلا أحيد عنها بصري. أنظر بصورة كاملة. لا أحاول تفخيم نظراتي أو جعلها تتصوّرني شديد الحماسة. أنظر إلى شاندي كما نظرت إلى «ألف»، نظرات متأخّرة من زمن مضى، منذ زمن طويل جدًا. عرق النساء يثير شهيّتي، يدعني أرى ما تحت جلودهنّ وكيف يمشي العرق ما بين الأنابيب والشرايين متظرّا أيادي وكفوفًا وأحضانًا تغازلها وتغريها لتصبّ فيها. عرق «ألف» السابق كان يلعب معي، ينز فيّ كأنّني أعرق بدلاً عنها فآخذ ماءها، أحدّق وأقيم فيه. عرق هؤلاء النساء يجعلني أتخبّط ما بين الإغراء والمتعة، فأشعر أنا أيضًا، أنّ مسامي تتوهّج، تنحرف عن اتجاهاتها، تثيرني وأعجب بما أرى وأشمّ. الإثارة، ليس ما بين فخذيّ وحلمتي صدري أو من داخل اختضاض عمودي الفقري. كلا، الذَكَر، آخر ما يحفظ

أسرار الغواية فأكتشف كل لحظة أماكن لم أتعرّف عليها من قبل في جسمي وأجسام الآخرين، ولم أذق جاذبيّتها ولا تجسّدت نشوتها إلاّ وأنا أحاول ألاّ أحوّل بصري عن جميع تفاصيل شاندي، فتصلني موجات سخونتها فأدعها تبحث ما بين شبكة غرائزي وأجهزتي العصبيّة وإفرازاتي الهرمونيّة عن ذلك الألم المبرح الذي يشبه الشبق، لا أدري في أيّة بقعة هو موجود ولا كيف أمسك به فيسري فيّ كالتيار الكهربائي. أرتعش قليلاً وهذه الآنسة تقف فوق رأسي، تروح وتعود، تصوّرت أنّني وحدي في الصالة وجميع المريدين اختفوا، وأنّ هناك من يتهكّم، يظهر لسانه عليّ ويطلق صوته بالسباب ويتابع السخرية منّي.

حين كانت شاندي تنحني عليّ لكي تتأكّد أنّني لا زلت أتنفّس، لا زلت حيًّا، كانت إحدى خصل شعرها الأسود الغزير والثخين والمتموّج تمسّ صدري فأشعر وأنا مغمض العينين، أنّ درجة الحرارة ارتفعت من حولي. هذه فتاة وكأنّها ابتلعت الجمر وأزّتت وقلبت الحطب في مدفأتي فألاحظ أنّ عرقنا يتضاعف. وابل من المياه ينزل منّي، من كل بقعة فيّ. أكاد لا أرى وأنا أشعر بسيول الماء تنزل من جبيني مارّة بخديّ، لصدري وبطني فتتفرّع ما بين فخذيّ فلا أعود أشعر بأيّ شيء. اهجع وأسمع شيئًا من الصعب تميّزه. صوتها يتمطّى بين أذني، شيء كالصلوات والتعاويذ. أفتح عينيّ فأشاهد شفتيها وهي تراقب «ألف»اظي فيما لو أخرجتها من فمي.. لكنّنا لم نقل أيّ شيء.

هذا هو الأسبوع السابع وأنا أشعر أنّني كنت مكتظًّا بالبشر

والأفكار، الخيبات والرموز والتفاهات، وها أنا أتخفّف قليلاً. يغادروني واحدًا بعد الآخر؛ وهّاب وخلف، أصدقاء القسم الداخلي الكائن في باب المعظم والاستمناء العجول. هذان الشابّان اللذان سرعان ما التقطهما مهنّد. أنزل بصره إليهما وقد تراكم المنيّ ما بين أظافرهما فلم يفلتا منه. جعلهما يتناوبان على ذَكَره مباشرة، يمشيان عليه ولا يبرحانه. ما إن ينْهِ وهّاب دورته حتى يكرّر خلف من جديد ويتكرّر بشكل وكأنّه لن ينتهي. كان بإمكانهما أن يتأخّرا قليلاً لاعتبارات طلابيّة، فلنقل صبيانيّة تمامًا، خلف قال لي بصورة عرضيّة:

«مهنّد نكّل بي وروعني فُكسرت يا سرمد. هيّا لا أريد أن أراك. ابتعد عنّي».

لا أحد كان يراوغ مهنّد، لا ينتهي العذاب بشكل عام فيما إذا استسلم أحدهم، يوسف، وهّاب، خلف و«ألف» أيضًا. يضجر منهم بسرعة فائقة فيدعو شخصًا جديدًا قادرًا على الارتماء عليه وهلمّ جرّا.

كدت أطلق صوتي طالبًا قرصًا لصداع الرأس. أعيد ما أحفظ من صوت «ألف» وهي ما تفتأ تبعثه إليّ:

«هيّا يا سرمد أنفث غضبك فيّ. رائحتك القديمة، منذ أيّام الجامعة وحتّى اليوم. أحسب أنّه قد مضى على ذلك عقدان وها نحن ندخل في الثالث، وأنا لم أشطف تلك الثياب ولا ذاك الفرج. تركت كل شيء لك حتى لو كان مهنّد يتلاطم فيّ. فما أهمّيّة ذلك يا سرمد؟ عرقك وعرقي لم تتخفّف رائحتهما ولا زالا

يستقرّان في خيوط النسيج وفي شعيرات أنفي وشقوق شفتي. قبلاتك، تلك الخاطفة الأولى الفجائيّة الفوريّة والمعتزّة بسرعتها لازالت تخفّف آلامي. ماذا تريد يا سرمد.. قلبي؟ أم جميع ما أخفيه فيه لك. لماذا أشعر دائمًا أنّك ستفقدني وأنا لا. مهنّد، بالطبع ليس مزحة في وجودنا نحن الاثنين، ولكن، أنّني لا أخفيك عنه قطّ. لم أعمل ذلك دومًا. مسكين هو، يبحث عنك في ثيابي وعروق يدي وقشعريرة مسامي وذاك الهزء الذي أضعه في صوتي وصمتي فلا يعثر، لا عليك ولا عليّ. سرمد، أنت أيضًا لن تعثر عليك فيّ. ابتلعتك وفرمتك وبدأت أتناولك خارج الوجبات».

صوت شاندي يصلني وأنا لا أدري أنّني وقفت ومشيت. توقّفت وتلفّتُ وأبصرتُ وأغمضت عيني ثانية ونحن نصل غرفة التأمّلات الفسيحة المعتمة قليلاً. عندما وصلت هنا، تصوّرت أنّني أستطيع البقاء هنا إلى ما لانهاية، وخيل إليّ، أنّها كانت تردّد:

«التداوي بالصمت، كلا، العلاج بالهواء».

كان العراء والعري في جميع ما حولي. الغرف وصوت أنفاسنا، نحن المريدين. أضافت بصوت كالهمس:

«تمامًا هو من أجل أن يحدث شيء ما، من أجل أن تختبر ما ينخر وجودك. من أجل ما مضى وما هو يمضي أمامنا. من أجل أن نقول ذلك لأنفسنا بالدرجة الأولى، إنّ الفقد والإخفاق هما ليسا نهاية القصّة».

تصمت قليلاً وتبدأ بالسير فيما بيننا. تتوقّف وسطنا ونحن ما بين الإغماض والصحو:

«تمامًا، التداوي بالتنفّس الطويل وهذه حكمة قديمة حضرت من الشرق، من الهند وهي جزء من الطقوس الدينيّة عندهم».

تحرّكت قليلاً ووقفت بطريقة كأنّها تخاطب كل واحد منّا على حدة:

«الحكيم هناك يؤدّي هذه التأمّلات وتدعى ـ البهامسريكا ـ هي وضع خاصّ من أوضاع التنفّس، ثلاث مرّات تأخذ نفسك، تقوم بذلك في سرّك، شيء كالواجب، هو شيء لا يعلن عن نفسه وأنت تطلق الشهيق وتتلقّى الزفير وكأنّك آخر مرّة تتنفّس. إجمالاً، هذا ما يترسّخ لديك بعدما تجرّب ذلك مرّات ومرّات، فلا يصاب المرء بعدها بأمراض ولا متاعب، بل يبقى في صحّة في جميع الأيّام».

كلّما تتحدّث بهذه الطريقة أشفق عليها من العفطات ـ التي خزّنتها وأحاول أن أدخل عليها بعض الموسيقى، لكنّني أحجم ليس حياء، وإنّما ضجرًا. فتواصل همسها وهي توجّه أفكارنا إلى لحظات تأخرنا للوصول إليها فتردّد:

«علينا أن نحمل الأمر على محمل الجدّ أعني طبيعة التنفّس والمزيد منه والدوام على تدريبه فلا نسمح لأحد أن يقطعه، يستعبده أو يستبيحه».

صفّقت بيدها بخفّة وتحرّكت برشاقة. كانت حركاتها كطائر

على وشك الطيران وهي تدلّ وتشير على ما تقوله أمامنا بالفعل:

«شفط الهواء ودفعه إلى الداخل. شهيق ثم توقّف التنفّس. حبس النفس وأخيرًا يخرج الهواء من الرئتين. كلّ مرحلة من هذه المراحل لها صفة واسم. بالطبع ليس ضروريًّا حفظها لكن يجب أن تستمرّ طيلة المدّة اللازمة للبدء بقراءة دعائك الخاص لكل واحد منّا، بالذهن فقط».

فأتلو صلواتي:

«إنّهم إذا طيّروني عن نفوسهم فأنا الجناحان».

«إنّهم إن شكّوا في وجودي فأنا الشكّ والشاكّ معًا».

* * *

كلّما أخرج من المركز في طريقي إلى الفندق، أشعر أنّني أنشطر إلى أجزاء وشظايا فأبحث عن كلمات، إلى نوع من كلمات لا أتّخذ معها أيّة حيطة وأنا أمشي في شوارع باريس وهذه، كما يقال عنها، مدينة حقيقيّة. كيف تهجر مدينتك طوال السنين الفائتة ولا تبالي أبدًا بأيّة مدينة مررت أو سكنت أو ستموت فيها. كل مدينة كانت تشجّعني على خيانتها خصوصًا مدينتي. يسمّون اللّغة، اللغة الأم. يقولون عن المدن، مدينتهم الأم. ما هذه الأمّ التي لا نشفى منها. هي غير شفوقة علينا وهي موضع شكّ بالدرجة الأولى وعلى أوسع مدى يصل إليه بصري وعقلي وشكّي، فلا ألتزم بوعودي مع دور النشر العربيّة في بيروت والمغرب، للكتابة لهم عن الأشياء العاديّة، أنا قلت لهم ذلك، العاديّة هي السمة المميّزة لنا كلّنا ودون استثناء. المدن عاديّة والبشر عاديّون والحبّ عادي، والموت عادي، أكثر من عادي. أمشي وأحسب الناس العاديين الذين أعرف وأكتشف أنّهم كلّهم كذلك. فأنا أعرف عددًا من الأشخاص العاديين والمدن العادية. باريس هي هكذا أيضًا، لا نلتقط إلاّ عاديّتها وهامشيّتها في معظم الأحيان. لندن في جانبها العنصري عاديّة ومجهّزة

بصورة متقنة بحيث لا يتوصّل أحد إلى اكتشاف ذلك النظام البغيض فيها. فكنت أفضّل عنصريّة فرنسا العاديّة، الهجوميّة والصارخة، فأصرخ في وجه يوسف في أثناء زياراتي لها قائلاً:

«حين تبغضك بريطانيا فهي تدير ظهرها لك، تزدريك ثم تقصيك. لا تقول لك أيّ شيء. حتى في المطار ينظرون إليك بتلك النظرة الموجودة والمعدّة سلفًا. آه، يا يوسف، الإنكليز متأكّدون من المشية والنظرة والنوايا أيضًا فأنت آثم دائمًا ولكن بطريقة مهذّبة يتلون ذلك عليك، فلا يسعك إلاّ التواري عنهم بوجهك ولونك وميولك وطبعك. الفرنسيّون حمقى يصرخون بوجهك فتتبادل وإيّاهم الشتائم وربما اللّكمات. هؤلاء يعلّمونك كيف تردّ الشتيمة حتى تسيل الدماء منك ومنهم. صاحب دار النشر البيروتيّة المشهورة قال لي: أكتب لنا عن المدن التي تختفي دون أن يلحظها أحد، خصوصًا إذا سجّلت ما يعتري العشّاق وبصورة خاصّة في انخفاض حركة الرأس العادية.

كل يوم أكتشف كم أنّني رجل عادي وأنا أدوّن وأترجم من أكثر من لسان، ليست العربيّة والإنكليزيّة، أو العراقيّة القديمة والحديثة فقط، وإنّما، عراقيّة أهل المدينة الواحدة، وأهل الأحياء وأهل المناطق وأهل الشوارع وأهل البيوت وأهل الغرف وأهل الأسرَّة وأهل الثياب وأهل النفس الواحد. كنت أشتغل على الحاسوب والآلة الطابعة الكهربائيّة معًا. بيدي القلم وأمامي الكرّاسات ذات الخطوط المتوازنة بمساحات متساوية، هذه واحدة من فضائل القرطاسيّة التي صمدت عندنا منذ زمان الاستعمار البريطاني. اللسان الإنكليزي بدأ عندي لسان مضاجعة

ومتعة وإشارات ورموز وأصوات سحريّة أريد الاقتراب منها، وروايات بدائيّة عاديّة مصوّرة؛ أرسين لوبين، شارلوك هولميز وطرزان الهارب من سحنات القرود التي تلاحقه. كنت أشعر أنّنا الرجال القرود الذين لا عزاء لهم إلاّ بظهور طرزان في مواجهتهم، في المباريات والمناوشات تسيل دموعنا، أنا ويوسف نكرّر تلك الكلمات: الغابة وذاك الحيوان الراقص، وفي لمح البصر نرى ذلك الطرزان وحده، هو وحده يريد أنحاء العالم من حوله.

أخرج من المركز وأنا منهوك القوى، أصير أكثر عاديّة، لا شيء ولا تمرين ولا مدينة تنتزعني من عاديّتي فأبدو أقلّ وأنا أسير ببطء وسأم وأنتظر تكرار هذا العبث الذي أدخلت نفسي إليه. وجوه البشر هنا، ما بين ساحة المونبارناس وفندق الميرديان وجوه عاديّة جدًّا. يوسف الأكثر عاديّة من الجميع، وشاندي ما بين الجلسات والتمارين والتأمّلات كانت تلحّ على الهدوء واللاعنف فتقول: «القوّة، عليك باكتشافها من طريق آخر غير القوّة ذاتها».

كنت أعتقد وأشعر بذلك فعلاً، وأنا أدور وأسير بين الجادات، أنّ هناك شيئًا يتعرّض للافتراس، نعم، أنا أتّجه نحوه ولا أدري أنّه أنا بالدرجة الأولى. يوسف يخشى من ارتيابي، يقول عنه إنّه لا يطاق، لكنّه يعتقد أنّ انعدام اليقين هو الفعل الوجودي المعقول والمشروع لأنّ اليقينيّات تولّد العصبيّات والتزمّت والتشدّد. كنت أردّ عليه وأنا أبتسم:

«الجمال والعدالة والحرّيّة هي يقينيّات متحرّكة جدًّا لسرمد برهان الدّين». «ألف»، سجّلت صوتها لي في أحد الأيّام وكانت في ريعان شبابها كما يقال، وكان هذا الشباب يؤلمها جدًّا لأنّه لم يكن يعرف إلى أين يتوجّه؛ وفي خلال تلك الأيّام وبعد رحيلي مباشرة أرسلت لي شريطًا غريبًا تقول فيه:

«لم أتشكّك بجمالي إلاّ حين وقف مهنّد شقيقك أمامي في الشارع القريب من دارنا في حي المغرب. كانت الفكرة التي تقول إنّني جميلة وإنّ مهنّد، ولهذا السبب فقط، يقف أمامي. لكنّني أنا فتاة عاديّة لست من العيار الذي يفضّله السيّد مهنّد. فلماذا أنا؟ لماذا حثّ الخطى إليّ وأوقف عربته المرسيدس النبيذيّة اللّون وقطع عليّ الشارع والرصيف بثلّة من رجاله وأنا أحاول الاحتماء بمكائن البنزين خانه الكبيرة الكائنة في آخر الوزيريّة وأول شارع المغرب. مواصفاتي لا أعرفها حقًّا ولا يضرب بها المثل. فلديّ الكثير من التحفّظ، لكنّي لا أعرف أين يمكن العثور عليها في الصوت، في المشية أو الشخصيّة ككل؟ لكن مهنّد لا يبالي بأيّ شيء. يوقف العربة وينزل منها. يصير قبالتي تمامًا. رجل مطيع ووقح معًا، وسيم بطريقة تسبّب الجزع. فجماله يؤدّي إمّا للهاوية أو الاحتقار، فماذا سأفعل يا سرمد؟ كانت ركبتاي جميلتين تبرزان تحت تنورة قصيرة، أنا أعرف ذلك، وقميصي لا يقدر على إخفاء نهديَّ الضاريين اللذين أحبّهما مهنّد كما لو كانا أليتين مرتفعتين، عرفت هذا فيما بعد. أجل يا سرمد، كان يكرّر عليّ ما قلته أنت في أحد الأيّام. أوصافك لي

يعيدها ويقول: أنتِ هكذا مائة بالمائة كما كتب عنك سرمد. الأوصاف والروائح والحركات التي كان يدوّنها في كرّاسته هي التي جعلتني ألاحقكِ وأطاردكِ من مكان لآخر ومن صفت إلى صفت. أنّى تذهبي أكن وراءك. ربما، لا تدركين هذا الأمر لكنّي ها إنّني أقوله لك لكي تقلعي عن عاداتك الأولى. انتهت حياتك السابقة يا آنسة «ألف» وبدأت مرحلتك الثانية معي. أنا السيّد مهنّد الذي يقول لك، الآن، للتو هيّا، اسمعي يا آنسة «ألف»، ألا ترين هذه الدرجة من التلاؤم ما بين صوتي وجمالك وأنا أسير وراءك وأنا أردّد لك: سرمد لن يعود. ليس من عادتي أن أعيد ما أقوله، ها.. فأنظر إلى ساعة يدي لكي لا أنظر إليه يا سرمد. كانت الساعة الثالثة ظهرًا وأنا أشاهد بضعة رجال من حولنا، ينتظرون أوامره: التفتيش، المراقبة، الزجر والاعتقال إذا اقتضى الحال. كنت ألاحظ خطواتهم وحركات أقدامهم وأنا أنظر إلى الأسفل. كنت أدري أنّه يراقبني، كان هناك رجال يراقبونني، كنت أشمّ وأحسّ ذلك ومنذ الساعة الثامنة والنصف صباحًا وأنا أخرج من بيتي في طريقي إلى الجامعة. كنت أسمعه يا سرمد وهو يقول بصوت بطيء شهيّ وخبيث جدًّا: اسمعي يا «ألف» أنا مهنّد. أنا لا أبدأ معك الآن، لكنّي أستأنف الكلام ما بقي منه وما ترك في اللسان. لا أنظر إليه مباشرة ولا أعود معنيّة بالضوضاء، بأبواق العربات والزمامير وآلات إفراغ البنزين ورائحته الحرّيفة جدًّا. أنا أحبّ رائحة البنزين. ألا تذكر ذلك؟ قلت لك هذا ونحن نمشي فوق الجسر الحديدي في طريقنا إلى النهر: نحن شخصيّات ممدّدة بالنفط والنار والماء والأحقاد

والعهود القديمة والأضداد العجيبة. نصير في بعض الأحيان مصدر خزي وأحيانًا مبعث عظمة وهكذا ترى أنّ الوثوق بنا شحيح وبشكل عام نبعث على الضحك والرثاء. أسترخي في مشيتي وأتقدّم، أبتسم ولا أتراجع ولا يوم تراجعت يا سرمد. طالما أنت غادرت فأنا لا أتردّد ولا أحد يتوقّع ردّات فعلي. أخوك يقول عنّي: أنت لا تخافين ولا تخشينني. يواصل وأنا أبتسم في عبّي: غريب أمرك يا «ألف». ليس لديك أيّ تصوّر عمّا سيحصل لك أو لعائلتك. لم أفهم يا سرمد. هل كان هذا غباوة منّي أم أنّه مجرّد سوء طالع؟ فقد بقيت أردّد في وجه مهنّد وطالما هو أمامي أو وراء الرجال الذين يراقبونني جيّدًا:

«سيعود. سرمد سيعود. أعني لماذا لا يعود هه؟!»

كان شباب «ألف» أمامي واضحًا ناهضًا وأنا أشاهده بأمّ عيني. تنّورتها أوّل ما شاهدتها في اليوم الأوّل من الدوام الرسمي في الكلّيّة. تنّورة عاديّة لكنّها فوق الركبتين بقليل وساقاها منجزان بصورة مثلى. كنت أتنهّد وأردّد: أيّ جسم هذا. أقول لنفسي وتحت بلوزتها كان النهدان واضحين منفصلين واقفين ومعذّبين بالشهوة. كنت أردّد لنفسي، أيّ فتاة تشتهي يا سرمد وأنا كنت أشتهيها وأحبّ شهوتي لها، وفيما بعد أدركت شهوة مهنّد لـ «ألف». أتخيّلهما وهو ينزعها حمالة الصدر فأراهما تمامًا أمامي. يشعران بشيء من الذنب. مذنبان هما، أعني النهدين انتظرهما طويلاً، وها هما يحضران أمامي وأنا أمدّ رأسي وأفتح باب غرفتي في الطابق التاسع. ما إن تطأ قدماي أرض الغرفة وأصير

أمام التلفزيون حتى أديره على القناة الجنسيّة إيّاها. أسمع فحيح الرجال والنساء كالعادة وأضجر من سماع الأخبار.

الآن، ومن على الشاشة، أنظر خطفًا فأرى كأنّ الجنس يأخذ إذنًا بالخروج من الكادر ويدفع بي إلى التأرجح. ها هو الفعل التامّ غير المنقوص يحدث أمامي لكنّه لا يعني شيئًا. الجنس شيء باعث على الملل فلا أسترجع تفاصيل المضاجعات ولا أقوى على النظر الطويل. نسيت ذلك الرجل، تقريبًا، سرمد. نسيت كيف أرتب شهوتي الجنسيّة وهي تفغر فاها ولا أعرف كيف أنجزها على الوجه المطلوب أو الأكمل. إلى أين تذهب تلك الرغبة القاتلة؟ وها هو الرجل أمامي على الشاشة يأخذ وضعيّة مضحكة والمرأة تقرفص على ركبتيها، وذاك العضو الجهنمي كأنّه لن يرى النور، مشوّش وليس بمقدوره التواني في كل هذه الفعال. أرى الذكر منطويًا، أفرغ متاعه والستارة على وشك أن تنسدل.

نسيت فروج جميع من ضاجعت. نسيت الطريقة الصينيّة، الهنديّة، الإيطاليّة، الفارسيّة، العربيّة. نسيت كيف يدخل الذكر ويخرج من الفرج وتبدأ الحركة بالتوقّف وصوت شيء يقع، صوت يسمع يحضر من داخل الشهوة يقول لي ما لم يقله أحد من قبل. نسيت فروج جميع من ضاجعت، أحواضهنّ وأفخاذهنّ فأشعر أنّ مفاصلي تتفكّك وأنا أسير على مهل إلى الحمّام. أحضر البانيو، أضع قطرات من سائل ذي رائحة زكيّة وأفتح الحنفيّات إلى أقصاها. كأنّ النوم مع النساء حدث وانتهى. شقّ

الحياة كما تشقّ هذه المياه نفسها وتتكرّر قطرة بعد قطرة، فيصبح البانيو برغوته كأنّه صفّارة تنفخ فيّ روح الإقدام فأبدأ بنزع ثيابي قطعة بعد قطعة كما تفعل تلك المرآة في الكادر أمامي. أخلع وأرمي السروال والقميص على الأرض. هل هذا هو الحفل الختامي؟ هل هذه ساعة النهاية؟ وأنا أشعر أنّني متلائم فعلاً. أشمّ بصورة لا بأس بها فأبدأ بخلع الفانيلا واللباس الداخلي. من المؤكّد أنّ شهوتي موجودة لكنّها ليست على وشك الانطلاق. لم تغادر أو ترحل ولا عادت تكترث لرحيل الذَّكَر فلم نعد نلتقي بشهواتنا كالسابق. كأنّها تسخر منّا، من تجمّعها ما بين الرأس والسيقان، كأنّ الأمر حصل منذ زمن سحيق جدًّا وها أنا أركض في مكاني كما في تلك التمارين الرياضيّة الخاصّة بالقلب. أمشي في موقعي ذاته وأواصل التدريب في المركز، الجنس هكذا، فنتصوّر، أنّه اللحظة الفاصلة، هو الذي لا يرتبط بزمان ومكان وهو ليس عابر السبيل؛ لكن كل ذلك غير صحيح. ربما هو الأمر المجهول تمامًا، عندنا، نحن بني البشر ولأنّه كذلك لا نعرف ماذا نفعل بالجنس؟ ماذا يوجد في داخله؟ لا أحد تعرّف عليه ولا أحد تركه إلى الأبد. وها أنا أمدّ قدمي اليمنى في البانيو وأدفع الثانية وأهبط كسمك القرش فأسمع صوت الماء وهو يرتفع وينخفض كصوت غوّاصة حربيّة فيبدو جسمي مخيفًا جدًّا. لا أعتقد، يا للغرابة، أنّ هذا البدن هو لسرمد برهان الدين، ذاك الطالب الجامعي الهزيل اللطيف الضائع ما بين فراق ڤيونا والتحضير لاستقبال «ألف». ولا امرأة فارقتني قطّ، إنّهنّ موجودات، لكنّهنّ انفضضن عنّي وتوارين، فلم أتبع واحدة منهنّ

بعينها إلاّ «ألف»، أضغط على اسمها كما يضغط الماء على بدني فأحاول أن أتحرّك في البانيو لكنّي لا أقوى، فتحضر «ألف» تشقّ المياه والزحام والفتن جميعًا وتأتي، لكنّي لا أعثر عليها. «ألف» كالشهوة موجودة لكنّي لا أقدر على لمسها. مياه الحمّام تنفث فيّ رائحة كالليمون الحامض والنعنع الأخضر فيسلمني إلى نعاس لطيف فأعود إلى حالتي الأولى. لا أريد أن أصير شخصًا آخر. أحبّ ما أنا عليه. أي.. صحيح السمنة أهلكتني لكنّني أحبّها فهي سمنتها، «ألف»، هي التي وجّهتني إلى الأطعمة والأغذية بجميع أصنافها ومطابخها ومن جميع أنحاء العالم. وأنا مجرّب ذوّاق لا مثيل له، فكلّما ألتهم صحنًا أراها في الصحن الذي يليه، هي «ألف» التي أخفت روحها في الأطباق، بالعذاب والسكوت والابتعاد فألتهم المواعين بدلاً عنها. نعم، بدانتي صارت مرضًا يحتاج إلى علاج. مرضي هو شهيّتي لبطنها وفخذيها وصدرها، لجميع أعضائها ولذاتها وتعاساتها. والآن ماذا سنفعل بعضنا بالبعض الآخر؟ أغمض عيني ويتمهّل خيالي في الذهاب إلى بقاع «ألف» النائية التي لم أعد أتعرّف عليها بعد كل تلك السنين. فيونا تكرّر دائمًا: إنّ علينا أن ننظر بصورة صحيحة. أجل، النظر بحرّيّة ومحاولة العثور على ذلك الكمين الذي يضعه لنا الجنس ويدفع بنا إلى المستحيل، لكنّ الحبّ يدبّر لنا الموت. الحبّ لا يكفي بذاته كأنّه من امتلائه الشديد يصير لا شيء. «ألف» كانت أشدّ النساء تطلّبًا عليّ ومنّي. قالت في أحد تسجيلاتها:

«سوف أدخلك مخطّطات مهنّد وأتركك سائبًا في مجاري الدم، دمي. اسمع سرمد! أي، أنا أشتهيك طويلاً وبرمتك وبعدد من المرّات المباغتة والسابقة التي لا تعود للأعوام ولا ترجع للزمن. وإذا لزم الأمر عليّ أن أقول لك، الجنس لا يفيد، هو شيء غير نافع. كلا، لا تتصوّر أنّ الغموض يكتنفه، على العكس، إنّه مكشوف عار ورتيب وأحيانًا لا يطاق». حين أخبرت يوسف في أحد الأيّام، أنّني حضرت لباريس لكي أشاهد جميع ما فاتني من أفلام البورنو بعدما أخذت حصّتي من حي سوهو. تصوّر صديقي أنّني أمزح. فالبلد هو أيضًا يتكرّر، هو مكرّر، هو التكرار ما بين الموت والموت. في ذلك الوقت قال لي مهنّد:

«هيّا يا سرمد غادر، فغادرت».

الغدر والمغادرة. اجتزت النظر والبصر والصوت والعلوم الطبيعيّة واللغة الإنكليزيّة وأرقام الهاتف الدولي التي كنت أتصل بها يوميًا بـ «ألف»، ولا أحد يردّ عليّ في دارها فجميع الخطوط كانت دومًا تحت المراقبة وجميع الأصوات أيضًا. «ألف» قالت لي بعد ذلك بسنين، إنّها باغتت مهنّد وبعد زواجهما، فذهبت إلى بيت أهلي في الوزيريّة. كانت تحبّ أمّي أو أمّي كانت تحبّها، هي لا تعرف. «ألف» كانت تهاتفني من بيت العائلة فلن يخطر ببال مهنّد أنّها ستفعل ذلك. كانت تسخر بالهاتف قائلة:

«سرمد هل لازلت يساريًا لو تحبّ أقول لك ماركسيًّا. اليوم هذا الأمر صار كالعاهة التي لا شفاء منها».

* * *

كلّ مرّة أكرّر وأكرّر وأردّد: «ألف» المرأة السلوان وهي تتزايد هنا وأنا في هذه المدينة والغرفة وصوت المياه، في البانيو نتناقص في الحوض الفسيح. لا شيء إلاّ وهو جاهز أن يذهب، يهرب من بين يدي بعدما أفرغت البانيو تمامًا، وها أنا أحاول تعبئته ثانية فأرى الفقاعات وهي تتجمّع بعدما وضعت السائل المعطّر، فشاهدت كيف تتّحد الأشياء وتتباعد، تتراصّ على شكل كتل وتتفارق على صورة ذرّات متباعدة، فأمدّ رأسي وأطلّ على تلك الحسناء أمامي في الفيلم الخلاعي. شاهدت جميع ما عرضته القنوات دون حجج جدّيَّة أو وجيهة، هي تتكرّر وأنا أيضًا فلا أحسّ لا بالبهجة ولا بالضيق. لست متأكّدًا إن كنت موجودًا وأريد أن أصمّ أذني عمّا أسمعه من آهات ومن الجنسين. آه، معقول جدًّا الانتقال من جسد إلى جسد، تمامًا، أن تقع المجازر وأيضًا من جسد إلى جسد. أمدّ قدمي إلى الحوض وأسحبها فأعاود وأشاهد نساء الأفلام. أتحرّك كحيوان برمائي ما بين اليابسة والماء، الصور وخيالي يركض وراءها. وما إن أفتح الدوش حتى أشاهد انقذافات طويلة أمامي والنساء أتفرّج عليهنّ وهنّ يحاولن ألاّ يمتن. يتراءى لي أن تكون هذه الحسناء رجلاً كما قلت لـ«ألف» في أحد الأيّام:

«في الصداقة أنتِ أكثر من رجل وامرأة، في الفراش أنت الأنثى».

حسناء الشاشة بدت رجلاً من يأس شهوتها العارية التي كانت تبدو وكأنّها صارت خارجة عنها. اعتقدت أنّ الرجال في التلفزيون يظهرون رغمًا عنهم كما في تلك البلاد وأمام «ألف». هل كان مهنّد رجلاً بالرغم عنه؟ مجرّد علامة على ما سبق وفكّرنا به. رجال الصور والمنازلات يبدون ككلاب صيد، كانوا زائرين في الزمان لا أكثر، أنجزوا المهمّة واختفوا. عدد مرّات المضاجعة غير مهمّ طبعًا وأصلاً لا قيمة لهذا الأمر، وعدد الإصابات لا وزن له في المجموع العام والأرقام غامضة. كنت أتحرّك ما بين الحوض والفرجة على أجزاء جسمي وعلى ما يجري أمامي على الشاشة. وحين لا أقدر على الجلوس أقوم بإسناد ظهري على الجدار وأشاهد تلك الصور والاحتفالات والطقوس، فنحن اليوم في شهر تمّوز، كم هو التوافق متكامل بين ما يحدث هنا وهناك، انفجارات وعلب ناريّة وتصعيد إلى الأوج وسيول وأفعال صحيحة، ولا ثانية عابرة أو زائلة. صور، صور من دونهم جميعًا، من دون بشر، من دون دم يجري في عروقهم. كلّها أفلام، شرائط عروض توقّفت منذ زمن، ذاك الزمن توقّف عند ذاك الحدّ كأنّ مهمّته الوحيدة هي التوقّف؛ وهؤلاء الغائبون في الأفلام والأحلام لا أنتظرهم عبثًا ولا اريد أن أدعهم ينتظرون. الانتظار الطويل يؤدّي إلى الاختفاء ومهنّد يصلني صوته في أحد الأيّام وأنا لا أعيره اهتمامًا:

«والله لو مشيت جنب الحائط فسوف نهدمه فندعك عاريًا، ها ما رأيك؟»

كيف كان يعرف أنّني أقف الآن عاريًا وورائي جدار فرنسي ولم يُترك لي إلاّ يوسف المنكّل به. كيف رأى جميع هذه التفاصيل فبدا عريي رخيصًا ولا يساوي شيئًا كما هو عري «ألف» تحته وها أنا أريد أن أصرخ. أمشي بقدمي المفلطحتين وأشاهدهما على بلاط الحمّام النظيف البارد كأقدام الجنود والجنرالات الفارّين، ومكيّف الهواء يشتغل إلى أقصاه وأنا أنضح عرقًا يحضر من غير نظام ومن سائر أنحاء جسمي. أرى البانيو وهو يمتلئ بالماء البارد. كنت أبتسم وأنا أتعمّد ألاّ أضع غطاء البالوعة لكي أشاهد الماء ذاهبًا فأعود وأسمع صوته هابطًا ثانية والرغوة تتكتّل وتتباعد والرائحة تصير خبيثة، رائحة جثث تنتظر عبثًا، انتظرت طويلاً وآن لها الآن الظهور كالفقّاعات. أجسام من توتياء، من بقايا الطحالب. أجسام حدّها الأدنى الموت تتقافز أمامي وورائي وحولي. فأحملق في أجساد النساء والرجال وأقول، أنا واحد منهم، أنت يا سرمد برهان الدين العادي العجول المذعن. فألتحم بالماء وأطرطش، فيتناثر على البلاط ويرتفع صوتي، أحاول الغناء والضحك والبكاء في وقت واحد. أحاول أن أرفع ما بقي من قضيبي فأبدأ بالتبول عليّ وعلى الذي خلّفني وأخاطبه بصعوبة. كنت أظنّ أنّه يفهم جميع ما حاولت القيام به من استحكامات وخنادق وساحات قتال واندحارات وانتصارات.. وها أنا أتأكّد أنّ العمل به قد انتهى، بدا رخيصًا

وبشمًا، وشيئًا فشيئًا فقدت تعاطفي معه وما عدت أريد أن أعود حارسًا له. وأصوات الغنج الشهوي تصل في مواعيدها وأنا أتأرجح ابتداء من أصوات صواريخ عابرات الأعضاء والنهود والفروج والآلات. الأصوات لا تتباطأ ولا تضطر للتوقّف، وهنا لا شيء يخصّني فأنا لا أقوى حتى على مسك صاحبي بيدي. الوقت ينقضي و«ألف» قالت ليوسف:

«الشقر دخلوا مدينتنا. أضافت، حتى السود والصفر والسمر شقر أيضًا. ها.. قل لسرمد، سوف نظلّ نقابل بعض الناس ونراهم يحفرون في روحهم لكي يعثروا على شيء ما، ذهبًا حنانًا، قلبًا عامرًا بالحبّ. سيبقون هكذا يا سرمد وفي اللحظة الأخيرة، بغتة، يكتشفون أنّ القتل هو الذي حضر ووضعهم في سلّته. يصدّقون، فما عليهم إلاّ أن يصدّقوا. ذاك هو القدر، ما يقولون عنه بالغاشم».

يا عيني على يوسف، اخترع لي هذا المركز والوصايا والعلاجات والتأمّلات والفحوصات الدقيقة جدًّا، وقال لي كيت وكيت وصدّق نفسه. يا عيني على مساوئ تصديق النفس والخضوع لها. أنا أيضًا اخترعت هذه العطلة المدفوعة الأجر، باريس هي الثانية وصفة، وصفات لأطعمة ومآكل وأغذية ومضاجعات وثورات وما بعد الجماع والندامة والندماء. باريس، الجميع يردّد وهو يطأها: أحبّك يا ابنة القحبة. يقلب روحه على نارها وبردها ومساوئها ويقبل أن يظلّ جاهلاً بأسرارها، وكأنّنا من الضروري أن نحبّ هذه البلدان والمدن والأمم، تقطع

رؤوسنا إذا لم نفعل وإذا أحببنا ستقطع أيضًا. وأنا لم أعد أعير اهتمامًا لأيّ شيء. لا أحبّ ولا أبغض ولا أتسلّى ولا أداعب والأصوات الآتية من التلفزيون تشتغل مثل الدوام الرسمي. فبعد أيّام قليلة من وصولي اكتشفت دور العرض الصغيرة الخاتلة في الفروع الضيّقة من هذا الحي. لم أكتف بها ففتّشت عنها في الشانزيليزيه. أقطع التذكرة في ساعة متأخّرة من الليل فهي لا تبدأ إلاّ في الساعة الثانية ليلاً. وما إن أدخل وأبصر ضيق المقاعد وصغرها حتى ألعن جميع دور العرض والمخرجين وتجّار وسماسرة وقوّادي وعاهرات هذا النوع من الأفلام. أصرخ في وجه يوسف ليلاً:

«ما هذا يا عزيزي ولا كرسي يلائم عجيزتي في تلك الدور من العرض».

يصغي يوسف ولا يجيب بأيّ شيء، فأتركه وأعود أتمشّى في تلك الساعات ما بين النعاس والفجر وأشاهد حشودًا من كائنات لا علاقة لها بمخلوقات الظهيرة أو المساء. لوطيّون جميلون كانت الرغبة تسيل من سراويلهم. متصابيات بديعات لا يبحثن عنّي بالطبع. سكارى مخبولون، وأشخاص يتحدّثون مع أنفسهم ولا يهتمّون بأحد، كأنّ المواعيد فاتتهم. أبصر في وجوههم أكثر ممّا أستطيع، وبدون أن أشعر أصطف بجوارهم. وعلى هذه الشاكلة أستعيد صوت «ألف» بعدما حضرت إلى لندن وتجامعنا في أحد الفنادق. أظنّ، بل أجزم أنّ مهنّد صوّرنا. كان يصوّرنا ويشاهدنا ويتسلّى، فأكرّر ما سجّلته «ألف» وأرسلته إليّ فيما بعد:

«آه يا سرمد، الجنس معك يشبه التحريض ضدّ كل شيء، كلا، ليس هو الثورة أو التمرّد كما تقولون في السياسة. الجنس معك يتبدّل وينقلب من حال إلى حال فيجعل أشيائي الصغيرة في داخلي تتنقل من مكانها. تعرف، أشتهي لو كنت منحرفة بطريقة من الطرق، أعني، الجنس يظلّ أمرًا مفتوحًا على الدوام، يتغيّر في كل ثانية، يصير أنواعًا وأنواعًا ولا تكفيه التأطيرات والتنظيرات أو التعابير الشعريّة، فكل شيء ناقص وغير مكتمل ويحتاج إلى إعادة ترتيب وتربية. لا أعرف إذا كان دقيقًا القول؛ ربما كان الشغف بالجنس، هو الذي يسمح لنا دومًا برؤية شيء جديد في داخلنا».

قناة بلوس تعرض فيلمًا بورنوغرافيًا طويلاً. القناة السادسة حين أذهب إليها تعرض ثلاثة أشرطة ساخنة وفيلمًا إيروتيكيًا مثل إيمانويل وسيليستين، تلك الآفة القادرة على فعل أيّ شيء. وضعت برامج القنوات قرب رأسي وفيونا تحضر من حين لآخر. هناك بعض القنوات تستضيف وفي ساعة متأخّرة من الليل نجوم البورنو تقدّمهم مذيعات وقورات. أخبرت يوسف بعد أيّام من وصولي بذلك، فرد قائلاً:

«من المرجّح أنّ النسبة تضاعفت بعد وصولك إلى الفندق».

وعندما استفسرت عن النسبة أجابني بسخرية:

«تصل إلى حوالى ٤٥٪، وهذا ما يضاعف بالطبع مداخيل الإعلانات»:

صمت قليلاً والتفت إليّ وبصوت بعيد قال:

«تقول إحصاءات الصحّة العالميّة أنّ ٢٠٠ مليون لقاء جنسي يحدث في العالم يوميًا فتنتج عنها ولادة طفل يوميًا».

صمت ثانية وسار إلى النافذة الكبيرة. وقف وهو يطلّ على تلك البقعة الضاجّة من باريس. انخفض صوته كأنّه يخاطب نفسه:

«لو نتصوّر فقط قارّات الأرض وبدون تداعيات كثيرة. نلتقط المشاهد وبدون الكثير من الخيال، وأنت ترى من داخل الأجساد، تلك الأشدّ وضوحًا، المليارات البشريّة وبدون العودة إلى اختلاف الفصول، أو الليل والنهار، وفي الدقيقة الواحدة، في تلك الدقيقة وليس غيرها، ترى بشرًا يضاجع بشرًا آخر فقط. بجلبة أو بدونها ما يكفي لجميع الأزمان والأوقات، ما يكفي أن لا تحدس أو تتوهّم، ما لم يسبق أن شاهدته في أيّ فيلم أو قرأته في قصّة ماجنة في تلك الدقيقة، هل تظنّ أنّها ولوحدها تعادل جميع مسرّات الكائن البشري؟»

لم يلتفت إليّ، لم يبتسم بل رفع يده إشارة على تحيّة متأخّرة. فتح الباب وأغلقه بهدوء وراءه. كانت تتنابني استيهامات يستحقّ تسجيلها وأنا أنتقل من قناة لثانية. هذا ما يفضّله الفرنسيّون. ربما البريطانيّون تستهويهم أفلام الرعب أكثر من الخلاعة. أمّا ما أفضّله أنا فلم أعد أستطيع الإخبار عنه، صار ماسخًا جدًّا. حين حضر يوسف في اليوم الثاني من وصولي وشاهدني مشغولاً بالفرجة على أحد عروض الأزياء لملابس البحر والنوم، أعرض بوجهه عنها ودمدم بصوت فكه:

«يا أخي لماذا يصرّ مصمّمو الأزياء على هذا العريّ التافه فتبدو النساء لا وجود لهنّ. إنّ العري التام يشبه النقاب التام، فكلاهما يدعان المرأة غير موجودة. إنّها تختفي من أمامنا. هؤلاء لا يعلمون بأنّنا نفضّلهن كاسيات وموحيات، وأنّنا نفضّل التخمين والتخييل».

اللعنة على البرودة الجنسيّة والصعوبة الجنسيّة والمبادرة الجنسيّة. آه، كم استخدمتني كيتا والبيضاويّة، كم تعرّيت أمامهنّ وأمام شاندي، هي الأخرى تستخدمني لجهة أبحاثها وتعاليمها فلا أقدر على لعب دوري ولا العودة من حيث بدأت. النساء كالرجال كذّابات ومتبجّحات لكنّ الرجال أكثر وأكثر. آه، كم كذبت وأكذب لكي لا تبهت صورتي ولا أحرم من سلطتي ووقاري. هل كان عليّ أن أكون أشدّ بذاءة ممّا أنا عليه لكي يتمّ تسويقي لعشيقاتي؟ بهتان كل ذاك الذي حدث ومرّ وفات، فأنا في قبضتهنّ كلّهنّ، قبضة القوّة العظمى، ليست تلك الوحيدة المستقرّة في البيت الأبيض، وها أنا أعالج من ازدواج القناع والهويّة، الفحولة وورطة المحفّزات والمنشّطات، الرأس العنيد وسحايا التلف الوطني.

آه، لو كانت «ألف» بجواري هنا على هذا السرير، ما إن أتقلّب حتى أسمع صوت خلايا جسمها كما حصل معنا في فندق لندن، حين كانت تهمس في أذني:

«هيّا يا سرمد إبدأ من سمانة ساقي، بسها، ولا تنسَ راحة يدي وبطن قدمي ومفصل الحجل والركبة. هيّا شمّني والثمني في جميع أعضاء جسمي و...».

أدوخ بين ماء الفم الشهي الجسور بإغوائه المستمرّ، والشفتين اللتين من المحال تجنّب عضّهما. بستها كثيرًا، على أبعد تقدير لم أفعل أيّ شيء سوى تقبيلها، فكانت تلتهب لهاتي فتهتزّ الحبال الصوتيّة في الحنجرة، تتباعد وتتقارب وتتحوّل تردّدات الهواء إلى نغمات صوتيّة، وبوصول تلك النغمات إلى مؤخّرة البلعوم

واللسان والشفاه تتحوّل إلى أحرف ننطقها بطريقتنا الخاصّة ونقول بالضبط: أحبّك، ولا نفاجئ أحدًا، أيّ أحد..

«ألف» سلالة لوحدها تجلب الحبّ والموت ربما بضربة واحدة. كنت أدخلها مخطّطات تفكيري فأعتني بكلّ تفاصيل وجودها الفيزيائي والروحي. أظنّ أنّ ابتداع المرأة القاتلة، تلك المميتة هي من ابتكارات «ألف» الأنثويّة، وما إن يصلها الذَكَر حتى توقع به دون أن يرفّ لها جفن. كنت أروّج لها دون علمي وأحاول إعادة اكتشافها وترجمة نزواتها وبالتالي تصير جميع اللعنات من استحقاقها. أرسل ما أترجمه وأكتبه لها، إجرائيًّا جميع ما فعلت وكتبت كان عنها وإليها: «كيف تستطيع المجيء هنا ومرّات عديدة دون التحرّك من هنا» تمامًا، هي لا تتحرّك من مكانها ولا تتسرّب من مسامي. جميع البشر يدرك بطريقة ما أنّ الذاكرات تلفيقيّة وغدّارة، لكنّي أنا لا أتذكّر «ألف» بالصور التي يتذكّر بها الخلق أسرارهم وخفاياهم. ذاكرتي لا تحتفظ بها، بل أنا أرتعب فعلاً من فكرة التذكّر وذاك الحنين البائت. كنت أبقيها وأستعين بها عليّ فتحصل الرعدة التي يستحيل تسجيلها إلاّ ونحن نرى الظهر ارتفع إلى أعلى والكتفين أسرعا لضمّ المحبوب ما بين الرّيح والذراعين. أعيد ما أترجم وأمحو فأرى «ألف» أفضل وأقوى من الكتابة والتدوين. كلّما أمحوها أراها أجمل وأكتشف سحرها. لا شيء مؤكّد معها، لديها الوقت الطويل، الأطول لكي تموت وتتكرّر. الموت يصنع ملامح البشر أكثر وأعمق من الحياة. كانت كيتا تردّد:

«الرجال ينسون أكثر من النساء لكنّ النساء لا يتذكّرن أفضل من الرجال».

جميع عشيقاتي أخبرتهنّ عن «ألف». كنت أبلّغهنّ جميع ما يتعلّق بالحفاظ عليها وإعادة ابتداعها ثانية أمامهنّ. البيضاويّة هي الوحيدة التي لم تعرف الغيرة منها. ظلّت تقول وأنا أفكّ ضفيرتها وأعيدها خصلاً مفرودة على ظهرها، أداعبها وأنزل إليها وأشمها بشراهة فتهمس:

«والله يا سي سرمد هذا احتفال لم نجرّبه من قبل. نتجامع نحن الثلاثة وليس على سرير واحد وإنّما على مائدة العالم كما تقول، فما أسرقه منك تعيده عليّ وما تأخذه «ألف» أعيده لك.. وها نحن نعيش وسط أجساد وأفراد عديدين، بل ندع حياتنا مستمرّة في غيرنا، غير كنقول هذه جنّة. عاد هي الجنّة ديالك ولا أشبع إلاّ ونحن كنغيب فيك مش صحيح هكا».

كنت لا أحبّ الكلمات المحدّدة، مثل عشيقاتي، بالطبع ها أنا أدوّنها وهنّ يردّدن ذلك أمامي ومع الأصدقاء والأصحاب، ولا أفضل مثل هذه المفردات التي تنتهي دائمًا بال«ألف» والتاء الطويلة كالسيّدات اللطيفات. وكان لي العشرات المستعجلات الطريفات وما شغلت إلاّ بواحدة بقيت خارج التنويعات والثقافات. وكلّما نويت سرد هذه القصّة ولو بصوت عال لنفسي أو لإحدى نسائي، كنت أتوقّف، آخذ نفسًا عميقًا وأقول، كلا كل هذا غير صحيح. «ألف» تؤلمني في الثانية الواحدة ألف ساعة وعام، فأتركها هناك ما بين السهو والتمويه. أكملنا الجامعة

وكانت الحرب تستعملنا دائمًا ضدّ الحبّ. هناك قواعد بها إكراه ووعيد صارا قاعدة ونمطًا للعيش. تصير جنديًّا لكن أخاك مهنّد يجعلك تتفادى كل شيء. تتفوّق وتحصل على درجة امتياز أنت و«ألف». هي تتعيّن معيدة وأنا لا بإيعاز من مهنّد. لم يسبق لي أن شاهدت امرأة ذات حرّيّة لا تسترجعها من الكتب أو المراجع ولا تستردّها من أجل أيّ أحد؛ وأنا فضولي ليس كبيرًا، أتلقى الأوامر من الجميع، من «ألف» ومهنّد في رأس القائمة. أخي وسيم، أعطيته علامة ٨٥ درجة. يشبه أمّي أكثر منّي، وأمّي بيضاء ذات شعر أسود وعينين عسليتين وملامح كنوتات الموسيقى. لكنّ الضحك لا يخطر ببالها، تقول:

«أي، ابني الضحك لا يدخل السرور للقلب».

أخبرتها عن «ألف» منذ الصف الأول وهي ابنة الدكتور رياض البغدادي، أشهر جرّاح عراقي. توجّست شيئًا لم تقدر على تفاديه. تسكت وتغيّر الموضوع. في ذلك الجوّ المختلط ما بين المريض والمجرم، والألمعي القدير، حين بدأت أجزاء من حياة الطبيب الشخصيّة تتناقل في الصفوف المتقدّمة بالجامعة، ثمّ بدأت تنشر تفاصيل عن حالات تسمّم وظواهر كثيرة بدأت الصحافة تنقلها وبالصور. كان يتوافر أشخاص على استعداد لتغيير نوعهم وشهادتهم وطوال الوقت. الطبيب يتفكّك وينزلق كما تقتضي المراسيم المرعيّة، وأوّل مرّة أسمع صوت «ألف» بهذا القدر من الغضب وأمام الصفوف المنتهية حين ظهرت إشاعة تقول إنّ والدها توارى، أو فرّ فجأة:

«كلا، والذي لم يتوار أو يهرب. هو ببساطة اختفى».

كانت تتحدّث لكي لا تصاب بالجنون. نشبت الحرب، حربها في الجامعة والاتحاد الوطني والصفّ ومعي، ونحن نسير في الشوارع الخلفيّة وراء أكاديميّة الفنون الجميلة فتحاول المشي ولوحدها، تدعني وراءها دائمًا. منذ ذلك الوقت وأنا أفكّر باختراع مفردات عن «ألف» وعن البلد ومهنّد. لا يجوز القول «ألف» العراقيّة كيت وكذا. شيء مسلّ أن أطلق ضحكًا عاليًا وأنا أدوّن هذا أو «ألف»ظه فأدعها في الواجهة ثم أسحبها للداخل، داخلي، فتلطمني على رأسي ولا تختفي كوالدها ولا أقدر على إخفائها بين الكتابة والترجمة والمحو. تركتها حيّة، تقيم في منطقة الوزيريّة أيضًا في وسط كل المجمّع الثقافي والأكاديمي والصحافي ببغداد. اختفى الجرّاح ووجد بعد أسابيع مشروطًا بمشرطه من الرأس إلى أخمص القدمين ومرميًا في إحدى ضفاف قناة الجيش. صعب اليوم قول هذا. أشعر بالخزي الفسلجي الذي يجعل لساني مربوطًا بالدم والجثث وأنا أتصوّر أنّ هذا كان مجرّد البداية لما حصل ل«ألف» وفيما بعد لأفراد أسرتها. سيف، شقيقها اختفى هو الآخر ولكن لم يعثر على جثّته لليوم. والدتها المهندسة المعماريّة المرموقة أصيبت بفالج أقعدها، ربما لليوم فأنا لا أعرف جميع ما حدث لي ولها ولنا جميعًا، قاله مهنّد بطريقة جدّ عاديّة، وبصوت خفيض وبارد وهو يودّعني ويضعني في الطائرة المغادرة إلى الرباط:

«عليك أن تؤمن بي».

وقال لـ «ألف»:

«هكذا أنا وهذه فقط واحدة من برامج حبّي». «هيّا انظروا على أيّ سرّ أنطوي».

لم نفهم تمامًا، «ألف» وأنا ما هي العلاقة بين الحبّ وتنظيم ذلك الترويع والانتهاك الذي أصابنا جميعًا. أنا وصلت المغرب في أوّل جولة لي لتلك البلاد الفاتنة. كلا، لم أغادر من أجل أيّ أحد ولا حتّى من أجل نفسي. ربما فعلت ذلك لأنّني شعرت أنّني أقف على الحدود القصوى ما بين الجريمة والجنون. نعم، كان بمقدوري أن أتدرّج على حدود الضفّتين، لكن «ألف» كانت تطلق على رحلتي والتي لم أعد منها لليوم، رحلة التخلّي والخيانة.

* * *

«دع قسمك الأعلى عاريًا من فضلك».

دخلت غرفة صغيرة جدًا، علّقت قميصي وخرجت. أشار الرجل على سرير جلدي فرش فوقه ورقًا حليبي اللون وسميك النسيج، ما إن هبطت فوقه حتى تلوّى وتجعّد تحتي. اتخذت وضعيّتي المناسبة وبدأ بوضع الأشرطة اللاصقة الموصلة بجهاز فحص القلب. كان قلبي على وشك الانخلاع وهو يضرب صدري وكأنّني أتعرّض لأزمة قلبيّة ولكن هذا غير صحيح. أسمع الدقّات وإلى ما لانهاية، تك تك. قال:

«النبض سريع وهو ليس على وتيرة واحدة. أوكي، الضربات سريعة هي أيضا».

صمت. فقلت بصوت ساخر:

«هه! وماذا في الأمر إذن؟»

لم ينظر في عيني. بدأ يرفع تلك الخيوط واللاصقات فعدت أتنفّس بصورة عاديّة. يمسك بي من ذراعي لكي أستطيع القيام بصورة صحيحة. فقال وهو ينظر إليّ تمامًا:

«يبدو أنّ قلبك مزدحم بأشياء كثيرة وهذا الذي يجعل النبض يسرع كثيرًا. قف هنا من فضلك».

أشار بيده على قياس ما موجود على الحائط. وقفت وعلا وجهي شيءٌ من الارتباك. كان طولي مائة وثمانين سنة من الفقد والاحتضار.

«ارتدِ ثيابك واذهب إلى الغرفة الثانية رقم B من فضلك».

كنت أتوق للكشف بالمجهر على داخلي وأحشائي، وليس على الغدد والأوعية اللمفاويّة، الكلية والبنكرياس إلخ. أظنّ أنّ الروح تتلعثم هي الثانية، ترسم خطًا هروبيًا لكي يستحيل الإمساك بها، على الأقلّ، هنا في هذا المركز. أنتقل بين الغرف فأشعر أن أعضائي وأجهزتي تفقد سيولتها، فالاضمحلال الجنسي لا يمكن ملاحظته على الفور، يمشي بصورة خفيّة حتى يأتي على كل شيء كالحيوان القارض. هنا، تعلّمت أن أحصي الباقي من الأيّام، أرتّب هشاشتي وهجراني فأبدو في تمام البهاء وأنا على وشك... لا أعرف على وشك ماذا؟ على وشك شيء ما سيحدث لي وسوف أفعله بعد قليل. في جميع هذه الأمكنة يتمّ الاعتراف بأنّني مريض، المرض يجعل منك فائضًا عن أيّ تعرّ. غريب، وأنا أدخل وأخرج كل شيء يتمّ ويمرّ بسلام وهدوء. الآلات تعمل على ما يرام. شاندي ويوسف والآخرون يريدون مشاهدة كل شيء من الداخل، عال، يشقّون الطريق بالأجهزة الدقيقة جدًا فتظهر على الشاشة التي تعرض أمامي وبطريقة أمينة جدًا كل مستودعاتي، والرجل أو المرأة يلمسان لحمي وأعضائي ويتفوّهون بأشياء لطيفة. يثرثرون ويبتسمون بقيراط. جميع الصور حيّة وأنا أتنفّس بعمق. يتركونني أتصرّف كما أشاء، نعم هي

الغرف التي كنت أمرّ بها ولا أعرف ماذا يدور داخلها ولا أدري متى سيجيء دوري. تتغيّر الأضواء والأدوات والأجهزة فيطلب منّي خلع جميع ثيابي ما عدا اللباس الداخلي. ولا امرأة تعرّفت عليها ونحن في المكتب أو المقهى أو العربة أو المطعم إلاّ ونزّعتها جميع ثيابها، هذه طبيعة الطفح الجنسي، جولة وخطّ هروبي وإبقاء الإثارة تتضوّع ما بين الأعضاء فأرى ركبها وربلة ساقيها وارتجاج بدنها بين يدي وأنا أوجّه لها فوهة صاحبي كما لو كان بندقيّة صيد، أوجّهه إليها، ليس في ذاك الموقع فقط. لا يكفي، الفرج يدخل في عزلة في كثير من الأحيان، يمكر ويخدع فلا أعود أراه. بتلك الوتيرة لم أنتبه لقلوب كيتا والبيضاويّة وراما آخر حبّات عنبي وليس بالتساوي بالطبع. لم أواسِ أو أداوِ، حتى «ألف». كانت العجلة هي التي تنسّق ساعاتي، وخلاف ما ظلّت ڤيونا تعلّمني إيّاه. بالطبع، كنت أردّد، السفالة تسبق دائمًا نعوت اللطافة إلخ. أجل، وغد أنت يا سرمد وسافل، لكن هذه الأمور هامشيّة وليست في عمقها إلاّ شيئًا مضادًّا للسفالة أيضًا. حسنًا، كنت أقول لا داعي لحبّ كيتا والبيضاويّة وراما. الحبّ دائمًا بحاجة إلى واو العطف، أنت وشيء آخر، ضمير المخاطب أو ضمير الغائب. الحبّ يجعل الضمير في حالة انتصاب وأنا كنت أكتفي بانتصاب واحد. كنت أدقّق في وجه فلانة وعلانة كما أدقّق في وجه هذا الرجل الآسيوي وهو يقول لي:

«تبوّل في هذا القدح واجلبه إليّ من فضلك».

الكشف عن العجان وتحويل مجرى البول بواسطة تقوية

المثانة، زاوية الإحليل والصفن. كان شعر العانة يمتد نحو السرّة إلى أعلى وكنت أقدر على لمسه وأنا أضع يدي الاثنتين على منطقة صاحبي القديم جدًّا، بدوت خجولاً فعلاً حين تكشف كل شيء فبدا الأمر مضحكًا. كل رجل تعرّفت عليه كان يردّد: إنّ أعضاءه أجمل وأعظم اختراع للبشريّة. وهاب وخلف، مهنّد وأبو العز، أبو مكسيم وباقي النساء، هنّ أيضا، جميع نسائي اللطيفات يردّدن على مسامعي فصولاً عن مدوّنات الحضارة الإغريقيّة وتمجيدها للجسد الرجولي. صحيح، جسد الرجل في حالة تحفّز مستديم يرتعش، يختضّ وينقض ثم يتوارى فتفوح منه رائحة ذبول سرعان ما تنتشر على ما حوله وما يجاوره. أضحك وأنا أمسّ جسدي بيدي، أمسّ ذاك المختفي بأصابعي الغليظة المشعرة فأشعر أنّ دوره منتفٍ. الرجال والنساء يفحصونني وحسب الخطّة المرسومة، تلك التي دوّنتها شاندي ويوسف وتحوّلات وضعيّتي بالطبع. فأشاهد في عيون من يحاول أن يجلسني أو يتركني أتمدّد ومن يحاول رفعي إلى فوق ومن يقوم بمساعدتي على الوقوف والاستناد على الحائط. لم أعد أقوى على ما يجري أو يحدث لي، فأسمع صوتي يوسف وشاندي لكنّني لا أراهما. الفحص يطول وقناني الدم تتكاثر وأنا أشاهده كأنّني أرى جميع من يسكنه من بشر ومكروبات. أطلق ضحكة مجلجلة وأنا أردّد:

«دهماء رعناء، خراء خراء...».

هذا المركز وكل هذه الفحوصات لن تقدّم لي أيّ حلّ لا

إضافي ولا أصلي. وددت لو قلت لهذا الآسيوي الواقف بجوار رأسي: حين اختفى عضوي صرت أفضل ممّا كنت عليه. كان الرجل يتمتم بلغة إنكليزيّة سليمة:

«البنكرياس سليم والطحال غير متورّم».

«والكبد؟»

«مستقرّ في وضعيّته. بالنسبة لحالتك».

ثمّ طلب منّي أن أبلع ريقي وهو يضع يده على رقبتي المضحكة التي لا يظهر منها إلاّ الطيّات والثنيات. قال لي:

«وجّه نفسك إلى هذا الجهاز. وضع أمامي صفحة بيضاء وبها ثقوب تتصل بورقة ثانية ذات سطح مستوٍ. كنت أتصوّر أنّ نَفَسي سوف يصل تلك الأوراق فتوجُّ بها النار؛ لكن كل ذلك غير صحيح. الغرف التي عليّ اجتيازها كثيرة وأعضائي هي أيضًا لا تحصى ولا تعدّ، فأرى الآلات تصاحبني من هذا العضو إلى ذاك. كنت لا أريد أن «أموت في الصيف حيث كل شيء ساطع والتربة رخوة تحت المسحاة». وهذا الخريف وبه يتمّ تسجيل الوقت بالثانية وكل شيء يحصل كأنّه يعني الإيقاع بي. أسمع الرنّات والتباطؤات ما بين بدني والأدوات جميعًا. لا أذكر متى تيقّنت أنّ مدينتي لا تبادلني الهوى، ضاقت بي وبدّدت مائي وصدعت تمديدات جذوري فأعود إلى الأغلاط والادّعاءات، وأتيقّن: لم تعد لي أيّة احتياطات تذكر وأنا أسرع الخطى ما بين الغرف كأنّني أجري للقاء «ألف»، وألوف، والآلاف من الأماكن التي تتبعني ولا أستطيع زيارتها لأنّها لا تفارقني.

«أجل يا مستر سرمد، أنت مترجم وباحث وهذه أوّل مرّة نستقبل في المركز مثل هذه المواهب».

«مواهب، كثّر الله خيرك. يا سيّدي، دائمًا هناك مبالغة ما في مكان ما».

كأنّني سأموت إذا ترجمت، وإذا لم تفعل ستموت أيضًا. الاثنان يكذبان. الترجمة تكذب والتدوين أيضًا. في أحد الأيّام وأنا أحاول أن أعلّم كيتا كيف تعفط بغنج وبصورة عراقيّة مضبوطة:

«كيتا أنت تضعين بالأفكار الشعر والشفافية وليس العكس، فكيف إذا عفطت، من المؤكّد سوف تسجّلين مستوى لم تصله العفطة العراقيّة من قبل».

كانت «ألف» تعيش بيننا أنا وكيتا، لا أنتصر بها على هذه ولا أندحر مع تلك، نجتمع سويًّا فأعيش بين مستويين وخطرين. «ألف» تواعدني وغير قابلة للذوبان وأنا أتمدّد ولا أقوى على الوقوف وجاهل ما يحصل لي. أجلب جميع النساء اللاتي أعرف ولا أعرف. المعلّمات، السيّدة ريجينا معلّمة اللغة الإنكليزيّة في الصفّ الخامس الابتدائي في مدرسة نجيب باشا النموذجيّة الكائنة في شارع طه. كانت تعلّمنا اللّغة كما لو كنّا نتلقّى باقات الزهور المقطوفة للتوّ، فننصت إلى صوتها كما لو كان نوتات بيانو. منذ تلك السنين كنت أنظر إلى الصوت، أيّ صوت بشري، أراه في عيني، أجمعه وأذهب إليه وأنا أقابل جميع النساء اللاتي تعرّفت وشقيت بهن. كنت أرى القناني البلاستيكيّة تمتلئ بدمي وتتكوّم

أمامي، تغلق وتُلصق فوقها الأوراق. قميصي ينزاح ويرتفع إلى أعلى فتظهر سرّتي تشبه تينة أصابها العفن والملوحة. يوسف قسّم الكروش على شاكلة علميّة لكنّها أضحكتني، يقول:

«الكرش العضلي لا يخصّك. الكرش المترهّل هذا الذي أجرى صاحبه عمليّات جراحيّة في منطقة البطن مثل الفتق الجراحي، فتؤدّي إلى ارتخاء العضلات وتزداد حاجة الإنسان للطعام والشراب بشكل كبير فتترسّب الدهون وتحدث البدانة ويظهر الكرش. أمّا النوع الآخر فهو الكرش المنتفخ وهو كرشك يا سرمد. يشبه البالون ويحدث نتيجة إسراف خطير في الطعام وزائد عن حاجة الجسم. هل تريد أن تعرف الأسباب أم لا؟»

وعندما لا أردّ عليه يواصل قائلاً:

«الإسراف في الأكل نتيجة إصابة الشخص بالاكتئاب والتوتّر العصبي إلخ. إسمع، حتى المرء المتفائل والسعيد تتفتّح شهواته بعد تفريغ ما لديه من عواطف وانفعالات، فنجده هو أيضًا يتناول كمّيّات كبيرة من الأكل فتحدث السمنة ويظهر الكرش».

كلّما ألتقي بيوسف ويحدّثني، أشعر أنّ لديه صوتًا يضرب روحي. أحيانًا يسلسل الأحداث ويعمل جهده لكي يكون واضحًا، وفي الأغلب يتحدّث ولا ينظر في عيني أو إليّ، وأنا لا أحبّ هذه الطريقة في المحادثة. فحين كان يقدّمني لبعض أصحابه الفرنسيين يقول لهم وكأنّه كفّ للتوّ عن البكاء:

«لا أعرف كيف بمقدورنا أن نقدّم أصدقاءنا. فبعد غياب بضع

سنين صعقت من مرآه. أجل، إنّه مخرّب. هو ليس سرمد، ذاك الذي أعرفه. هنا رجل آخر انسلّ منه وذهب خارجًا عنه ولا أظنّ أنّه سيعود. طبعًا رجل شغلته، أو اهتمامه الأساسي هو السياسة، يعني يشتغل ويعمل بها كما لو أنّها وظيفة. أظنّ، أنّه ألحق الأذى بنفسه بالدرجة الأولى. هناك فئة من البشر تقدر على تحطيم ذاتها، تحمل البذرة وتقوم بالدور على أكمل وجه. بقي غير منظم لكنّ السياسي يلتهمه أكثر من الباحث والمترجم. نعم، هم هناك مسيّسون بطريقة جدّ إجراميّة. التفت إليّ وواصل بالعربيّة، أظنّ أنّ لدى العراقي غدًا قادرة على تخصيب الهلاك والخراب. تذكّر مهنّدًا وفلانًا وفلانًا، ها سرمد لا تجيبني أرجوك، كأنّ جميع ما لديكم هو لا رجعة فيه قطّ. صمت قليلاً ثم أضاف بصوت حزين جدًّا، في بلدك يا سرمد الفتك والانتهاك مواد طبيعيّة، كأنّها مسقط الرؤوس جميعًا، وهي بالتالي لا تفنى ولا تستحدث من العدم فتفوز بجميع الأشواط. أعرف يا صديقي أنّك حضرت إلى هذا المركز من أجل المزيد من اليأس وليس العكس».

كنت أعرف أنّ يوسف موجود في مكان ما من هذا المركز يشرف على عموم الفحوصات ويقرأ النتائج، ربّما يراقبني في الغرفة المجاورة، وما إن أقطع الممرّ حتّى ألاقيه. هنا يعملون أيضًا بالتجسّس على أجسادنا وأفكارنا مثل مهنّد الذي كان يحاول إعادة تأهيل البشر الذين استغنت عنهم المؤسّسة. يقول، هؤلاء تذوّقوا الوجاهة الاجتماعيّة والفلوس الكثيرة. نعم تسبّبوا ببعض

الكوارث فصار رأسهم منكّسًا وجيوبهم خاوية ونقدر أن ندعهم يلعبون ثانية. أخبرني أبو العز، أنّ مهنّد كان يستعين بالفتيات الجامعيّات وموظّفات فنادق الدّرجة الأولى والثانية ونساء السياحة والخطوط الجويّة. كان يحبّ اختلاط المسؤوليّات والعمليّات والأجناس. فهو ذو جلد وعزيمة لا مثيل لها فيقوم بدور العميل السرّي صاحب الأسماء الحركيّة والأقنعة والأزياء الغريبة التي تتغيّر من التقليديّة إلى الكرديّة والعشائريّة والبلديّة. وكان ينكت ويطلق الطرائف من حين لآخر فيردّد على مسامعه قائلاً:

«اسمع أبو العزّ، رجل المخابرات يشبه مدرّب المصارعة، على الأغلب يتلقّى اللّكمات والضربات لكنّه يحاول صدّها بكل الوسائل». قام بفتح شركات ومجلات ومطابع وصحف ووكالات صحافيّة للغطاء على أنشطته الاستخباريّة. والطريف بالأمر أنّه أسّس وكالة مصرفيّة صغيرة في بيروت تحت اسم ـ هندس. أبو العزّ يقول هي تتكوّن من تشكيلة حروف اسميكما. سرمد ومهنّد، ها. والمعنى يا سرمد، هندس، تخصّصت طوال سنوات التسعينات وإلى بداية القرن الحادي والعشرين بصفقات مشبوهة وغسيل أموال وتجارة تهريب الماس والذهب والفضة والبترول، وتورّطت بعمليّات اغتيال ومحاولات لم تنجح وأعمال كثيرة من نهب وفساد وتدمير. سألني أبو العزّ عن معنى هندس بالضبط فأجبته: بالعراقيّة المحلّيّة تعني الظلام الدامس.

* * *

يضعونني على سرير متحرّك بعجلات، فلقد شاهدوا تعبي الشديد. أدخلت إلى غرفة مراقبة الأذن والمجال المغناطيسي. وضعوا في يدي آلة صغيرة وفي نهايتها ما يشبه القرص وما عليّ حين سماعي الصوت، أيّ صوت إلاّ أن أضغط فيصل الرنين إلى الشاشة أمامي. هنا شاهدت يوسف بجواري. قال:

«هيّا يا سرمد لم يبق إلاّ القليل من الفحوصات. فهمت التعليمات؟»

حرّكت رأسي إشارة الفهم والاستخفاف أيضًا. لم أحاول الضغط ولا مرّة. تضايقت المرأة الواقفة أمام الجهاز واقترب يوسف منّي:

«هل حقًا لم تسمع أيّ شيء يا سرمد أم أنّك تعاند وتكابر؟ هنا لا ينفع مثل هذا التصرّف. هيّا سوف نعاود من جديد».

قمت من مكاني بهدوء في بادئ الأمر. نزعت عنّي جميع الأسلاك الموصولة بأذني. نظرت بلامبالاة تامّة وأنا أقترب من أذن يوسف:

«هيّا اتركني، اتركني أنت وجميع آلاتكم». بدأت أمشي

وأهشّم في طريقي كلّ ما تصله يداي. أرمي القطن والشاش وأسحب المناشف وأكداس الورق والكفوف البيضاء والعلب المعدنيّة. يوسف والممرّض التصقا بالجدار وأنا بدأت أقفز داخلاً غرفة مهشّمًا ما بها وخارجًا إلى أخرى. حيوان أهوج. فبدأت وجوه المريدين والأطبّاء تظهر من فتحات الأبواب. لم أكن شديد الاهتياج، أجري لكنّني أعرف إلى أين تقودني الخطوات القادمة. الحمّام أدخله وأفتح صنابير مياهه الباردة والحارّة فيتصاعد البخار من حولي. بخار وغبار الراجمات والصواريخ. تختفي غرفتي في بيت الوزيريّة ولم أعد أراها بصورة جيّدة. إفراغ وشحن، انتصاب وإيلاج. أجساد تظهر على الشاشة طليقة تدفن ولا تتخفّى، وفرقة دبّابات تشارلي كمباني من قوّة المهمّات الخاصّة ١ ـ ٦٤. سجّل جندي أميركي اسمه جون مارتس بعض ملاحظاته في الشهور الثلاثة الأولى، قال إنّها مشاهد ستبقى معه إلى الأبد وهو يصف الأهوال. كلا، لن أعيدها ثانية، هذا غير مجدٍ كما هو حاصل معي في هذا المركز. فالسماء لازالت في مكانها وكان ينبغي رفع رؤوسنا إليها لنرى تلك الألعاب الناريّة. إنّهم يلعبون ونحن نتفرّج. لا أحد يطلق الرصاص على السماوات ولا أحد يصيب أيّة نجمة. كل شيء يظهر أمام عيني وأسمعه بأذني على بعد الخطوة الأولى. غرفة العمليّات والمخدّر الذي أتوق إلى تنشّقه الآن، كما أتوق إلى أن يلمسني السيّد الوالد، لو يرفعني هو بدلاً من يوسف وهذا الشابّ النزق المذعور. ها إنّني أؤذي نفسي فأقوم وأقع وأجرح في مواقع عدّة من بدني. دعوني أذهب من أمامكم، فأفرك عيني

واضغط على رأسي لكي لا تسيل دموعي. وليلة أمس سألني الشابّ الذي فحص عيني:

«... إنّ بها قصورًا شديدًا».

«أيّهما من فضلك»؟

«الاثنتان تعانيان من إعتام في الرؤية».

يوسف وبعض الرجال الأشدّاء يحاولون القبض عليّ. طبعًا لم أجد كلمة أفضل منها وهي ملائمة ولطيفة. بيولوجيًّا أبغض ما يدعى بالوطن والإيديولوجيّة. كنت أبدو كما لو كنت أمثّل دورًا فوق مسرح وأمامي جمهور حقيقي وقامات تظهر وتتسمّر واقفة للفرجة. كانت شاندي تردّد حين أتصرّف بعض التصرّفات الهوجاء: «هذا عنف الجهل الأوّل».

بدأت حركتي تتغيّر لكنّ المشكلة أنّ ممرّات المركز ضيّقة، وهناك مريدون ورجال ونساء وموظّفات عاديّات وأشياء لم أعد أتذكّرها، ولساني يسبّ ثم يتلو صلواته أيضًا وصوتي يستغيث بـ «ألف» التي كانت تصاحبني في كلّ بلعة ريق أو رفّة جفن:

«ألف إنّني أشتهي لو أصير أنت وأقدر على القيام ولو ببعض التحصينات».

لا أحد استطاع الوقوف بوجهي. كنّا نتبارى في من بمقدوره أن يكون سريعًا في الركض والجري والملاحقة؟ أيّ صوت يريد يوسف التأكّد من رنينه وقوّة فصاحته ها؟ صرنا وجهًا لوجه. أشمّ رائحة موت تحضر من النوافذ والأبواب والصمت ووجه يوسف

الجميل، وهي النظرات المختلسة التي يلقيها عليّ لا أعود أحتملها، وكأنّها تجهر بموتي اليوم والأمس. مدّ يده ومددت يدي، ألهث ولا أستطيع السيطرة على أنفاسي المتلاحقة ولم أصمد أكثر ممّا جرى. كنت أتأرجح بين ذراعيه النحيلتين. حسنًا، صار لحمي رخوًا وهناك شيء، غرزة إبرة أو شيء من هذا القبيل في فخذي فتصير أطرافي مسالمة وبدني يؤخذ بلين، يرفع ويوضع في سرير نقال.

* * *

ها إنّني أرى ولا أتذكّر. كل ما امتلكته مجزّأ وغائم فلا أقدر على إعادة تركيب ماضيّ، فجميع من سردت شذرات عنهم في هذه الكرّاسة ينفلتون من التجانس ولا أريد أن أبرهن من خلالهم على أيّ شيء. فلم تكن بيني وبين مهنّد علاقة أخوّة لا بالدم ولا بالصداقة. انتظرت «ألف»، لم أفعل إلاّ انتظارها على وجه التحديد. آه من لسان «ألف». يخوض جميع الحروب فلا تشيح بصرها عمّا يقف أمامها، مهنّد وجمع من أفراد جهاز المخابرات. تشتم بيسر ولا تدفن وجهها تحت المخدّة. شتائمها فاحشة ولسانها سليط وصوتها لا ينخفض. لا أعرف حتى الساعة كيف ومتى تعلّمت كل هذا القاموس وأين كان يقبع بدلاً من ترف الصوت الهامس واللسان العفيف والعينين المباغتتين.

في المخطوطات، يعود الأشخاص لأصلهم، يبسطون قانونهم وينجون من الابتزاز والرشاوى. مهنّد كما هو، كما دوّنته بالضبط لا تناقض البتّة بينه وبين أبي مكسيم. صحيح، إذا أردت تحديده فأنا أرى الأشياء بدقّة متناهية وفي كثير من الأحيان لا أقوى على نقل تلك الدقّة إلى المفردات. أزعم أنّ الحبكة أو الحكاية تنزع عن هذه المخطوطة دراميّتها ودمويّتها وأنا لا أفضّل الصفتين. فكلّهم، الوالدان، السيّد برهان الدين والسيّدة مقبولة، اسم

الوالدة الذي نسيت ذكره من قبل، كلّهم حضروا إلى هنا، في المخطوطة. كنت أتوق مثلاً لو جعلت أمّي تجنّ لغيابي وتفقد توازنها. تسقط بالحمّام ولا تشرع في مناداة أحد. تتوقّف عن الكلام قطعيًا ولا تعود التفاصيل تهمّها. وهذا ما حدث لها بالضبط. حين يتمّ هذا الانبثاق لكل جزيئة من أفراد عائلتي وأهلي الأبعدين فلا يأخذ الواقع وظيفته ولا التخييل. فماذا، هذا ما حلّ بنا وبهم. لماذا لا يعود مهنّد للظهور، لأنّه لم يبرح مكانه العادي في الوجود وهو هكذا، لم يتغيّر بصفة عامّة وأنا أمامه لا أمتلك تقنيّات تجريبيّة كما يستهوي الدارسون قوله. لقد لاحظت بشكل فوري، أنّ «ألف» كانت تزودني بملاحظات، تصوّرتها في وقتها، أنّها تريد اختزال ما يمرّ أمامها من تصرّفات مهنّد وأفراد أسرتها الكبيرة وولديها وخداعات جميع ما طفح بها وبي حتى دخل الشقر تلك البلاد، هذه مفردتها. هي التي أطلقت على أولئك القوم اسم الشقر ولم أوافقها، فقد كان بينهم أصحاب بشرات خلاسيّة وصفراء وسوداء لكنّني وفيما بعد بدأت أنا أيضًا باستخدام هذا اللّقب، فهو وبمعنى غير منغلق يحتاج إلى تأويلات لا أوّل لها ولا آخر. عال، في أثناء العودة من المرض والصمت تعود بمخطوطة. وأنا أحاول أن أضحك في وجه شاندي. لقد تغيّرت، حين جلبتها إلى الصفحات في أوّل أيّام وصولي إلى المركز كانت كما هي بدون زيادة أو نقصان. جميع من أحضرته معي إلى المركز من أسماء وأحداث وُجدوا في رأسي وكنت ملكًا لهم، فبدأوا يسدّدون أثمان وجودهم. هم الذين أخذوا يدي وقدمي وكنّا نغادر ونعود. كل الأسماء التي ذكرتها هنا، وحتى لو حضر أصحابها مرّة واحدة فقط، سوف أقوم بتعدادها وليس

بحسب التسلسل، فهذا حذلقة، ولا بحسب الأهمّيّة فهو نفاق. من يخطر ببالي سوف أسجّله. وهّاب اختفى وخلف أيضًا. حضرا من الجنوب والشمال سكنا القسم الداخلي ويوسف أيضًا. ولقد حدث لهما أن اختارهما مهنّد كممثلين له في الوشاية والتحرّش الجنسي والإيذاء النفسي والعصبي. أجل، صدّقت ذلك ولم أرفضه. لم أستطع منع أخي عن أيّ شيء. لم أقل لا؛ لكنّني لم أقل نعم أيضًا. فكان مهنّد يهزأ من كل شيء وفي الوقت نفسه كان يبدو مندهشًا من طريقة فضولي الضعيفة. كيف لنا أن نعرف جميع تلك الأحداث أو تلك التي حدثت بالفعل. مهنّد كان هو الوسيط لكنّه كان الوسط الذي يتحرّك فيه هؤلاء جميعًا. الوالد له سلطة الخياطة واللعب. بالضبط، كان يلعب بهم. الاستيقاظ على تلك الأبدان التي تحضر إليه في الليل فيراها أمامه في الصباح وكأنّ أصحابها فرّوا من المعتقلات. عرف الوالد ومنذ وقت مبكر ما كان يشغل رأس مهنّد، وخيّل له أنّ بمقدور ابنه أن يكون منحرفًا فاسدًا، أمّا القتل وبدون دافع أو اعتبار فقد وجد صعوبة كبيرة في تقبّله. أنا، ربما، تصوّرت أنّ الجريمة لمهنّد كانت فرصته الأخيرة. على أحدنا أن يقول هذا، يكتبه. إن هذا كان موجودًا ولا يزال وسوف يبقى... وإنّ تلك الفظاعات تحدث لأنّ الأمور تحدث هكذا، وربما دائمًا ولا ندري هل نقدر على قولها بطريقة ما. بمعنى، هل إذا قيلت بهذه الطريقة أو تلك سوف لا تكون ملفّقة. الخزائن التي كان الوالد يضع فيها البدلات العسكريّة والأنواط والنجوم والنسور، الجديدة أو نصف نصف، بطانة الأقمشة الحريريّة بالأزرار والدرزات الكبيرة بالخيوط الملوّنة تنتظر من يقيسها ويرتديها ويعرق ويموت

فيها. كانت مصفوفة ومعلّقة في جميع جوانب المحلّ الكبير والأنيق الكائن في شارع الرشيد. حين أرسل مهنّد تصاويره ومن جميع الزوايا، الداخل والخارج، واللوحة الكبيرة المكتوبة بخطّ كوفي وحروف غريبة، تصوّرت أنّني أتفرّج على مسلخ وأنّ تلك البدلات التي تصطفّ بجميع الألوان والموديلات قد غادرها أصحابها إلى جهات مجهولة ولن يعودوا، فبقيت أطقمهم معلّقة ولوحدها سنين بعد سنين. تركوا في الجيوب بطاقاتهم الشخصيّة ولا أحد بمقدوره أن يفتّش هناك إلاّ في الظلام. أجل، ولا اسم ينبثق من بين نسيج الأقمشة، ولا نَفَس، ولا أنّة أو سعال خفيف. كيف ندوّن مخطوطة بدون أسماء أولئك أو هؤلاء، الذين تركوا جميع الأشياء واختفوا. الأسماء، قد لا تسند المخطوطة هذه، قد تبدّد الأفعال أيضًا. لكن، تجمعني بكل هؤلاء صداقة ما وليست ذكريات فأنا لا أحبّها. وإذا ما سألت كيتا على سبيل المثال بعد أن عرضت عليها قراءة هذا المكتوب قالت لي ولو تلميحًا: «آه، لقد جعلت منّي ضحيّة لذاك النظام الشيوعي، وأنا كنت أفضّل لو دوّنت العكس. إنّنا لم نؤمن بما نحبّ بصورة ناجزة وصحيحة. إنّنا كبحنا تلك المحبّة بالأفعال الشائنة التي صدرت عنّا. أرجوك يا سرمد لا تبحث عن المزيد من التعاسة وتخييب الآمال، ففي لحظات جدّ قصيرة كنت مسرورة! آه، ربما، سعيدة.. السعادة لا أدري هل وردت في إحدى صفحات ما كتبت؟»

وعندما أُلحُّ عليها، كم عدد عشّاقك يا كيتا؟ ليسوا كثرة كما تظنّ يا عزيزي، هكذا تجيب. تصمت قليلاً ثم، كمن يتذكّر شيئًا:

«نسيت عشّاقي الألمان ولا زال العراقيّون في قلب قائمة ذاكرتي. نسيم وأنت».

لم أستلطف المقارنة. كانت تحدس بصورة جيّدة، فأجابت دون أيّ تردّد:

«عليك أن تضحك ممّا سأتفوّه به. نسيم عشيق مثالي في الليل وأنت هكذا فعلاً في الظهيرة والفجر. أنت فعلاً عشيق بديع تجامع في جميع الأوقات وبصورة لا مثيل لها. إنّك تشبعني طيلة الليل والنهار وللأيّام الآتية. أمّا عشّاقي الشيوعيّون فقد كان الجنس معهم مضنيًا حتى تصوّرت، وقلت ذلك لأحدهم فعلاً، أنّهم يضاجعون بطريقة سيّئة جدًّا، كأنّ الشيوعيّة طلبت ذلك منهم. كأنّهم يعيدون إطلاق الأوامر وكتابة التقارير. إنّ الذين كانوا خارج الشيوعيّة هم أكثر صدقًا، هم الذين ارتبطت معهم بعلاقات حميمة لم تتزحزح حتى لو أخذت مسارات أخرى. نسيم وأنت وضعتماني خارج ما عهدته في نفسي. مشيت معكما عكس ما كنت مفتونة به دائمًا. تعاظم الحب، ولكنّ الحقيقة، أنّني مولعة بالجنس مثلك بالضبط وليس مثل نسيم. أعني، هذا النسيم كان يريد إحاطتي بالجوّ الإيروتيكي، بجنون الجنس، بالتزام أن أظلّ تحتّه مثلاً؛ وكان هذا الأمر غير مهمّ لي قطّ. لكنّه كان يشتكي من نقدي اللاذع للامبالاته وعناده. كان، ولا تغضب من فضلك، يعيد النوم معي، نجنّ بالرغبة القاتلة ولعدّة مرّات في الليل، ولا يتشهّى القذف السريع مثلك. نادرًا ما كان يتحدّث عن هذا، يقول آه، علينا أن نحاول تجسيد اللذّة بأجسادنا وليس بما

تفرزه أبداننا فقط. فيقبّلني بطريقة لا مثيل لها، يؤكّد بصورة خفيّة، علينا ألاّ نقلّد، لا أنفسنا ولا غيرنا، كلاّ، يواصل، ليس هناك فعل يشبه فعلاً آخر، ها ما رأيك يا سرمد؟»

أسمع وقع أقدام نسيم وأنا أردّد ما قالته كيتا، كما لو كان لا يرتدي إلاّ جوربًا خفيفًا أو ربما بقي حافيًا كما كان يفضّل، لا أدري لم لا أغار منه! على النقيض، كانت حشمته من أسباب شبقي بكيتا. كنت أريد العثور عليه في روح الساحرة كيتا والعثور على تجاربه وعذاباته. كلّهم يختفون بطريقة من الطرق داخل الصفحات أو وسط الجماهير أو في عمارة قديمة كالحة جدًّا في إحدى المدن الأوروبيّة. ألاحقهم كلّهم. تمامًا، إنّني أستغلّهم. أنا استغلالي كما قالت البيضاويّة في أحد الأيّام:

«والله يا سي سرمد، غاد يتعرّفون عليّ أصحابي وأفراد عائلتي في الدار البيضاء فيما إذا حفرت عميقًا في داخلي. دعني أوحي لك، أنّني مجرّد شخصيّة حضرت من المغرب للصعلكة والتشرّد ولقنص العشق، ولكن بفلوس والدي الثري وأبو العزّ. وها أنا أتحدّث معك بضمير المتكلّم وأقول وأردّد أنا وأبو العزّ حين كشف أمامي أسرار شركته وتلك التي تتعلّق بأبي مكسيم وتلك الأمور التي بدت لي غريبة جدًّا، بل أكثر، كيف كنقول علاقات فاسدة وبها درجة كبيرة من الخطورة، حين علمت ما بين أبي مكسيم وأبي العزّ والسيّد مهنّد. آه، صعقت يا سي سرمد. هذا الاعتراف لم يأت منك وإنّما سقط سهوًا من فم أبي العزّ. سي الهادي يقول، ما هي إلاّ مجرّد شبكة كالعنكبوت، وما إن نبدأ

بالتحليل حتى يصرخ ضاحكًا، اسمعي يا عزيزتي انتبهي للسيّد سرمد أيضًا. آه.. يا عيني عليك يا حبيبي سرمد فاسم مهنّد كان يتردّد بيننا كالسلعة الغالية. حتى تعرّفت عليك وطلبت منّي لمّ شعري بضفيرة لكي أجذبك إليّ مثل «ألف». قلت ذلك بدون غموض ولا حسرة. فوضعت يدك على بطني وانفتح لسانك ولعابك وحرّيّتك أمامي ومعي. شيء خارق فوق الصرخات التي كنّا نطلقها ونحن نتلاطم بعضنا فوق البعض الآخر. شيء كان يأخذنا إلى القعر ولا نقدر على وصفه بالكلام. كانت لدينا الشجاعة، هكذا بدا الأمر لي، إنّه منذ زمن طويل لم أكن أنا نفسي هكذا ومع أيّ كان من قبل النوم معك».

كيتا قالت عنّي، إنّني أفكر بنفسي بالدرجة الأولى. أجل ردّدت على مسامعي وبصوت كلّه غنج:

«أظنّ أنت نرجسي بالفطرة وسادي بالاستيهامات وإشغال المخيّلة. ومازوشي عندما بقيت تلتقي بخصوم وأعداء بلدك ما بين عمان وبيروت ولندن وبرلين.. و.. وأنت تعلم، أنت قلت لي ذلك، إنّهم فقط متعطّشون للسلطة. كلا، أنا قلت لك، متشهّون لها. كلّهم. أبو العزّ عارض ثم وافق، وقال إنّكم تغالون في كل شيء. وأبو مكسيم، هذا هو العرّاب أليس كذلك؟ لكنّك كنت تأمل العثور على كلمة حديثة تليق به لكنّنا لم نعثر عليها، فنضحك ونسكت ونسكر. سرمد، عليك أن تعرف ما أنت إلاّ مجرّد رجل تحريضي. صحيح، هذه كلمة دقيقة. حرّضت البيضاويّة كثيرًا فاستقالت عن أبو العزّ والشركة والعمل؛ وضحكنا

حين قرأنا رسالة الاستقالة: اسمع يا أبو العزّ، ما أنت إلاّ حرامي. حضرت عندك يا سرمد في البيت الجميل في الريف، إنّني أعيد وأرتّب الأحداث أمامك. قتلت روحها لكي تتزوّجا.. ألا تتذكّر؟ وأنت رجل التأجيلات الذي لا مثيل له تردّد عليها: آه، لم لا؛ سوف نفكّر جيّدًا قبل الإقدام على مثل هذه الخطوة. هيّا دعينا نسافر ونغيّر الجوّ. وفي الحقيقة، البيضاويّة جرحت فاختفت هي أيضًا. وفي أحد الأيّام كانت تقف أمامي في الاستديو الذي استأجرته قرب المكتبة الوطنيّة بلندن. هل تدري يا سرمد ماذا قالت البيضاويّة عنك؟ إنّك لم تعش يومًا خارج تلك المدينة. كل هذه الإقامات كذب وافتراء. تمامًا، لديك شقّة هنا وسكن هناك، لكنّك بقيت تعيش في الوزيريّة قرب حيّ المغرب، حيث تعيش «ألف». سرمد دائمًا أنت تعيش في مكان آخر وهذا الآخر هو هناك. جعلت من البيضاويّة دمية ترتدي وتأكل وتضخّم صوتها وترفع خصرها كما تشاء أنت. تركتك تفكّ ضفيرتها وتعيد ضفرها كما تشاء أنت. كانت تحبّ خضوعها وتدعك تتصوّر أنّها خضعت، لأنّك قوي. وأنت يا سرمد لا هذا ولا ذاك. أنت هشّ ومكسور ومجروح. سرمد، من الجائز هذه كلماتي الأخيرة لك. آه، لو تعرف كم كنت بحاجة كي ألزم قلبي بك وبالعلاقة. أنت تشبهني قليلاً لم نعد بقادرين على الحبّ. ربما هو استغنى عنّا لأنّنا ضعيفان، ويوميًّا يتضاعف هذا الأمر أليس هذا صحيحًا»؟

* * *

إبرة المخدّر تجعلني أنا أيضًا أختفي في مكان ما من هذا المركز. هذا الاختفاء مغاير لاختفاء عضوي. هذا اختفائي من وراء «ألف» وأمام يوسف. هذا مكان يصلح للاختفاء ولقضاء بقيّة حياتك فيه. البقيّة ممّا لك وما تبقّى لك للتوبة والفراق الأبدي والوصال النهائي. هذا المركز هو الذي يجمع الإيروسيّة والحمية والتشهّي الفاجر والموت البطيء الذي لا أروم فيه مشاهدة لحظاتي الأخيرة. مستشفى تطوّعي نقّال تلمّظت فيه حبّة عنب واحدة فقط وأدرتها في فمي أكثر من ساعة من الزمن، هكذا علّمتنا شاندي من أجل الطاقة وليس للتوصّل إلى لفز الزمن. لا تأريخ للزمن هنا، هو مجرّد التعلّق بالحالة وبما حولي، وليس بالغد. و«ألف» لا تصغي إليّ جيّدًا. أظنّ لو كانت هناك قياسات للذة نضعها أمامنا ونحن نضاجع. لو نضع الساعات والميكروسوبات والمراصد الكونيّة أو شيئًا له درجة أو فولتية تحسب الذبذبات والآهات لحقّقنا الرقم القياسي التامّ، الذي يشير إلى التوازن الناجز. كدت أطلق ضحكة عالية حين أشاهد وجه يوسف أمامي عندما حضر إلى لندن وكنّا نتمشّى. وقف فجأة وسألني:

«سرمد ولا مرّة سألتك عن مرجعيّتك، افهمها كما تشاء. ولكن لا تتضايق أرجوك!»

نظرت في عينيه تمامًا، فتحت أزرار معطفي الصوفي وسترتي أيضًا، مددت يدي إلى ذَكَري وأشرت عليه قائلاً بتمهّل شديد:

«هذا...».

ـ يوسف ـ

رائحة عرقه طيّبة، ولا أدري حتى الساعة لم ظلّ يردّد عليّ:

«يوسف ألا تشم رائحة العطن والنتانة تزكم الأنوف ها؟ لا أدري، ربما هي تصدر من موقع قصي فينا كلّنا، لكنّنا لا نتبيّن مواقعه فهو موجود وأنا أحدّق في كاميرات التلفزيون وهي وهي... آه يا يوسف، حينها تزداد الرائحة وتتغيّر. أشمّ رائحة وسخ القلوب. ألا تشمّ يا يوسف مثلي؟»

تضايق من شاندي وتمرينها الخاصّ بحبّة العنب، التي ظلّ ما يقارب الساعة يلوكها ويبلع ماءها ويسخر ويضحك مردّدًا ومقلّدًا صوت شاندي:

«أرجوكم دعوا الحبّة تفرغ وبالتدريج في الفم. الحبّة ليست هدفًا. لكنّ الأمر سوف يجعلك تتأمّل الإلهام والإرادة».

يستفزّ كما حصل مساء أمس حين بدأت عاصفته الهوجاء. يتوتّر منّي ومن شاندي ومن المركز كله، ويسأل ويجيب نفسه على هذه الصورة:

«كلّما أسألك يا يوسف تقول لي فيما بعد. شاندي تتردّد وتجيب ما يشبه الـ فيما بعد. تصوّر، حتى البلد هناك يقول لنا

فيما بعد سوف أكون. فيما بعد سأحضر وآخذك بين ذراعي. فيما بعد، كل شيء فيما بعد، الحياة الحاضرة والحياة التي انقضت هي أيضًا فيما بعد. ما هذه المواعيد التي لا تخلص. حتى أسماؤنا تتنصّل منّا وتقول لنا فيما بعد سيحضر اسمك الحقيقي. ترى ما معنى اسم سرمد، وما معنى اسم البلد، ذاك الذي هناك؟ أريد أن أعرف متى كنت عراقيًا ومتى توقّفت عن ذلك وقلت أنا أيضًا فيما بعد سأكون. هل كنت عراقيًا حقًّا ومتى كان ضروريًا الاّ أكون كذلك، ولا آخذ بنظر الاعتبار إلاّ أنّني لم أعد أصلح أن أكون عراقيًا. ليس العراق، وإنّما العراقيّون يفعلون جميع تلك الاستدعاءات الجانبيّة فيدعوننا نردّد «لسنا نحن» كلا، نحن سنكون فيما بعد. أن أكون من هناك عمليّة محفوفة بالمخاطر والمذلاّت؛ فما عليّ إلاّ أن أشقّ البلد وأستخرج منه نفسي وأكتشف حالة انعدام وظائفه البيولوجيّة والفيزيائيّة والكيميائيّة والأخلاقيّة والوجوديّة. أفعل ذلك يا يوسف بالشفقة والتجاهل، بالقرف والدموع، باليأس والحنان. يا ليت أحدهم يحضر ويسحبني بالبراشوت ويضعني فوق بطن «ألف». ألا تسمعني يا يوسف، أنت أيضًا ستردّد وشاندي، لم لا، فيما بعد.. ها، ستضحك الآن أليس كذلك؟»

نزلت إليه إلى حيث وضعناه في الغرفة الخصوصيّة بالمرضى. حضر ثلّة من الرجال الأشدّاء وقمنا برفعه إلى أعلى فكان يتساقط من قفاه بعض ما علق به، شاش وقطن وقشّ.. إلخ. كان يرتدي شورتًا قصيرًا وقميصًا من القطن بنصف كم. كان يشبه في نومته

هذه كمن مسّ بصعقة كهربائيّة فاستسلم لنا أخيرًا، وكأنّنا نقوم بالقبض عليه ولا أدري هل سيفتح التحقيق أم سوف يتأجّل. عيناه مغمضتان ونَفَسه يصعد وينزل ببطء. وجهه عادي لا يعبّر عن ألم أو موت محقّق أو ضجر. أمسح يديه وكفّه بيدي. آخذ إصبعًا إصبعًا وأنظر في أظافره التي تغيّر لونها إلى الأزرق الخفيف. أنزل إلى جبينه أمسحه بالمنديل ثم أقبّله. أضع يدي فوق رأسه. أتحرّك وأبدأ بقياس النبض. عادي. أفتح الجفن الأوّل ثم الثاني، كل شيء عادي وهادئ. لا يتلاحق ولا يتدفّق.. لكن، بدا لي أنّه يسرع. صمت مرّة واحدة وبصورة عجيبة كأنّ لسانه قطع ولن يستردّه على الأقلّ في هذه الأيّام. حضرت شاندي فالتفت إلى الجهة الثانية، كانت الدموع تحجب نظري. بحركة أموميّة لمستْ كتفه وسوّتْ ياقة قميصه. بدا منهوك القوى خائرًا، ولقد استراح أخيرًا من أثر الإبرة، لكنّه لم يمت؟ هكذا سألت شاندي. رفعت يدي كنوع من الرفض وأنا أدمدم:

«كلا، كلا يا شاندي. أظنّ أنّه انهيار تام. هو أمر موجع جدًّا».

قبل ساعات وضعنا المغذّي في عروقه مع بعض المهدّئات.

«ماذا سنفعل يا دكتور من فضلك؟»

«بعد أن وصلت حالته إلى هذه المرحلة فسوف ننتظر بضعة أيّام، وحين يتعافى قليلاً ويقوى على حمل نفسه، فسوف نغادر إلى النورماندي. لدينا شاليه صغير يطلّ على البحر، عسى أن يتحسّن أكثر ما بين الشمس والماء».

تركتني شاندي لوحدي معه فشعرت أنّني أكثر منه هشاشة. آه كم تعثّرت صداقتنا واكتنفها الغموض وربما الاحتيال. أنا فسّرت ذلك من أجل أن نخفي النواقص والفشل. بدأت أنود برأسي وأنتحب بصوت خفيض وأردّد ما سبق وردّده أمامي في الهاتف. صوته كان أجمل وأقوى. الصوت العراقي الذي يعرف أوج الجذوة القصوى. فيغنّي الأغاني العراقيّة القديمة ذات النبرات الجارحة بالشجن. وحين أصمت يردّد عليّ بشيء من غضب خفيّ:

«اسمع يوسف، هذا مو مثل ما تتصوّر أنت وغيرك، فيطلقون عليه، حزن وسفاسف، هذا إذا تريد رأيي، هي أصوات الحمّى والشهوات وفيض الدنيا التي نمتلكها. هذه أصوات الثمالة والنعمة بانتظار أن تمتلئ الطاولات بالمآكل واللذائذ وبوجوه من نحبّ. سيحضر يا يوسف من نحبّ، هم في استراحة فقط».

ها أنت في استراحة يا سرمد فاسمع إذن ما كنت تردّده عليّ حتى حفظته عن ظهر قلب:

«اعجز من شيل هدمي مالمتني وعليضاقتالوسعةمالمتني
«الون تدري الودام ما لمتني لهاالظاهروانهعلّنيخفيّة»

ظلّ يردّد ونحن ننتظره في المركز وهو يتغيّر بصورة لطيفة، هذا المركز مجرّد وهم. بقعة من عالم قد يكون غير موجود أصلاً. يوسف، شاندي أيضًا، ربما تكون غير موجودة. ولكن كل هذا غير مهمّ أيضًا فنحن لا نلحق بالأشياء دائمًا. لا نلحق بها يا يوسف. حتى اللّعنة تمرّ ولا تصيبنا كما يجب، كما نستحقّ فتقع

من الضجر. لا نلحق بأنفسنا ولا بغيرنا. أنا لم ألحق بأيّة امرأة نمت معها، حتى «ألف» لم أفعل ذلك معها. لم ألتحق بشيء ما ولا أعرف كيف يلتحق البعض بالبعض. تصوّر، حتى تلك الولايات العظمى لم تقدر على الالتحاق بنا، هي تتصوّر ذلك لكن هذا غير صحيح. هل هو أمر ضروري أن تكون ملتحقًا فعلاً؟ في بعض الأحيان كنت أشغف بهذا الأمر فأشتهي ولو غرفة هناك أو سريرًا أو برغيًا في درّاجتي الهوائيّة أو كفنًا ألتحق به. يوسف، أقسم أمامك، حتى لغتي لم ألتحق بها. يسمّونها لغة المنافي وأبوّل عليهم وعلى تلك التسميات. لم أعد أقدر على عضّ الشفاه أو مصّ اللسان أو التفوّه بقصيدة للسيّاب أو شكسبير. كيف يعوج اللسان يا يوسف، ويلغم، فلا يعرف أين يختفي الكلام في ذلك العضو الطويل الرهيب العريض المشبع بالأنزيمات والحواس والبكتيريا والتشهّيات، فلا يغمغم أو يدمدم ولا يقصّ ويسبح دمه بل يترك كالكلب السائب يعوي عليهم وعلى نفسه ويذرف الدموع. يوسف، نحن أنقاض يا صديقي».

أطلقوا عليه في المركز وهو يجري الفحوصات بالمريض العراقي. لم تعجبه الفكرة. فقال وهو يبتسم مساء وأنا أزوره بالفندق:

«تعرف يا صديقي، جميع الأمراض تناسبنا وتثبت علينا».

ثم توقّف واستدار إليّ تمامًا. صرنا وجهًا لوجه. وبدأ ينظر في عينيَّ:

«يوسف لو مت هنا مثلاً، ترى ماذا بمقدور ميت أن يفعل

بميت. لا تزعل أرجوك. أنت خوّاف شويّة. شاندي أشجع منك ومنّي حين أجابت ونحن ما زلنا في منتصف الدورة:

«إذا ما حدث طارئ ما فلدينا جميع الإجراءات المناسبة. الموت هو الجزء الذي نتمنّى أن نكون جديرين به كالحياة».

لم يقدر سرمد على ضمّ يده كاملة، أو مقابلة الإبهام بالبنصر. شعرت أنّ راحة يده جافّة واحمرارها تضاعف وبرودتها أيضًا. أعود وأمسك بيده وألمس رأسه والوجه والعينين. حاولت أن أبتسم حين دخلت شاندي ثانية:

«كيف الحال»؟

«لا جديد. إنّه نائم أو غائب عن الوعي أو إنّه في مكان ما من الجنّة. ماذا ترين أخبريني بربّك؟ هل تعلمين، كنّا نتشاجر أكثر ممّا نتصالح، وأظنّ هذا هو الذي يجمعنا. مع من سوف أتشاجر إذا ما غادر؟ الشجار أمر حيويّ جدًّا. نحن نعرف ذلك ونقدّره في عملنا. هو أحد وجوه الحبّ الحقيقي. الذين لا يعرفون الشجار أناس غير أسوياء. أصلاً هم مرضى».

«هل هو صديقك الوحيد أم الأثير.. أم!!».

«أم.. كل هذا وأكثر. إنّني أنطوي على نفسي وهو داخلها».

• • •

استعرت عربة البيجو الكبيرة التي تخصّ روزالين. وضعنا له مساند على جانبي ذراعيه في المقعد الخلفي، ومساند وراء رأسه فيما إذا أراد أن يريحه. كان يفتح عينيه قليلاً يبصرني ثم يغلقهما. عاد للوعي بعد أربعة أيّام لكنّه كما يبدو غير موجود. تركنا المركز في حوالى الواحدة ظهرًا في اليوم الموافق الثامن من أكتوبر من العام ٢٠٠٣. تولّيت كل شيء، حساب الفندق، ترتيب الثياب في الحقيبة. جلب الحقيبة الثانية التي بحوزتي ففيها علاج سرمد. كنت تقول يا يوسف إنّ الحبّ سيظلّ يواجهنا دائمًا وأبدًا، وسوف لا نعثر على أيّ حلّ نهائي له. هو، هو المأزق الحقيقي تمامًا كالموت. لكن سرمد كان يجيبك بهدوء غريب:

«ولماذا تريد العثور على حلّ؟ فلندعه يواجهنا ويقتلعنا دائمًا. ولنواجهه بدورنا يا يوسف، فالمواجهة تحمل جانب الحل».

لم تقدر يا يوسف على المواجهة، لا مع النساء ولا الرجال. في القسم الداخلي في باب المعظم كانت هناك شبه مشاعية جنسيّة دون أن نضع لها عنوانًا: قبلات خفيّة، مداعبات خشنة وصلافة في الحَضْن والتحرّش تتقوّى أثناء الليل. بعد ذلك بسنوات وبعدما جرى لي، أظنّ أنّ «كل واحد منّا لديه شيء من

الشذوذ». روناك، شقيقة فارس الكردي، هي الوحيدة التي بقيت قابعة ما بين الوعي واللاوعي، في ذلك الحيّز نقش اسمها ولم يتزحزح قطّ وإلى اليوم. وحين كان مهنّد يفتك بي كان طيفها هو الذي يخفّف آلامي ويمتصّ غضبي وهواني. آه لو كان سرمد وفارس يميلان للعنف قليلاً. كانا مسالمين. فارس هاجر إلى أميركا، وسرمد ها هو يجلس في الخلف. لقد قاسيت كثيرًا في بغداد. وحين فتحت الحقيبة، قرأت وارتعبت فجلبتها معي. رتّبت بعض أشرطة «ألف» بجواري، وحين أحصيتها ظهر لي أنّها أكثر من عمريهما. عددت الوثائق والرسائل والتقارير الخاصّة بالسيّد مهنّد فبدت أكثر من سنة ضوئيّة. في تلك اللحظة استدرت إلى الخلف وألقيت نظرة على سرمد. كان رأسه ملقى إلى الخلف ونَفَسه بدا ينتظم. سألت زملائي الأطبّاء فأجابوا بطريقة تقريبًا شبه تامّة:

«يحصل للمرء رفض الكلام بصورة تكاد تبدو طبيعيّة. كلا، ليس هو اليأس فحسب، ربما هو الاستغناء والفرار».

حسنًا يا سرمد، سوف أحاول أن أدع قلبك يعود للخفقان وأنت تصغي لصوت «ألف»، وهي تشير لتنّورتها القصيرة وأنتما في الصفّ الأوّل من الكلّيّة. أضع الشريط الأوّل، أفتح زجاج نافذته قليلاً، كان الهواء لطيفًا نديًّا في الخارج. الطرقات ليست مزدحمة كثيرًا. الصوت البشري أمر لا يعقل بتاتًا، هكذا كان يردّد سرمد. وهذا ما أحاول أن أدعه يتأكّد منه، وأنا أبدأ برفع الصوت بالتدريج حين بدأت «ألف» بالقول:

ـ «ألف» ـ

«اسمع أنت من البصرة؟»

«لا، يمكن من الناصريّة؟»

«لا هذه لهجة الجنوب بلا تحديد».

سرمد هذه أسئلة طرب وغيداء وبلقيس. دخلن في سباق فعلي لكي يعرفن من أنت؟ أنا لم أنظر في عينيك تمامًا، قلت ذلك بعدما ألقيت إحدى سونيتات شكسبير ونلت إعجابنا. لكنّك ألقيت كما نقول بلهجة غريبة لم نتبيّنها تمامًا. فيما بعد، بعد وقت طويل عرفنا أنّك مقلّد من طراز ممتاز لجميع الأصوات. شوف لهجتك بديعة. وأنت خليط من المذاقات واللهجات لا تشبه أحدًا وإذا ما اقتربت منك ومن لسانك فسوف أشمّ فيك رائحتي فأنا مثلك. حين ذكرت لي اسمك ابتسمت وسعدت. اسمك ثروة طائلة، أعني ما رأيك لو نتقاسمها سويًّا. هكذا أجبتك فأطلقت أنت أيضًا ضحكة قويّة قائلاً: كلا، اسمي مأدبة الدنيا، لكنّك أضفت بلهجة ساخرة: اسمعي أنا رأسي مليء برمل صحراء الربع الخالي وقلبي بـعيرها الحامي. أوّل مرّة أسمع من طالب شيئًا يخصّ مرجعيّتي أنا أيضًا مردّدًا: أي لساني العربي الذي يتحدّر من أفراد أسرتي، من قوام اللّغة والحرارة والطعم

والرائحة والأغذية المالحة التي صبّت ملوحتها في لهاتي ومن الحلاوة التي ترسّبت في الدم، فما إن أتصبّب عرقًا وأنا في المعهد البريطاني أو الجامعة حتى تتضوّع عربيّتي.

صوتك يا سرمد، هل تسمعني؟ كان يصيبني بالحمّى، خشن شويّة أخشن ممّا في المقدور تحمله كأنّه مصنوع من التبغ والعرق الغالي والغناء العراقي والموت الممتدّ إلى آخر الليل البغدادي، ليس البغدادي لقب جدّي الكريم، لكنّها المدينة، مدينتنا التي لازلنا نقتلها يوميًّا ونقتل فيها أنفسنا. ألا تسمع صوتها وصوتي ونحن نتحدّث والمدينة كانت مقبلة علينا ونحن نحبو على أذيال ثوبها الطويل الطاهر الذيل، وهي تقول: هيّا، لا تحلّقوا في الهواء ولا تطيروا عاليًا جدًّا. أي، أنت وأنا من هذه المدينة وهي ملك لنا. استهوتني في تلك الأعوام فكرة مرضيّة وحتى قبل رحيلك؛ تسجيل كل شيء وأيّ شيء. صوتك وذبذباته بالدرجة الأولى، مواويلك وأنت تغنّي لي ونحن نقطع جسر الصرافية ذاهبين إلى الطرف الآخر من النهر. أصوات أبي وأمّي وأخي. أصوات صديقاتي والأساتذة، العميد ورئيس الاتحاد الوطني وساعي البريد وبائع الحليب وكل ما يخطر ببالك. أراقب الأفواه وحركة الشفاه وأسجّل. سجّلت مئات وألوف الأصوات. كنت أرقبك كيف تراقبني وتراقب بطني وركبتي وربلة ساقي وحركة جفني كأنّك تريدني أن أصير مارلين مونرو. حين ذكرت لي ذلك ضحكت بصوت عال، ضحكت طويلاً وكدت أختنق وأحببتك. أجل كنت أرقبك هكذا وأكثر، لكن لم يخطر ببالي تلك الشقراء القاتلة. فقلت لي، أنتِ أجمل منها. من هي مارلين! تعرفين

«ألف»، تلك المرأة لم أتصوّرها إلاّ عضوًا أنثويًّا متورّمًا فحسب.

لا أريدك أن تسمع صوت انتحابي يا سرمد، سأدعه ينخفض ولا يتعالى. أنا أيضًا أقف أمام المرآة عارية. أنا أيضًا صرت بدينة يا سرمد. لا أعرف هذه أو تلك الواقفة أمامي. صرت امرأة متنكّرة مقنّعة. أقصد امرأة مستعملة مثل الثياب القديمة. بشرتي تغضّنت والهالات السوداء تحت جفني ازدادت زرقة وحاجباي تضاعفا كثافة، وأشعر أنّ روحي مطليّة بالذل. أعرف أنّك ضاجعت عشرات النساء، مئات.. ها، يمكن أكثر. لكنّك لم تذق اللذّة، هي شيء آخر لا تلتقي بها كل يوم ولا مع أيّة امرأة. ربما، ما أقوله الآن غير صحيح علميًّا. اللعنة خلص الشريط.

ـ أين أنت الآن يا سرمد؟ ها، كل يوم أقول سوف يتحدّث معي؛ لكنّك بالتأكيد تؤجّل الأمر. المحادثة معك هي الأهمّ، هي جميع ما بقي لي. وأنت تماطل وتسوّف وتتردّد. أدري، أنت تخصّص لي النوايا جميعًا وتفترض أنّني أعرف ذلك. تتذكّر يوسف بالطبع، الدكتور الجميل اللطيف، صديقنا العزيز إيّاه. في أحد الأيّام حضر إلى نادي الجامعة ولم يعثر عليك فشاهدني أنتظرك فجلسنا سويًّا. من المرّات النادرة التي جلسنا فيها عن قرب، فذكر لي شيئين لازالا كلّما أستعيدهما تصيبني مشاعر شتّى ما بين الاستغراب والصدمة والألم. أنا التي بدأت بالسؤال عن فارس الكردي فوصلنا إلى روناك. كنّا نعرف أنّه لازال يلاحقها وينتظرها في الرصيف الآخر من باب كلّيّة الهندسة القريبة من باب المعظّم حيث يسكن. مزحت معه وأنا أنظر في وجهه:

«يوسف، هل فكّرت في أحد الأيّام أن تهديها باقة ورد. زهرة واحدة فقط؟»

نكس رأسه وقال بصوت خفيض:

«طبعًا، يوميًا أفكّر بهذا. يوميًا أرقبها في الصباح والظهيرة. أحضّر الكلمات وألوان الأوراد وشكل البطاقة ولون الحبر الذي سأكتب فيه. ويوميًّا أصدّق أنّني سلّمتها جميع تلك الباقات وتصدّقني فيما إذا قلت لها ذلك. نعم، أعتقد أنّني كنت أفعل الصواب، وهو أنّني لم أنشغل عنها أبداً».

«والأوراد والوردة الواحدة...؟»

«لم أقدّمها قطّ».

حين شاهد الغمّ الذي أصابني ألقى في وجهي المفاجأة الثانية قائلاً:

«المرّة الوحيدة التي لم تخني الشجاعة فوقفت أمام البائعة وقمت بشراء الباقة. لم أعرف أيّ لون مناسب أكثر أو أجمل من غيره، الأحمر أو الأصفر أو الأبيض. اعتقدت أنّ موضوعة شراء الورد هي ثقافة لوحدها أليس كذلك يا «ألف»؟ ولمّا لم أردّ عليه واصل قائلاً، قلت للبائعة، أن تضع جميع الألوان المتوافرة. سلّمتني الباقة الأنيقة الملفوفة بورق شفّاف جميل وخرجت للشارع العام. ساعتها شعرت بالخجل والحياء معًا، فيما لو شاهدني أحد الأصدقاء: وهّاب، خلف، سرمد، أنت يا «ألف» أو أحد الأساتذة مثلاً، فماذا سأقول له. لحظتها قرّرت كسر جميع العروق تمامًا، وترك الأوراد عارية وسائبة لفلفتها بورق

إحدى الصحف، وشددت على أن لا تظهر ولو وريقة من أيّة وردة.

كان الأمر فوق الاحتمال. إهداء الورد أمر مخيف يا «ألف». أنا أفضّل بقاء يدي خاويتين فهذا أرحم».

سرمد. ماذا فعلتْ بك وبيوسف الأعوام ها؟ لا أدري أنّ ما عملته ذو قيمة؟ لا أحبّ أفعال التفضيل، من الأفضل. أجل أعمل أشرطة، أصنع وثائق، أوثّق بصوتي جميع ما مرّ وحدث وصار وما فتئ. أنا لا أؤمن بالتخييل، لا أتخيّل، إنّني أصل دائمًا أقول وأوثق وأسجّل. لم أتردّد أو أترك تلك المهمّة. تمامًا، منذورة لها قلت لك وأعدت على مسامعك. أقول الأشياء ولا أتذكّرها ولا أضطر لذلك ولا قلت عاجلاً أو آجلاً ولفرط جلدي ما عدت أتكلّم مع أحد، أعني مهنّد وربعه. لم أفرّ أو أختفِ كما حصل مع مهنّد. أشاهد وشاهدت عن كثب، أليس هذا ما يقال يا سرمد؟ وليس خلسة. يظهر الصوت البشري، صوتي وأصواتنا، لا نربح ولا نخسر، فقط نشقّ الطريق إليه ولا نعود ساخطين أو ناقمين فقط. بالطبع ليس على ما مضى. لا عهد أحببناه سويًا في صبانا العجول الأخير. كنّا نكتفي بالانتظار، انتظرتك دائمًا، أندسّ في صدرك وأنت تتمدّد فيّ. آه، كم أنهكني صمتك، لا يخلو من قساوة. تنتبه لذلك، تصمت أكثر وتبتعد طويلاً. تريد، أو تحاول إصلاح ذات البين لكن بعد فوات الأوان. ما كنّا نعرف لماذا يفوت الأوان بهذه السرعة. تصوّرنا أن لا شيء يفوت وأنّنا نستودع في ذلك ـ الأوان ـ ما بقي من سمعتنا ووحشتنا، سمعتي أنا بالدرجة الأولى التي

وصلت إلى تحت ومهنّد يريد ليّ يدي وعنقي وساعدي وساقيّ. يريد إبهاري بالدرجة الأولى وبالتالي إثارة ذعري. هو بالطبع على دراية تامّة ومنذ البدء، ومنذ اليوم الأوّل من تعارفنا واليوم الذي يليه، أنّني متيّمة بك وأشعر أنّ حبّك لي يشبه بركات الآلهة التي لا نؤمن بها نحن الاثنين لكنّنا نضعها في طريقنا من حين لآخر، بين ألسنتنا وداخل الأشرطة والمذكّرات لكي نصبّ عليها جام غضبنا، ندعها ولو، أسرعت إلينا، تربت على ظهورنا طالبة لأرواحنا الراحة والرحمة. أجل يا سرمد، دائمًا أردت أن يكون الحبّ طافحًا فيما بيننا لكي نورثه للأبناء، أدعه تحت تصرّفهم لكي نعيشه جميعًا بكل الطوفان. كلا، لا لكي ندوّنه ونتذكّره فيما بعد. كما فعلت وأفعل يوميًّا وأنا أبعث إليك الأشرطة أو أحتفظ بها في مكان أمين، فالصوت البشري يحمل إمكانات التدوين الغناء الوقاحة العصيان النحيب الذي لا يغشّ، فنردّد، آه، سوف أسكت عمّا قريب لكنّني لا أسكت. أنت اشتهيت أن تكون روائيًّا أو حكائيًّا، بمعنى، ليس أن تكتب رواية بعد أخرى، بل أن يكون للمرء ما هو غير متأكّد منه أبدًا، الداخل داخلك. وأنا اشتهيت أن أدوّن عناوين ما أشتهي تسجيله وأفكّر فيه. سَمِّه انشغالات، حالات، تكرارات. لست متأكدة من أيّ شيء قط لكي أخصّك به إلاّ ذلك السعير الذي صار رتيبًا هو الآخر، ولكن من يبالي بما نكتب أو نسجّل؟ من يبالي بغرامنا غيرنا نحن الاثنين بالرغم من انفصالنا وغيابنا الطويلين، وكأنّ هناك دائمًا عشر سنوات بانتظارنا، عشرين أو ثلاثين، بالرغم من القروح والكرب فما عليك إلاّ البقاء حيًّا، فهذا وحده يفقأ عين مهنّد من قبل وعيون الشقر من بعد.

هؤلاء الشقر فيما بيننا اليوم فماذا سنفعل باللغة الإنكليزيّة التي أحببناها سويًا، فأتلعثم وأنا لا أقدر على قول YES، كيف تنزل اللغة فتصير من وزن الذبابة. كيف لا نقدر على ترجمة مفردات عديدة ونحن أمام أولئك القوم. فتتعرّض أنت ونسبك ولغتك وبلدك للترجمة ولا تعرف المعنى أو الكلمة المرادفة، المرادفات تقلّصت إلى حدود الصفر ثم بدأت بالتناقص دونه بكثير.

ليس فجأة بالطبع، تبدو اللغة الإنكليزيّة وقد رفعت الكلفة معنا، تلك التي قامت فيما بيننا أنا وأنت يا سرمد، أنت وفيونا مثلاً. اللغة الأجنبيّة واكتشاف الخدع التي لا نقدر لا على تجريمها ولا الرجوع إليها. كيف تصير اللغة الإنكليزيّة التي استهوتنا فترجمنا عنها وتبادلنا بها المعارف والشغب والأحلام والاستيهامات، لغة السفّاح الغازي. هل شعرت بذلك يا سرمد وأنت ببلاد الفرنج. تؤرقني إذا ما تفوّهت بها أو ترجمت عنها جميع ما يمرّ بنا من إبادات ومجازر. تشوّشت العربيّة أيضًا حيث لم يعد بمقدوري التحدّث بها بطلاقة هي الثانية. ماذا عسانا نفعل لكي ندوّن ما يحصل، وأيّة لغة علينا أن ندوّن بها. فالعربيّة سوف تتحوّل إلى نشارة خشب وها أنا أقول ذلك لك وكأنّ هناك لعنة سرمديّة تتعقّبني ولغتي، تتعقّب بلدي الذي كنت أرفض أن أترجمه فألعنه وأشتمه. اللعنة تنهض وتتصاعد على بابل وجميع الألسنة، على الاسم والحرف والفعل والمفعول به ورهاب المدينة الوحيدة والنهر الذي لا نقدر على الاستحمام به ودجلة المخنث، اللّعنة على حيّ الوزيريّة والمسبح، المنصور وشارع المشجر.

* * *

سرمد، عليك أن تسمعني، عليك أن تضع حدًّا للقنوط والحزن. آه، ستقول هو الألم، صحيح هذا الأمر عمل فجوة أو حفرة في الكبد. ألم فذّ وتعاسة لا تستنفد، حتى هذا الوصف لا يليق. لكن لا أعرف كيف أقول ذلك. ولداي اختفيا كما أخي سيف من قبل سنوات طويلة. أمي لازالت مشلولة وأنا أريدك ألاّ تغادرني كالسابق يا سرمد، فلم أعد أحتمل الغيابات الطويلة.

تزوّجت أخاك مهنّد فاستوطنتني أنت. كنت تزن خمسين كيلوغرامًا، تشبه الفرس المريض النحيل الشاحب ولسبب لا أعرفه في تلك السنين لم تثر شفقتي بل على العكس، كنت موضع تقديري. لغتك صارت غير هيّابة، أعني الإنكليزيّة. لكن لهجتك بقيت صناعة وطنيّة، ولو غير موسيقيّة وبها شيء من الفجاجة. فكنت تخفّف من نفش صدرك وأنت تفتح فمك على بعض المفردات وتمنح الفرصة للباقي، فتبدو بعض الكلمات كالخضار الطازجة ما إن تلمسها حتى تشتهي وضعها في فمك.

سرمد، ترى، أيّهما صحيح، روتين الحرب أم الحرب الروتينيّة؟ أيّهما أصحّ لغويًّا وعصبيًّا؟ فلا شيء يحدث أكثر من الحرب، هي التي تحصل دائمًا.. كل يوم، وتحدث في اليوم

التالي والآتي وسوف تدوم طويلاً كجميع الحروب. إنّنا نتنبه إليها بدون ألغاز وأحاجٍ نتركها تدور وتمضي. ندخل غرفنا ولسنا مغلوبين على أمرنا ولا متعبين من غمّنا ولا لدينا ما نهمس به خشية أن يسمعنا أحد. لا نقول واحسرتاه على أولئك وهؤلاء. نكفّ عن ذلك وتبدو جميع محاولاتنا لا جدوى منها والخرائب التي نراها على الشاشة والأرض هي بعينها، تلك التي سبق وشاهدناها من قبل، ففي النهاية لا يعلق في رؤوسنا أيّ شيء.

سرمد، لا أزال أنظر بصورة صحيحة، لم أُصَبْ بالحول ولا بالرجّة العصبيّة وأنا أطيل النظر إلى ما تبثّه المحطّات. أسكت وأدخّن وأشرب شايًا كثيرًا وأتمخّط كثيرًا ولا أتكلّم مع أحد، أعني لا أتكلّم كثيرًا. تصعد روائح وأبخرة من جوفي أشمّها، أفتح فمي إلى آخره وأشمّ انتظام سير الدموع ترافقني. نعم، أرغب أن أمتنع عن البكاء تحت وطأة الصاروخ... ستحصل الأمور الأكثر سوءًا. هيّا ، لم أكن جدّ حزينة ولا أخذت وضعيّة العته. يلزمنا عمرًا ثانيًا وثالثًا وإلى ما لانهاية لكي نعرف أنّها النهاية. أدخّن بهدوء. ماذا تفعلين وحدك وأنت تحت أنظار الموت؟ لا مكان آخر لك، وما عليك إلاّ أن تحافظي على اللياقة. هيّا يا سرمد، هل تسمعني، تكلّم أريد أن أسمع صوتك، أريد أن أرى الصوت كما كنت تردّد من قبل وهو يحطّم كل شيء. صوت الأشواق والقنابل والجزم الفولاذيّة، صوت الراجمات كالترتيلة. حذّرتك من صوتي ولم أحذر من صوتك. هيّا يا سرمد تحدّث، دعني أسمع صوت اللعاب بين الكلام

والسكر واللعنة وهو يمرّ من جانب فمي وبين أسنانك. أنقله من هذا الجانب إلى الآخر، وأريد أن أغلق عليه وأشقّ له الطريق ولوحدك. سرمد، ماذا يحتوي الصوت ها؟ الهواء الماء الملح البلح الرماد التهم الأغاني والتوابل. أضع الصوت في زجاجات شفّافة وأبعثه إليك وكلّما تفتح الغطاء تفوح رائحة المكان والبيت والشارع والسرير والثياب والشراشف فيظهر ذاك الوميض في الكون: واجب القيام بالحرب. هيّا يا سرمد، عد لعادات المغرومين المحبوبين المزعجين. دعني أرى الكتف الجميل. هيّا أحضني إلى أن أختفي فيك فلا يظهر الصوت الخافت أو الفصيح.

أسمع وقع خطوات البشر جميعًا في هذه الساعات، لا دموع ولا مناديل، فقط دخان أميركي. والساعة المنضديّة لا تشير إلى وقت محدّد وأنا أعمل الشاي والقهوة سويًا، فطعم فمي كالتبن وصوتي فيما إذا ما قلت لك، ها سرمد ماذا تفضّل أن تشرب؟ صوت دموعي تغلي كماء القهوة أمامي. رائحة البنّ عاصفة وأنا لم أعد أجفل من صوت الصواريخ كالسابق. أشدّ على صوتي كمن يأخذ سكّينًا يشقّ فيها قاع الحبال فيدع الصوت لا ينتحل صوت غيره. هو صوتي يا سرمد وبالتالي صوتك. أنظر إلى مسامي، ينزاح الروب الحريري الذي جلبته لي من اليابان. هو حاشد بالأوراد والثعابين. غطست به أول ما نزعتني ثيابي كلّها قائلاً:

«هكذا سينزلق عليك حين آخذك بين الذراعين».

كنت أجرّ الروب ورائي، فمقاسه أكبر من بدني المتوسّط والمعتدل، فقلت لي:

«ألف»، جسمك مكان وصوتك أيضًا وهذا الحرير الرقيق جدًّا سيحرّك جميع الحيوانات والمروج والثريّات وطبول الحرب أيضًا».

سرمد، لا أحد يعود للمنازل. لا أطباق تنتظر من يلتهمها. لا عيون تنظر للبعيد بانتظار أحدهم يبتسم يعود أو يمرّ حتى. لا شبابيك تتلألأ ليلاً بضوء الشموع ولا قبلات نسمعها قادمة باتجاهنا. تعلّمنا كيف نبتلع الدموع فنرقبهم وهم يضخّون ثلاثة أنواع من السموم القاتلة في عروقنا ومع هذا لا يُقضى علينا.

حسنًا، لن أعيد ما كنت تقوله من حين لآخر يا سرمد:

«سقراط ليس طبيبًا. الموت وحده الطبيب. سقراط كان فقط المريض» و...

* * *

[كتبت ما بين: ٢٠٠٣ و٢٠٠٦]

صدر للمؤلفة

١ ـ افتتاحية للضحك، مجموعة قصص، دار العودة، بيروت ١٩٧٣.

٢ ـ هوامش إلى السيدة «ب»، مجموعة قصص، دار الآداب، بيروت ١٩٧٧.

٣ ـ ليلى والذئب، رواية، دار الحرية، بغداد ١٩٨١.

٤ ـ حبات النفتالين، رواية، دار الآداب، بيروت ٢٠٠٠.

٥ ـ كتاب مصاحبات، قراءة في الهامش الإبداعي والثقافي ونصوص متفرقة، دار عكاظ، الرباط ١٩٩٣.

٦ ـ الولع، رواية، دار الآداب، بيروت ١٩٩٥.

٧ ـ الغلامة، رواية، دار الساقي، بيروت ٢٠٠٠.

٨ ـ المحبوبات، رواية، دار الساقي، بيروت ٢٠٠٣.

سرمد، المريض العراقي، مترجم وباحث. ويحب «ألف». لكنّه يصل في النهاية إلى ضمور ذكره. يدرك مأساته فيذهب مع صديقه الطبيب يوسف للعلاج في مركز متخصّص بذلك في باريس.

تسعى هذه الرواية إلى تعميق معنى الجنس من حيث علاقته الأساسية بالسياسة، والذكورة من حيث علاقتها بالسلطة وأزلامها. وتحكي عن الفقدان الأليم للذات وللحبيبة وللوطن.

عالية ممدوح روائية عراقية. لها عدد من الروايات، من بينها: حبّات النفتالين، والولع، الصادرتان عن دار الآداب، ورواية المحبوبات التي فازت بجائزة نجيب محفوظ لعام ٢٠٠٤.

تُرجمت أعمالها إلى لغات عالمية عدّة.



لوحة الغلاف للفنان أحمد الحجري

دار الآداب
هاتف ٨٦١٦٣٣-٨٠٣٧٧٨
ص ب ٤١٢٣ - ١١ بيروت